

DATE DUE

12 MAY 1986

DATE DUE		



297:Sh53iA

C.1

شاويش، عبد العزيز.

الاسلام دين الفطرة.

297

Sh 53iA

~~1 FEB 1973~~

J. Lib.

1 FEB 1982

J. Lib.

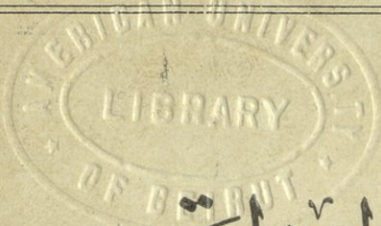
~~5 JUN 1984~~

Oct 21 1951

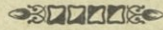
A S.

297.
Sh532A

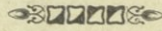
من سلسلة آثار المرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش



السلافة في الفطرة

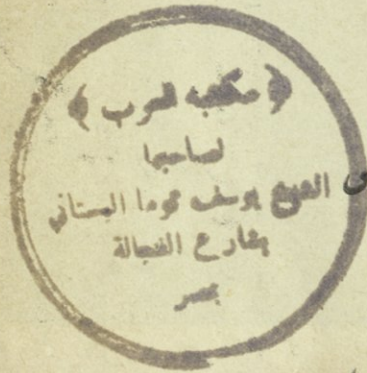
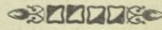


آثار القرآن في تحرير الفكر البشري

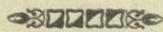


آثار الخمر في نظر اذقنا الأهم

Cat. Nov. 1951



بصدرها : ناصر جاويش
صاحبها
الشيخ يوسف توما المصطفى
بشارع النجاة
بمصر



(١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م)

77769

مطبعة القاهرة - بامسابة



حضرة صاحب الفضيلة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاویش بک
۵۲۱۱۲

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى الجيل الذي عاصر أبي ، والبقية انصاحه التي نستمد منها العون
والهدى في طريق الحياة .

إلى الجيل الذي نشأ بعد أبي ، ولم يتح له أن يعرف شيئاً ، أو عرف
القليل عن جهاده في سبيل الوطن والعروبة .

أقدم بعض آثار والدي في ميدان الإصلاح الديني والعلمي ، الذي
حمل لواءه ، في عهد كان عبء الدعوة فيه إلى الإصلاح فادحاً ، لا ينهض به
إلا المجاهدون ، من أولى العزم والقوة ، الذين يستسهلون كل صعب في
سبيل أداء رسالتهم ، لا يثنيهم عنها ما يعترض طريقهم من أهوال ، وبخاصة
في تلك الحتمية التي قام فيها بالدعوة إلى الإصلاح .

وهي رسائل ثلاث تحمل أسماء مختلفة ، ولكنها تهدف جميعاً إلى غرض
واحد ، هو الكشف عما في الإسلام من سمو ورفعة ، وما في أحكامه من
علم وحكمة ، وما في روحه من بر بالإنسانية وهداية لأبنائها .

ولعل من توفيق الله، أن تتهيأ لى الفرصة لنشر هذه الرسائل ، فى هذه
الفترة التى تطورت فيها الروح المصرية ، واتجه فيه تفكير المثقفين إلى
المباحث الدينية على أسلوب علمى ، كان يلتزمه - رحمه الله - فى كل
مباحثه ودراساته .

وليس من حقى فى هذا المقام أن أطرى هذه الآثار العلمية ، لأنها
آثار أبى ، وهأنذا أقدمها للقراء أثراً عليه طابع منشئه وحسب ، وفيه قوة
روحه وإيمانه وكفى .

وقد مضى على إنشاء هذه الرسائل أكثر من عشرين عاماً ، لكنها
لا تزال تحتفظ بجديتها وأسلوبها التقدمى . الذى تميزت به رسائل الفقيد
ومؤلفاته .

وسأعمل بعون الله ، على تتبع جميع ما خلفه أبى ، من آثار سياسية
وعلمية ودينية وأدبية ، وأظهارها بالتوالى فى هذا العصر الذهبى ، وفى ظل
راعى العلم وموئل العلماء حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق الأول »
حفظه الله ورعاه ؟

ناصر جابرس

الاسلام
دين الفطرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

زارني ذات يوم ، وأنا في أكسفورد من بلاد الانكليز ، لفيف من نجباء
طلبة العلم في كليتها الجامعة ، فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحدث
في أمر الشرق والشرقيين ، وما لهم من الأخلاق والمعادات والأحوال ،
التي تبين في كثير من الوجوه ، ما عليه أهل أوربا الآن ، حتى أفضى بنا
المقام الى الكلام في الإسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم أنهم
لا يكادون يفقهون للإسلام معنى ، سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق
وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح ابن
مريم ، وما زادوني فيهم بصيرة ، فاطلما قابلت من أمثالهم ما أوقفني على
مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف .

فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل ، أصول الدين الإسلامي
وقواعده وحكم بعض تكاليفه ، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص
عليهم ، من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد
أو جحود ، بل نبتوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من
النقائص ، التي مثلت لهم الإسلام في أبشع صورة وأقبحها ، ولم يكذب
ينتهي بنا الحديث ، حتى انطلق أحدهم قائلاً : « يخيل لي أيها الشيخ أن هذا

الدين لا ينافي الفطرة في شيء» (Natural religion) ، فأجبتته إذ ذلك ،
وقد تذكرت قوله عليه السلام - « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه
أو ينصرّانه . نعم وكذلك سماه النبي عليه السلام ، وترجمت لهم ذلك
الحديث الشريف ، ثم عنّ لي بعد ذلك أن أضع بحالة في بيان معنى كون
الإسلام دين الفطرة وتوجيه ذلك ، ولما دعيت الى هذا المؤتمر الجليل ،
وجدتها أحسن فرصة أتشرف فيها بعرض ما عنّ لي بين أيدي أعضائه
الأمثال ، لعلّ أسعد بقبولهم لما جلبته من بضاعتي المزجاة ، فأقول
والله المستعان :

١ - الحديث

روى البخارى عن أبي هريرة انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرّانه ، كما
تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها) ، وقد
اختلف المفسرون كعادتهم في المراد من كلمة الفطرة فذهبوا طرائق قدداً .
والذى يفهم من تعقيب ذلك في الحديث بقوله عليه السلام فأبواه :
يهودانه أو ينصرّانه .. الخ ، أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الانسان
بكسب أبويه كالجدع الذى يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة
لا عيب فيها .

وأعتبر ذلك بما نص عليه الشرع الإسلامى من عدم تكليف القاصرين
وَألا يَأْخُذُوا بما فعل آبائهم من التهويد والتنصير ، حتى يبلغوا راشدين

راضين بدين آبائهم فيؤاخذون اذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء
التكاليف بما كسبت أيديهم

فترى الإسلام قد اعتبر القاصرين ، ولو أبناء النصارى أو اليهود أو
المجوس ، مسلمين ناجين حتى يكفموا. فالدين الفطرى لكل مولود هو الإسلام
الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالإرث ونحوه فإن الاطفال فى
ذلك تابعون لآبائهم

(وبعد) فإننا نريد أن نذكر لك وجه كون الإسلام دين الفطرة، وأنه
لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود ولا منصر لما اختار بفطرته
الا الإسلام ، فانه لا يمكن توضيح ذلك إلا بالبحث فى بعض أصول لإسلام
وقواعده والأغراض التى يرمى إليها الشارع فى تكاليفه ، فنقول :

٢ - الفطرة والتومير

كل انسان يشعر فطرة بأن ثمة واحداً قد نظم هذا العالم ودبره ،
لا يمكن أن يشابهه الممكنات فى شىء من صفاتها ، فليس بجسم ولا عرض
ولا محدود ولا متحيز لا يستطيع إدراكه إلا بآثاره الشاخصة غير قابل
للحلول ولا للصعود ولا للنزول

إلى ذلك اهتدى الاعرابى بفطرته فقال: « البعرة تدل على البعير وأثر
الأقدام يدل على المسير . فسماء ذات أبراج . وأرض ذات فجاج ، كيف
لاتدلان على اللطيف الخبير ». فجاء الإسلام مصدقا لما اقتضته الفطرة السليمة
ولم يزد فى الاستدلاء شيئاً سوى أن أيقظ العقول ونهبها الى النظر فى آثار

الله تعالى ، فما عليك الا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك في أكثر من
آية من آياته

نعم ربما قال انسان إنه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس في
عقائدهم وتباينوا في تصوير آلهتهم، فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى، حتى لا تكاد
تجد تشابهاً بين آلهتهم . فسنحقق لك بعد أن هذا مبان لمقتضى الفطرة، إذ
منشأ ذلك أن الانسان ميال الى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من
الكائنات وإلى إنكار ما ليس له في ذهنه صورة ولا حدود محصورة

فمن ذلك ما قصه الله في شأن معاندى أهل الكتاب حيث قال :
« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى
أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا
العجل من بعد ما جاءتهم البينات »

ومن البديهي أن الشيء لا يصح إنكاره إلا إذا ثبت بالبرهان القطعي
عدم وجوده، أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديدته والإحاطة به فمن
العجب أن يتخذ ذوق عقل برهاناً ينفي به وجود الشيء، وأعجب من ذلك أن
ترى أكثر المتحكيكين بأهل العلم في هذا العصر على هذا المذهب العجيب
الذي هو آية الجهل ونهاية الحرق

جاء الإسلام في وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل
تمام المطابقة، أفلا تدبرت قوله تعالى: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه
سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده
إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا

بما شاء وسع كرسية السموات والأرض ولا يؤوده حفظها وهو العلي العظيم»
لقد جمعني المصادفات برجل مسلم من الانجليز ، لم يرج من إسلامه
شيئاً من حطام الدنيا ، ولا أن ينال جاهاً يتخذه عدّة لنيل شيء من
الغائب السياسية ، فقال لي : إن في القرآن الكريم آية لا أمل من تكرارها
ولا من ترديد النظر فيها ، جاءت في وصف الله تعالى بما ليس في استطاعة
أحد من أمة الأديان الأخرى ، على ذكائهم وسعة اطلاعهم ، أن يأتوا به ،
ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسي . فبأبيك أيها العربي هل
مرت تلك الآية مرة على سمعك إلا وأنت لاه عنها تلعب أو حركت بها
لسانك إلا وأنت بها تعجل

هذا وتتمياً لموضوع التوحيد أريد أن آتيك هنا بكلمات عثرت
عليها (*) للورد ما كولي الكاتب الإنكليزي الشهير ، إذ قال ما ترجمته :
« أن علماء المنطق قد بنوا عتائدهم وقضايهم على البرهان العقلي ، فأمكنهم
أن يسلبوا القول بأن من الأشياء ما لا يمكن للعقل أن يحيط به ، بخلاف
السواد الأعظم من العامة فإن معظم أفكارهم وقضايهم إما خيالية أو وهمية
أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح
وفكر سليم ، ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية في كل أمة وفي كل
جيل في كل زمن ، فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ما صورته خيال
معتقدتها »

* see the essay on milton

وإظالمنا أذّن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديماً في دينهم من البدع ،
مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إله
محسوس ملبوس يقصدونه بالعبادة والإجلال . ويمكن القول بأن معظم
الأسباب التي ذكرها « جييون » وجعلها أساس إنتشار الدين النصراني لم
تؤثر ذلك الأثر ولم تنشر ذلك الدين في أطراف الأرض إلا لأنها كانت
مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التي كان لها أكبر سلطان على نفوس
السذج من العامة ، فإن إلهها لم يخلق وكائناً لا تدركه الأبصار ولا تحيط به
الظنون لم يقل به إلا الفلاسفة العالمون ، أما الأخطاط ضعاف العقول من
الناس فإنهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة إدراكهم عن أن تصل
إلى القول بإله ليس له صورة محدودة في نفوسهم ، فكانوا يتأفقون ويهزءون
ويضحكون من أولئك الفلاسفة رامينهم بالبله أو قصور الذهن

طاشت النفوس في الأزمنة القديمة ، وضلت الصراط السوى ، وقست
القلوب ، وانتهدكت الحرمات ، فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس
ويدعوهم إلى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر
ولم يسلم تابعو المسيح من النصراني أن يصديهم في إيمانهم مثل ما أصاب
اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم ، فتمثل الإله لهم في صورة آدمي مشى
بينهم وشاركهم في أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال ، كما كان
يبكى على القبور وينام في الحظائر ، ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب ،
فظهروا بذلك للعالم في لباس جديد من الوثنية ، ثم كان لهم من القسيسين
والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان ، فكان القديس

جورج لديهم إله الحرب، كما كان المريخ عند اليونان، وكذلك اتخذوا العذراء
وسيسليا Cicilia وغيرهما آلهة الجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع
كواكب أخرى (the Muses) آلهات لدى اليونان ... وهلم جرا
ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون ما لصق بعقول العامة
من تلك الصور الوهمية، ولكنهم لم يفلحوا

تجد العامة إلى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له من
الحزبيلات، ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم في سوق
الفضائل والمكرّمات، أكثر مما يميلون إلى تعرف وتفهم شيء من قواعد
الدين الأساسية « انتهى ببعض تصرف

هذا ما قاله اللورد ما كولي في شأن الدين الذي يعتنقه ويدعن له، وفي
الأمم التي شاركتها في الأخذ به وبيان أحوالهم، فتذكرت هنا، والحديث شجون،
ما أصاب عقول المسلمين من المس الذي أصاب عامة غيرهم. أفرايت الذين
يذهبون إلى الأضرحة فيعفرون وجوههم بترابها ويتضرعون إلى من فيها
متوسلين بهم إلى من هو أقرب إليهم وأسمع لدعائهم وأقدر على إصابتهم
وأحق بعبادتهم وخشوعهم؟ « قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون
لأنفسهم نفعا ولا ضرا. أإله مع الله. أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين
القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ». والخلاصة أن السبيل التي جاء بها
الشرع الإسلامي في الإيمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده
بالعبادة دون كائن غيره هي السبيل التي يصل إليها الإنسان بفطرته متى خلى
وشأنه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع إلى غير تلك السبيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفواً أحد)

٣ - النبوة وتقريرها والغرض من الفطرى منها

ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في أمة أمية ، دينها الوثنية ، ومن أخلاقها
الكبر والغطرسة والعناد ، ووسائل ارتزاقها السلب والنهب ، فلما جاءهم الرسول
بالحق الواضح اختلفوا ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه
كان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن
يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة ، فكان صلى الله عليه وسلم
يرجع بهم إلى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل ، إذ لا علاقة عقلية
بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الأرض ونحوه من المعجزات ؛ ولقد
نقل عن ابن رشد أن الآيات الاقتراحية لا تدل دلالة قطعية على دعوى
الرسالة إذ جاءت منفردة لأنها ليست من أفعال الصفة التي سمي بها النبي نبياً أو
الرسول رسولاً ، ولذا كان النبي عليه السلام يرجع بالقوم إلى ما هو من حدوده
والى تدبر ما جاء به القرآن الكريم من الهداية ، فان دلالة القرآن على هذه
الصفة كدلالة الأبراء على الطب لمن يدعيه ، قال تعالى : « وقالوا لولا نزل عليه
آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا
عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ولطالما
تنصل النبي صلى الله عليه وسلم من اجابة مطالب العرب ، وأرشدهم الى ما قصد
من شريعته وهو اصلاح شأن العالم الانساني والقضاء على ما كان سائداً

فيهم من الضلال المبين ، قال تعالى : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » وجاء في سورة الاسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً »

كم حذر النبي صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج في طلب المعجزات ويئس لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها ، فمن ذلك قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفاً » وقال : (قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين »

لم يكن طلب المعجزات من النبي عليه السلام ناشئاً عن تروء من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة واصرار منهم على أن لا يقبلوا شيئاً إلا بيهان ، ولكنهم كانوا يقترحونها إما عبثاً أو عناداً أو عملاً بما تلقفوه عن الجاهلية الأولى وما أملت عليهم نفوسهم التي أخذ الضلال بتلابيبها ، فكان النبي عليه السلام يدعوهم إلى العمل بمقتضيات الفطرة الإنسانية وبطلب ما لا يخالف سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً ، قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لنسجاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت

لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في
طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلهم الموقى وحشرنا عليهم
كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . ولكن أكثرهم يجهلون »
أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التي يطلبونها لا تصلح مفسحا
لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه ، إذ مثلها في ذلك مثل من ادعى أن
 $2 + 2 = 5$ وبرهن على ذلك بابرائه مريضاً من داء عضال ، فان المدعى
بها أتى من الأمور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع أن يحمل أحداً
على اعتقاد دعواه التي أتى بها ، ومن هناك كان الأقدمون من اليهود وغيرهم
يؤمنون ما يأتي به أنبياؤهم من المعجزات ، فقائل أنها سحر وقائل أنها من
أعمال الجن المسخرة لهم ، حتى اذا ضاقت عليهم الاسباب لجأوا الى التماس
أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك
الآيات مع اصرارهم على الجحود والانكار ، كما قال تعالى : (وقالوا قلوبنا غلف)
وقال تعالى : (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقروء من بيننا
وبينك حجاب) فكانوا يقفون بعد أن تأتيهم الآيات موقف المحارب لله
العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله
وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات

طالما كذب المشركون النبي صلى الله عليه وسلم ، كما فعل أسلافهم ، وناله
من عنائهم ولجاجهم في طلب المعجزات ومغالاتهم في العناد ما كان يحزنه
ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء ، ولو كانت الخوارق في يد النبي
صلى الله عليه وسلم ، وكانت من البراهين التي تصح لالزام الخصم وإخامه ،

لما قعد بالنبى عليه السلام أمر عن الإتيان بها، ولكنها كلمات الله التي لا مبدل لها وسنته التي لا تتغير « وإن كان كبر عليك اعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً في الأرض أو سهلاً في السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين »

والخلاصة أننا نرى القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول بالتدبر وأن لا يشطوا في مطالبهم ولا يعتسفوا في اقتراحاتهم، بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة إلى ما يريدون من الغايات . ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الأبدية التي جاء بها ذلك النبي الأسمى عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونوراً مبيناً يهدى به الله من اتبع رضوان سبيل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ولذلك نرى القوم كلما اشأبت نفوسهم إلى نزول إحدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم . فمن ذلك قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »

نزل القرآن الكريم ليؤدى ما قصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الإلهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة، وما زال القرآن إماماً يتبع ويفصلا يحكم في النوازل، حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه، فاستعملوا آيات القرآن في غير ما وضعت له، فاتخذوها للتطبيب والفتك بالاعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد، بل تراهم تطرفوا واجتروا على القرآن

ومنزله، فأولوا القرآن طبقاً لأهوائهم وأخرجوا كثيراً من آياته عن معانيها التي تقضيها لغته وأسلوبه وسياقه، أما رأيهم كيف يفهمون قوله تعالى: « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوله: « شفاء لما في الصدور » وقوله: « لهم ما يشاؤون عند ربهم » وقوله: « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما » وقوله: « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إننيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقوله: « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً » إلى نحو ذلك من الآيات وإن شئت أن تعرف ما أتى به بعض المفسرين في تفسير هذه الآيات وأمثالها من الأفك المبين والجهل الفاضح فارجع إلى ما كتبوا. ولنضرب لك مثلاً شيئاً مما كتبوه فنقول:

(١) جاء في الجزء الثاني عشر من تفسير الطبري عند الكلام على قوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي » وقيل بعداً للقوم الظالمين « حديث موضوع في وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج انه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفي أسفلها السباع وكان طولها في الجو ثلاثين ذراعاً ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودي يوم عاشوراء ومرت بالببيت فطافت به سبعة وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت ... اهـ

(٢) وجاء في كثير من التفاسير في تأويل قوله تعالى: « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » - في سورة الرعد - إن

الضمير في «له» عائد الى من ذكر اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد، وذلك ان ملائكة الليل اذا صعدت أعقبها ملائكة النهار، فاذا انقضت النهار صعدت ملائكة ليلته ثم أعقبها ملائكة الليل، ورووا في ذلك حديثاً عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال: اخبرني عن العبد كم معه من ملك. قال ملك على يمينك على حسنانك وهو أمين على الذي على الشمال وملكان من بين يديك ومن خلفك . يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، وملك قابض على ناصيتك ، فاذا تواضعت لله رفعتك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفقتك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه ، وملكان على يمينك ، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي ينزلون وملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وابليس بالنهار وولده بالليل ... اه

ولا يخفى أن هذا الحديث مكذوب على حضرة النبي ، على أنه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به ، مع أن سياق الآية لا يكاد يحتمله بوجه من الوجوه، فان سياق الآية كان في الكلام على علم الله واحاطته بجميع الكائنات ، وعلى عظمته وتعاليه المتناهي الذي يغلب معه كل مغالب ولا يبقى الانسان دونه أى حافظ، إذ قال : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسار بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » . فالمستخفي بالليل والسار بالنهار المتخذان لها حرسا وجلالوزة

سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفي عن الله ولا الحرس يدفع
عن الانسان ما يقضى به الله على عبادته. ثم بينت الآية أن سنة الله في خلقه
ربط الأسباب بمسبباتها، إخفاء الأسباب أو كتمانها لا يحول دون تحقق نتائجها،
فإن الله الذي جعل ذلك الرباط رباط السببية مطلع على خفايا الأمور محيط
بما تجننه الضمائر، فلا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم؛ فإذا تحققت
أسباب أى قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه
من وال، فلا ينفع الانسان إذ ذاك حرس كشيء يتعاقب عليه دائماً يقيه شر
الحوادث؛ هذا ما يفهم من الآية وسياقها، فعجبنا لأولئك المفسرين أرادوا أن
يؤولوها ذلك التأويل الشاذ، فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا إن
الضمير في قوله تعالى «له معقبات» يعود على من ذكر اسم الله تعالى، وهذا
لا أثر له أصلاً في الآية، هذا فضلاً عما عمأوه في تفكيك نظام الآية إذ
قطعوا الحال من صاحبها وفرقوا بين الأجزاء التي تتألف منها

(٣) ومن ذلك ما قاله بعضهم في تأويل قوله تعالى : « تنزل الملائكة
والروح فيها » بسورة القدر - حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات
السبع والأرضين السبع كانت له لقمة واحدة، أو هو ملك رأسه تحت العرش
ورجله في آخر الأرض السابعة وله الف رأس كل رأس أعظم من
الدنيا وفي كل وجه الف فم... إلى آخر السلسلة المعروفة، فانظر إلى هذه
الحزبيلات التي يحملون عليها كتاب الله تعالى

(٤) ومن ذلك أيضاً ما أتى به كثير من المفسرين في تأويل قوله تعالى :
« يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » إختلف أهل التأويل

في ذلك . فقال بعضهم : يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا الشقاء
والسعادة فإنهما لا يغيران ، وزاد بعضهم الحياة والموت . ثم انقسموا ، فقال
بعضهم ان ذلك في ليالى القدر ، وقال بعضهم انه في ليلة النصف من
شعبان . وقال آخرون ان ذلك في كل ليلة . ففي تفسير ابن جرير عن
أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ينزل في ثلاث
ساعات يبقين من الليل يفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره أحد
غيره يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وقال أيضاً : ان الله يفتح الذكر في ثلاث
ساعات يبقين من الليل في الساعة الأولى منهن ينظر في الكتاب الذي
لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، واذا شئت أن
تستقصى ما قالوه في أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم .

ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والإثبات هنا ، فنقول : قبل
أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها :

قال تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية
وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله
ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) . انقسم أهل الكتاب على النبي عليه
الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الأحكام ، كما
كان من الأحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى صلى
الله عليه وسلم من التزوج والأكل والشرب ونحوها من أعمال الدنيا « وقالوا
ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق » وكذلك كانوا كلما سألوا
المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئاً من الآيات الخارقة للعادة كإغاضة المياه

ونقل الجبال واحياء الموتى لا يجيبهم الى شيء من مطالبهم واقتراحاتهم كما
 قدمنا ، فكانوا يستضعفونه وينزلون من شأنه ويعتبرونه عاجزاً لا ينبغي له
 أن يدعى النبوة ، فردّ الله على أولئك القوم ، وبين لهم أن تلك الأشياء
 لا تنافي الرسالة في شيء فقال: « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ككآدم وابراهيم
 وموسى وداود وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » كما بين أن التصرف في الكون
 والايان بخوارق العادات ليس الا الله تعالى فقال وما كان لرسول أن يأتي
 بآية الا بإذن الله الذي هو خالق كل شيء ، فهو الذي يمحو ما يشاء محوه ،
 ويثبت ما يشاء اثباته ، طبقاً لما سبق في علمه القديم ، كما يدل عليه قوله تعالى :
 « وعنده أم الكتاب » . اذ معنى أم الكتاب أصله ، وأصله هو العلم القديم
 الذي لا تتعلق قدرة ولا ارادة بشيء الا طبقاً له . وبالجملة انه لم يقصد من
 قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » إلا مجرد تأكيد
 ما استفيد من قوله قبل ذلك : « وما كان لرسول أن يأتي بآية الا بإذن الله » .
 هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولا تبال ،
 ولأحذر كما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من أن الله تعالى
 قد يغير ما سبق في علمه الا الشقاء والسعادة فان هذا يفضى الى القول بأن
 علم الله القديم ينقلب جهلاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . فالحذر الحذر
 من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته في ليلة النصف من شهر شعبان اذ
 ورد فيه : « اللهم ان كنت كتبته عندك في أم الكتاب شقيماً أو محروماً أو
 مطروداً أو مقترأً على في الرزق فاح اللهم بفضلك شقاوتي وحرمانى الخ »
 فإن معنى ذلك أن الداعي يسأل الله أن يغير ما سبق علمه أزلاً الى ما هو

من مشتبهات نفس الداعي ، وإن انقلب علم الله بذلك جهلاً .
عاش النبي صلى الله عليه وسلم ما عاش ، ثم مضى السلف الصالح من بعده ،
فما سمع أن أحداً منهم فهم من القرآن إلا ما يدل عليه من حيث هو كتاب
عربي مبين ، ثم خلف من بعدهم خلف افتأوا على النبي وصالح أتباعه ،
وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما في غضون
كتاب الله من أنزل عليه ذلك الكتاب ، فبتجولوا للقرآن أعداء في ثياب
أصدقاء ، يلزمونه بما ينكره ، ويحملونه ما لا يحتمله ، ويفسرونه طبقاً لأهوائهم ،
ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرج عن الغرض الذي أنزل لأجله ، والله
يقول : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً » ويقول :
« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » ويقول :
« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً فيما لينذر بأساً
شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً
ما كثين فيه أبدأ » وكذلك يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي
به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه »
ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عند استقصائه من أمثال تلك الآيات التي
تنطق ببيان الغرض الذي جاء له القرآن الكريم .
غفل أكثر المفسرين ، أو جهلوا الغرض الذي أنزل له هذا الكتاب
الكريم ، كما كلت أفهامهم عن إدراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمى إليه ،
فقالوا إن القرآن لم يترك فناً من الفنون العلمية إلا أتى بشيء من مسائله ،
فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا ، وادّعوا أنه أتى

من كل فن بطرف ، فحماوه من التأويل ما ينبوا عنه ، ثم ذيلوا آياته بأشياء
أملأها عليهم جهلهم ، ووسوست لهم بها شياطينهم ، فشوهوه وألبسوه غير
لباسه ، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء
منه ، فكانوا أضر عليهم من العدو المبين .

لنرجع الى ما ذكره أولئك المفسرون في شرح إرم ذات الجعد ، وشمود
الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، والى ما قالوه في أمر
الزلازل والثور الحامل للأرض ، ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقمومون
من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيأمر الله
السماء أن تمطر عليهم دماً ، الى آخر ما قالوا ، كما ألفتك الى ما قالوه في تعليل
ما يشعر به الإنسان من سخونة مياه الآبار في الشتاء ، وبرودتها في الصيف ،
إذ عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ، ولما كانت الشمس تغرب فتدخل
في جوف الأرض كان تأثيرها في المياه التى فى جوف الأرض أثناء الشتاء
أكبر من تأثيرها فى أثناء الصيف . هذا بعض ما أتى به أولئك المفسرون
ليتمموا به كلام الله تعالى ، فأضحكوا منهم الصبية والبله ، فضلاً عن العقلاء
من الناس ، كما أنهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية
بالقرآن الحكيم ، فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالانكليزية يأتى واضعها بما سطر
أولئك الجهة المتعاملون ، ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين
ذلك الكتاب ، وأولئك أمته ، فيالله من الصديق الجاهل .

كبر على كثير من الناس القول بأن القرآن كتاب مبين يفهمه كل من
يعرف لسانه ، فجعلوا يحومون حول المعانى البعيدة ليحملوا عليها آيات

القرآن . الم تر الى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين : أحدهما باطنى ، والآخر ظاهرى ، وادعوا أن الرسول الذى أتى به لم يصل الى إدراك ما فيه من المعانى الباطنية ، مع أنه يقول مامعناه : أنا أعلم بكتاب الله تعالى ، ولو علمت بأعلم منى به لرحلت اليه ، أو كما قال .

أرعى سمعك أقص عليه أن المتدبر للقرآن يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم ما سئل فى شىء مما لم يبعث لأجله إلا صرف السائل عن قصده ، وتلقاه بغير ما يترقب تنبهاً الى أنه الأولى بالقصد والأليق بما هو من حدود الرسائل ، ووظائفهم من الهداية والإرشاد وتبليغ الشرائع . ينوه الى ذلك قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » وقوله : « يسألونك عن الألهة قل هي مواقيت للناس والحج » وقوله : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكرها . الى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها » فيبين الله فى هذه الآيات أن وظيفة الرسل الإنذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هي آتية لا ريب فيها ، وليس وظيفتهم تعيين وقتها . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صافصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » تدل هذه الآية وما سبق على ما قلناه لك آنفاً من أن النبي صلى الله عليه وسلم فى إجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لا يسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها ، رجوعاً بهم الى السنة الفطرية .

٤ - هل أسس الاسلام على السيف ؟

لهج معظم الأوربيين ، وضعاف العقول من المسلمين ، بأن الإسلام لم ينتشر

ولم ترسخ قدمه في عالم الوجود الا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل ،
وتدلل بين يديه العطاء ، وتلجىء المستضعفين الى اعتناقه حقناً لدمائهم ،
وصيانة لأملهم وأسبابهم ، وقد ضربوا الأمثال بما أقام النبي صلى الله عليه
وسلم من سراياه ومغازيه ، ثم بما عمل خلفاؤه من بعده ، على أنهم لو قرؤا
القرآن ، وشيئاً من التاريخ ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا شيئاً
من أخلاق العرب وعاداتهم في ذلك الوقت ، لما تطرق ذلك الخطأ الى عقولهم ،
ولا استحوزت عليهم وساوس صدورهم ، حتى يرموا النبي صلى الله عليه وسلم
وصالح سلفه بما هم براء منه . نعم إنه لا يسعني أن أنكر أنه قد وجد من
أمراء المسلمين من شوهوا وجه الإسلام ، ودنسوه بما جنت أيديهم عليه ،
ولكنني أريد أن أتكلم هنا في الإسلام من حيث هو ، كما أريد أن آتي على
نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وحروبه ، لتري أنه
صلى الله عليه وسلم مابداً أحداً بعدوان في جميع ما أقامه من الحروب ،
وما يتذكر إلا أولو الألباب .

لا حاجة لي أن أذكر هنا ما كان عليه في بدء الدعوة من الإنفراد والضعف ،
وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى ، فان هذا ما لا يرتاب فيه أحد .
أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فجعل النبي يساراً بدعوته من يثق
بتوقد فكره ، وتمكن من الإنصاف من قلبه ، فلم يسلب لتأييد رسالته
إلا سيف الهدى والحجة الدامغة ، فمن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير
وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفاري ، ومن السابقين الى الإسلام خالد
ابن العاص جاء النبي فقال له : الى مَ تدعو يا محمد؟ فقال : « أدعوك الى عبادة

الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والإحسان الى والديك ، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر ، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وأن لا تقتل نفساً حرّمة الله قتلها الا بالحق ، وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل في قولك ولو كان على ذوى قرباك ، وأن توفي لمن عاهدت ، « ، فأسلم ، وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في الإسلام غير مهدين ولا ملجئين ، ولكن طائعين منصفين مدركين فرق ما كانوا عليه من الضلال ، وما أتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول في الإسلام إذ ذاك لارغبة في جاه ، ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع ، فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة ، واعظم جاهاً ، وأقوى عصبية ، وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذي أطاعوه ، وتبعوا شرعه ، واحتملوا الأذى في تأييده » لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

ثم جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، فسخرت منه قريش ، وكانوا يضحكون منه في مجالسهم ، وهو مع ذلك لا يثني عزمه ، ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم ، وتقبيح آلهتهم ، فاضمروا له العداة والبغضاء ثم جاؤا الى أبي طالب عمه وقالوا له : إن لك شأناً وشرفاً ومنزلة منا ، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفه أو ننازله وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا ، فعظم على أبي طالب فراق قومه ، ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه . فقال له : يا ابن

أخي ، ابق على نفسك ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيعه . فظن الرسول أن عمه خاذله ، فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ثم بكى وولى . وقد صادف النبي على أثر ذلك من أذى قريش ومناواتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ما خلد في التاريخ . ومن ذلك ما رواه البخاري قال : « بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

ولتعد عم الأذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد إلا أصابه منه حظ كبير . ذلك أبو بكر الذي كان في الجاهلية سيداً شريفاً اشتد عليه أذى قريش ، حتى أجمع رأيهم على الهجرة إلى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله في داره فيصل فيها ماشاء ، ويقرأ ماشاء ، ولا يؤذى قريشاً بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم ، فلما ابتنى أبو بكر مسجداً بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذي عاقدت الله عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتي ، فإني لأحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما في البخاري بتصريف)

تفانم الخطب ، وأحدثت الفتن بالمسلمين ، حتى عجزوا عن احتمالها ، فأشار النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ، فهاجر منهم عشرة

رجال وخمس نسوة ، فلما أعيث قریشاً الحیل ، عزموا على منابذة بنی هاشم
وبنی المطلب وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمداً صلى الله
عليه وسلم للقتل . وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة ، فأمر
النبي صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة ، فهاجر معظمهم .
ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قریش ما رأى جعل يخرج في
الأسواق العربية ، ويعرض نفسه على القبائل ليحموه ، فكان منهم من يردّه
رداً جميلاً ، ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلاً ، حتى اذا جاء رؤساء الأوس الى
مكة ليحالفوا قریشاً على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
هل لكم في خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشرکوا به شيئاً ، ثم
تلا عليهم القرآن ولم يمض الا قليلا حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ،
ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلا قليلا ، فأثار ذلك
من حنق قریش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون في ايديهم للنبي على ما هو
في كتب السنة الصحيحة . فلما علموا بما حالف الأنصار عليه النبي صلى الله
عليه وسلم أجمعوا أمرهم على أن يقتلوه ، واتفقوا على أن يأخذوا من كل
قبيلة شاباً جلدأ ويجمعوا أمام داره ، فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ،
فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قریش كلهم ،
فألهم الله النبي صلى الله عليه وسلم بجميع مادبر له أعداؤه ، فخرج هو وصاحبه
أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه .
هكذا كان مجمل بدء الدعوة الإسلامية . وانني هنا لوائق أنه لا يكاد
يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئاً من ذلك ، أو يدعى أن

سيفاً أعمل في خلال تلك السنين . فما على إلا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرائيا مختاراً أشدها وأهمها في اظهار الدين ، فأقول :
أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش ، وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله» وقال : «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلواهم حيث ثقفتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوك فيه . فإن قاتلوكم فاقتلواهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » فلم يبيح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم ، فلها تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب ، أباح الله للنبي أن يقاتل كل معتد عليه فقال : «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» وقال : «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» فانظر الى ما شرعه الله للمسلمين من القتال ، أتجده يخالف في شيء ما يسمى في هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس ؟ كلا . فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ، ولم يبيح لهم الا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم .

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله ، وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لأجل اضعاف شوكتهم وغل غرارهم ، حتى لا يتمكنوا من العودة الى محاولة قضاء آربهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر

والتأييد، فكانوا يتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء على دينه وشيعته، فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم، ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم؛ فكان من الحزم وسداد الرأي أن يقعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل، فكان يرسل سرايا، ويخرج بنفسه في المغازي، حتى لا تمر غير لقريش إلا صادرها، وحرّم المشركين مما فيها من الأمتعة، فكان مرة يصيب منهم، وتارة يخطئهم. فمن أكبر الغزوات التي انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى، خرج النبي صلى الله عليه وسلم مترصداً أعظم غير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية لها مثقال فصاعداً إلا بعثت به في تلك العير

(١) فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول في رجاله أرسل إلى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا فالتقى الجمعان، وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم « ولقد نصركم الله بيدروأنتم أذلة » .

(٢) كان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوفون أن يصيبهم من أهل مكة ما لا قبل لهم به، فلما كانت وقعة بدر الكبرى التي أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول، فبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر، فلقد قال رؤسائهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد حذرهم عاقبة البغي: « لا يغر نك يا محمد مالقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقى » . فبنقضهم ميثاقهم، وبداءتهم بالعداء سار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم

وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، فلها آانسوا من أنفسهم الضعف ، واستولى على أفديتهم الرعب ، وسألوا الرسول أن يخلي سبيلهم فيخرجوا من المدينة ، ولهم النساء والذرية ، والمسلمين الأموال ، فقبل منهم ذلك .

(٣) عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة لتأدية نسك العمرة ، فخرج في ألف وخمسةائة من أصحابه ومعهم الهدى ايداناً بأنه لم يذهب الى مكة محاربا ، فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ، ثم أن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيراً الى قريش ليعلمهم مقصده ، فذهب عثمان وبلغ ماحمل ، فقالت قريش : ان محمداً لا يدخلها عنوة أبداً ، ثم أنهم حبسوه . فشاع أن عثمان قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام حينما بلغه ذلك الخبر : « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » . وبايع أصحابه على القتال ، فخافت لذلك قريش ، فأرسلت سهيل بن عمرو في طلب الصلح ، فوضعت الحرب أوزارها على ما تراضوا عليه من الشروط التي منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين .

(٤) ثم انصرف النبي والمسلمون قافلون الى المدينة في تلك السنة ، وعادوا لقضاء عمرتهم في العام التالي ؛ ثم عمل النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى شروط الصلح ، فلم يخفر ذمة ، ولم ينقض عهداً ، حتى بدأت قريش بالعدوان .

ذلك أن قد دخل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة كما دخل في عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر ، وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة ، وترات قديمة ، فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعي ، فقام

هذا فضر به ، فأثار ذلك كامن أحقاد بكر واستشاطوا غضباً ، فاستعانوا
بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة ، فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ، ثم
انقضوا على خزاعة على غرة منهم ، وقتلوا منهم ، فأرسلت خزاعة الى النبي
صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتهما .

أما قريش فانها استتيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط
عقد الصلح الذي تم بينهم وبين المسلمين ، فندمت على هذه الفارطة التي
ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر ، فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة
ليوثق عرى الصلح ، ويمدفي أجله ، فخرج حتى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم
وعرض عليه ما جاء به الى المدينة ، فقال له عليه الصلاة والسلام : هل كان
من حدث بعد . قال : لا . فقال الرسول : فنحن على مدتنا الأولى واصلحنا
السابق ، ولم يزد عن ذلك . ومن المعلوم أن قريشاً الآن قد اعتبرت
محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق ، وقد شعر بما أضمره النبي
صلى الله عليه وسلم لقريش ، فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائهم
فلم يفلح .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر ،
وأخبر أبا بكر بما عزم عليه ، فقال له أبو بكر : أو ليس بينك وبين
قريش عهد؟ قال : نعم ، ولكن غدروا ونقضوا ، ثم استنفر الأعراب الذين
حول المدينة ، وسار النبي صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف مقاتل الى
مكة ، حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة ،
ودخل هو من أعلاها ، ونادى مناديه : « ألا من دخل داره وأغلق بابها فهو

آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن »
نعم إنه هدر دم جماعة ، وان تعلقوا بأستار الكعبة ، لأنه اعتبرهم ، كما يقال
في هذا العصر « مجرمين سياسيين » .

واعلم أنه لم يقاتل في هذا الفتح الا جيش خالد بن الوليد ، ولكن بعد
أن تعرضت له قريش ليصدّوه عن دخول مكة ، فقتل منهم أربعة
وعشرين رجلاً ، وقتل من جيشه اثنان ، فكان دخوله مكة عنوة .

ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من
الأوثان والأدناس ، ثم خطب في الناس ، فبيّن كثيراً من الأحكام ، ثم
ختم خطبته بقوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .
ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ، ما ورد في كتب السنة
الصحيحة من أن رجلاً جاء عقب فتح مكة ، ليبايع النبي عليه الصلاة
والسلام ، فجاء وهو يرتعد خوفاً ، فقال له الرسول : « هوّن عليك فإنني
لست بملك ، انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

(٥) على أثر هذا الفتح المبين ، وتدمير عصابة الوثنيين ، أخذ الناس
يدخلون في دين الله أفواجا ، الا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الأولى ،
فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف ، وقالوا : لقد فرغ محمد « صلى الله
عليه وسلم » من قتال قومه ، ولا ناهية له عنا ، فلنغزه قبل أن يغزونا ، أما
النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه ، أجمع رأيه على
المسير اليهم ، فخرج في اثني عشر ألفاً حتى وصل الى العدو ، فالتحم الجمعان ،

وذلك يوم حنين أعجب المسلمين فيه كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئاً ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولوا مدبرين ، لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأيدهم بروح منه ، فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمته هي العليا ، والله عزيز حكيم .

هذه هي جلّى الغزوات وأقواها في تأييد الإسلام ، واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رأيت في جميع ما قصصته عليك ، وإنه لحق ، أن النبي بدأ أحداً بعدوان ؟ كيف وهذا كتاب الله يقول : « لا عدوان الا على الظالمين » .

ارجع إلى كتب السير ، وجرّد نفسك من شوائب التحيز ، فهل تجدن مغزى ابرة للشك فيما قصصته عليك ؟ كلا .

وخلاصة القول أن البصير بالتاريخ ، يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسلب في حياته سيفاً لإرغام أحد من الناس على الدخول في دينه ، ولكن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء .

ما كان للنبي والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه ، سالكين طرق العسف والإرهاب ، وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى في الدعوة ، كما قال : « ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ، وقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » .

أنظر إلى إبداع كتاب الله في الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح ، مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة ، حيث يقول : « ما كان لبشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من

دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعملون الكتاب وبما كنتم
تدرسون .

٥ - وجه كونه دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لجميع المكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية ،
فتراهم يتشدقون بأن الأحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان ، مختلفة
باختلاف أهلها ، فيراعى في القوانين والشرائع الأماكن ، وطبقات العالم ،
و درجات ارتقائها في التحضر ، والفضل والتهديب ونحوها من الصفات ،
التي تتفاضل فيها الأمم ، وتتفاوت طبقاتها باعتبارها ، ثم كأنك بهم وقد
طفرت عقولهم ، فحكوا بأن شرائع الإسلام وسننه جاء بها نبي عربي ،
لم يعرف من أحوال الأمم الأخرى الا قليلا جداً ، كما أنه لم يعلم ما سبقتوا الى
بعده من الأمم المختلفة ، والأحوال المتباينة ، والعصور التي تكاد تكون
متباينة في مقتضياتها ومطالبها وأحكامها .

فكأنى بأمثال أولئك القوم ، قد أقاموا على أنفسهم الحجة ، بأنهم
لا يفقهون ما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى ، يسمعون القرآن ، وإنما مثله
فيهم كمثل الذى ينطق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، ويرون آياته بأعينهم ،
وأنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور .

فما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم ، أريد أن آتيك هنا بوجه
كون الدين الإسلامى دين الفطرة البشرية ، التي فطر الناس عليها فى كل
زمان ومكان ، صالحاً لكل أمة وكل جيل ، مصلحاً لكل من استمسك
بسيبه المتين ، وعمل بكتابه المبين .

إعلم أن دين الله في كل الأمم واحد لا يختلف أصوله باختلاف الأمم وأحوالها وأزمانها وأمكنها، وإنما الذي يختلف باختلاف ذلك هي الأحكام الفرعية، يشير إلى ذلك قوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله» وقوله تعالى: «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح وللنبيين من بعده» الآية .

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به، وتذكير الناس أن يتمسكوا به، فما كان له أن يبطل حتماً، أو ينكر صالحاً، أو يحدد نبياً، أو يستقبح حسناً، ولكنه جاء مؤذناً فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب، وأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله، كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى إليه أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وبأن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً. فلم يأت النبي صلى الله عليه وسلم يبدع من الشرائع، ولكن بما قرره الله من الحق، وأوحى به إلى أنبيائه من قبل، كما قال عز من قائل: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» على أننا نعلم ما تقرر في الإسلام من أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ. فتري من جميع ما تقدم أن الإسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة في اعتبار ما سبق من الشرائع والأخذ بما تقرر من النواميس العادلة، سواء ورد بها دين إبراهيم، أو دين عيسى ابن مريم أو غيرهما. نعم إن الإسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من الكلف الشاقة،

التي جلبها عليهم عنادهم وظلمهم ، كما قال تعالى : « فبظلم من الذين هادوا
حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا
وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » ، فانهم لم يزالوا كذلك ،
حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصاً على المؤمنين رؤوفاً بهم رحيماً
لهم ، فأباح الطيبات من الرزق ، ولم يكلف نفساً إلا وسعها ، فكان دينه بذلك
أكثر الأديان ملاءمة للطباع ، والعادات ، والقوى البشرية على اختلافها .
ولذا كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين .

ربما قيل كيف ذلك ؟ مع أن أكثر الأحكام النظامية ، والنواميس
التعاملية ، قد وضعها بعد النبي الفقهاء والخلفاء والأمراء ، فلم يحط الإسلام
في بدء نشأته بكل ما يلزم البشر ، من القوانين والأحكام . فنقول : إن جميع
ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام ، إنما بنوه على ما أباح لهم
الشرع الشريف ، من الاجتهاد والقياس ، كما قدروه واعتبروه بالأحكام
العامة ، التي قررها لهم الشرع ، على ما سنأتى على تفصيله قريباً ؛ فكل ما جاء
مبيناً على قواعد الدين ، فهو دين ، سواء نص عليه الشارع نفسه ، أو استنبطه
اهل الفكر والنظر الصحيح ، وهذا هو وجه كون الدين الإسلامي دين
الأبد وختام الأديان . ولنأت لك الآن بشيء من قواعد الإسلام لتري
منها وجه ما قلناه لك آنفاً فتدبره ، فان للدين ، كما ستري ، قواعد أصلية
ثابتة ، تقدر بها الأحكام ، حسبما تقتضيه الأحوال المختلفة ، في الأزمان
المختلفة ، بين الأمم المختلفة .

(١) الأصل الأول : الاجتهاد ، وأعنى به أن تستنبط الأحكام من

الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة ، حسبما تصل اليه الأفهام السليمة ، فكل من يعرف لغة القرآن ، لا ينبغي له بحال ما أن يقلد غيره تقليداً متى قدر على فهمه ، وفهم الكتب الصحاح في السنة ، فلم ينسد ، ولن ينسد ، باب الاجتهاد ، برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية ، ويقيموا عليها أوصياء من الأولين ، حتى تسير كما ساروا ، وتقول بما قالوا ، فإن السلف الصالح رضى الله عنه ، ما كان مقلداً ولكن تصدى لكتاب الله ، فعمل بما وصل اليه إدراكه ، وبلغه جهده ، ولو كان بعض ذلك خطأ في الواقع ، فإن الله لم يحرم من الأجر أى مجتهد . نعم إنه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجراً واحداً ، ولمن اجتهد فأصاب أجرين . إن أمر إنسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد إنقراض الصدر الأول منه لأسباب ، منها : انتشار العجمة في المسلمين ، وعدم استطاعة كثير منهم ، وكانوا لا يحسنون العربية ، أن يفهموا القرآن على وجهه ، ومن الأسباب أيضاً فيما أظن ، جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم ، وعدم معرفتهم أحكامه ولغته ، وإلا فكيف عموا عن قوله تعالى : « ولقد يسرنا - سهلنا - القرآن للذكر - للذكر - فهل من مدكر » أى فهل من طالب علم منه ، ومتفهم له فيعان عليه ، أم كيف غفلوا عما قبح الله به الأولياء من المشركين وندد عليهم إذ قلدوا آباءهم ، وقصروا أنفسهم على محركاتهم فيما اعتقدوا ، وفيما عملوا حيث قال : « وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا وكونوا كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » ، وإذا شئت أن تستقصى ما ورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين ، والتشهير بهم ، فعليك بقراءة القرآن

الكريم ، فستجد منه ما فيه مقنع . وما يتذكر إلا أولو الأبواب .

(٢) الأصل الثاني : القصد في الأعمال ، وإقامة ما لا يشق على النفوس من التكاليف ، فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فكل ما ليس في وسع الإنسان أن يقوم به ، فلا تكليف فيه . والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ، ولا يوقعه في العناء والتعب ، فإن هذا هو ما يفهم من التعبير ، بكلمة وسع التي معناها السعة . وعدم الضيق . ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو في الدين ، فقد ورد في البخاري « إن يشادّ الدين أحد إلا غلبه » وورد فيه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سدّدوا وقاربوا واغدّوا وروحوا وشيئاً من الدجلة والقصد » ومن هنا لا ينبغي لمسلم أن يتعالى في دينه ، وأن يتباعده عن المباحات ، وأن يحمل نفسه فوق طاقتها ، فإن هذا ليس من الدين في شيء . واعلم أن المتغالين في دينهم ، أقرب الناس إلى العجز عن القيام به ، واحتمال تكليفه ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ » وقال : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وقال تعالى : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » وقال أيضاً : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ومما يناسب هذا الموضوع ، نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ، ومنتحليه في مصر ، وذلك لبس البرطلة ، فلقد هاج وهاج بعض مدعى العلم على من قال بحل لبسها للمسلم . فسلّمهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه . إن البرطلة ليست لباساً دينياً وإنما هي لباس أمم مختلفة الملل والنحل ، فمنهم النصراني ، ومنهم المجوسى ، ومنهم اليهودى ،

ومنهم العربي المسلم ، يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقيا وغيرها .
نعم إنها تختلف أشكالها وصورها ، ولكنها ذات اسم واحد ، تندرج تحت
نوع واحد .

فإن كان شبهة أولئك القوم أنها لم تكن معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم
ولا لسلفه الصالح ، قلنا إن هذا لا يقتضى التحريم ، فهل رأى النبي صلى الله
عليه وسلم العمام التي فوق رؤوسنا أو القفاطين التي تتدلى أكمامها ، أو الجيب
(الفرجيات) التي يمكن أن يتخذ منكم أحدها لباس الجسم بتمامه ؟

فليفقه أولئك القوم أنهم يقفون ما ليس لهم به علم ، والله تعالى يقول :
« ولا تقف ما ليس لك به علم » إن الطيالة التي استعملها العلماء في خلافة
العباسيين إنما حاكوا فيها رهبان اليهود وأخبارهم ، كما أن هذه الجيب الواسعة
المستعملة في مصر ، إنما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية .
واعلم أن موضوع هذا الباب ، تخرج كثير من شبيهة المسلمين ، أن
يؤدوا ما فرضه الله عليهم من الصلاة حتى إذا سألتهم في ذلك قالوا : إننا
لا يمكننا التحرز من النجس ، لاسيما قطرات البول ، وكثيراً ما يقضى
الإنسان حاجته ، فلا يجد من الماء ما يتطهر به . ومنهم من يقول : إن من
المشقة أن أخلع نعلي ، وألبسهما عند كل صلاة ، ولا يمكنني أن أصلي بهما
حسبما يفتينا علماء المسلمين ، لأنه يغلب على الظن عدم سلامتهما من
النجاسة ، التي تكون عادة في الطرقات . فتزى أولئك الفتية يتركون
الفريضة التي هي سمة المسلم ومذكروته بالحق تعالى ، وناهيته عن الفحشاء
والمنكر ، إنصاعاً لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون .

فمن لى أن يرى أحداث المسلمين مارواه البيهقي مرفوعاً «إذا جاء أحدكم المسجد، فليقلب نعليه، فلينظر أفيهما خبث، فإن وجد فيهما خبثاً فليمسحهما بالأرض ثم ليصل فيهما» وما رواه البيهقي أيضاً عن أم سلمة «إنها سألت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشى في المكان القدر، فقالت أم سلمة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهره ما بعده» وفي رواية له عن أبي هريرة رضي الله عنه: قلنا يا رسول الله إنا نريد المسجد فنتأطئ الطريق النجسة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «الطرق يطهر بعضها بعضها» وفي حديث البيهقي مرفوعاً: «إذا وطئ أحدكم بنعليه في الأذى فإن التراب له طهور» وقد رأى المالكية أن المتعمد في مذهبهم أن إزالة النجاسة سنة أعنى أنها لا تبطل الصلاة بوجودها وإن كانت مكرهة معها. فلم لا يصلى ذلك المسلم في نعليه؟ ولم لا يصلى وفي سراويله قطرات البول، ولم يسهل عليه التحرز منها، ولم لا يصلى المسلم في بلاد لم يستطع أن يستنجي فيها، أيعظنون أن الله يريد بهم العسر مع أن الله يقول في قرآنه: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

(٣) الأصل الثالث: من أصول الإسلام أنه لا ضرر ولا ضرار، فلا يجوز لمسلم أن يفعل ما فيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله، كما لا يجوز له أن يضار غيره، فيدخل في ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق، وشرب المسكر، والمقامرة، وإيذاء الغير بأي نوع من ضروب الأذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم، كقتل النفس، والسرقة، والرشوة، والخداع، والتبويه، والتدليس، وشهادة الزور... وهلم جرا.

لعلك اطلعت على ما قرره الفقهاء من إباحة التخلف عن الجمعة لأسباب

كثيرة . منها أن يكون بالإنسان بخر ، او رائحة ثوم أو بصل ، أو به مرض معد كالجدام والبرص ونحوهما من كل ما يضر ، أو تشمئز منه نفوس المصلين . ولا يخفى أن هذا الأصل ينبني عليه كثير من الأحكام الفرعية ، والنوازل اليومية في كل عصر .

(٤) الأصل الرابع: سد الذرائع واعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات، فكل ما أفضى إلى مباح فهو مباح ، وكل ما وصل بك إلى مكروه فهو مكروه وكل ما أوقعك في محرم فهو محرم ؛ فكلما أردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثلا ما جاء به الشرع من أباحة تعدد الزوجات ، فان هذه الأباحة قد قيدها الشرع بقيود منها : العدل ، ومنها : ان لا يفضى الزوج إلى ضرر أو محرم أو فساد، فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق ، وإفساد ذات البين واغفال الرجل أمر أو لاد احدى الزوجات ارضاء لغيرها، أو قسوة عليهم ، وايدائه لهم ، فاذا قدرنا تلك الوسيلة وهى تعدد الزوجات بما تفضى إليه من المضار يمكن الحكم بأنه لا يباح للرجل تزوج أكثر من واحدة إلا لمن أمكنه أن يقوم بجميع ما شرط عليه من العدل وعدم المضارة والفساد

(واعلم) أن من أهم أصول الدين الحنيف إعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به، فاذا غلب على الظن ان العمل مفض إلى محرم او مكروه فإنه يعطى حكم غايته، فيحرم او يكره، فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق ، حتى ينبني عليه تحريم ذلك على الرجال ، فإننا على تسليم أنه غير محقق جدلا ، لا يسعنا أن ننكر أنه أمر

غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقيناً .

(٥) الأصل الخامس: من أصول الإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى بي هنا أن أقتطف ما جاء لأستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده في مقالات الإسلام والنصرانية إذ قال ما نصه :

« إتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً من لا ينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما يدل عليه العقل ، وبقى في النقل طريقتان : طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله في فهمه . والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل ، وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل ، وأزيل من امامه جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد . فماذا عسى يبلغ إليه نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ، وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ، إذا لم يسعهم هذا الفضاء ، إن لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجاها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وابعادها » ... اهـ

ولا يخفى أن تقرير هذا الأصل في الإسلام ، يدل على دلالة واضحة على أن الدين المحمدي لم يلزم العقل ان يخالف ما يقتضيه نظره وبجته ، بل انه فوق ذلك قدمه في العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول .

إباحة التجميل بأنواع الزينة

قال الأستاذ الإمام في كتاب الإسلام والنصرانية ما نصه :
« أباح الإسلام لإهله التجميل بأنواع الزينة ، والتوسع في التمتع بالمشتبهات
على شريطة القصد والاعتدال ، وحسن النية ، والوقوف عند الحدود
الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولية . جاء في السكتاب العزيز : « يا بني
آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب
المسرفين . قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق
قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل
الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن
والإثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا
على الله ما لا تعلمون » . ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي
يفدركنا بفضلها ، ويهيئ بها نفوسنا لذكركه وشكره كما قال : « والأنعام خلقها
لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين
تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن
ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا
تعلمون » ثم قال : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا
منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون » ... اهـ

(٧) الأصل السابع: وجوب إمتثال ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم شرعاً

دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الراي .

(إعلم) أنه قد تقدم لنا بيان أن وظيفة الرسل إرشاد العالم إلى طرق النجاح والاستقامة ، وإقامة العدل فيهم ، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة . وبيننا أيضاً ان الإسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وبينه بأجلى عبارة وأوضحها ، كما روته الكتب الصحيحة ، فلنأتك هنا بشيء مما ورد فيها : —

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحون ، يجعلون الذكر في الأثني فتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظن يغني ذلك شيئاً . قالوا : فأخبروا بذلك ، فتركوه ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل .

(وروى) مسلم أيضاً عن رافع بن خديج قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأرون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : لعلمكم لو لم تفعلوا كان خيراً ، فتركوه فنقصت ، قال فذكروا ذلك له ، فقال : إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر .

(وروى) أيضاً عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر يقوم يلقحون ،

فقال : لو لم تفعلوا لصلاح ، قال نخرج شيصاً ، فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا :

قلت كذا وكذا ، قال : أتم أعلم بأمور دنياكم

كأني بك ترى ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ، وهو سيد المنصفين ، صرح لك الرسول بأنه إنما هو بشر ، وأن أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم ، وأن عصمة الرسل إنما تجب فيما إذا بلغوا عن الله شيئاً من شرائعه ونواميسه . ومن هنا نعلم أنه لا يجب الأخذ بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا وأحوالها وحررفها وطبها وصنائعها لأن هذا ليس مما يوحى به إليه من الشرائع .

(٨) الأصل الثامن : المساواة بين المسلمين في الأحكام وكذا بينهم

وبين جميع من لهم ذمة وعهد ، فان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، فلا يفضل أحد أحداً في إعتبار الشرع إلا بالتقوى والعمل الصالح « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فقد جعل الله الغنى والفقير ، والمأمور ، والأمير ، والعزيز والحقير ، سواء في أحكامه ، سواء في ذلك الأحكام الدنيوية والأخروية ، وأعتبر ذلك بصيغ العموم ، التي تراها في غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ، ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباههم ، طالما حابوا الأمراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصاً منهم على استرضاء من لا يضررون ولا ينفعون ، راضين بما سخط الله عليهم ، إذ فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، فشحنوا كتبهم بما تضارب من الأقوال ، وخالفوا أمر

القرآن كما في قوله: «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم
البيّنات» وقال تعالى: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء»
وقال تعالى: «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وإذا أردت أن تأتي
على ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف
فعليك بكتب السنة الصحيحة .

(٩) الأصل التاسع: ان لاتزر وازرة وزر اخرى، ففي سورة الطور:
« كل امرئ بما كسب رهين» وفي سورة المدثر: « كل نفس بما كسبت رهينة»
وقال تعالى: «ولا تزر وازرة وزر اخرى» وفي سورة النجم: «ان لاتزر
وزارة وزر اخرى وإن ليس للإنسان إلا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم
يجزاه الجزاء الأوفى» .

ولا يقال إن من احكام الشريعة ما لا يقتصر على الجاني كما في دية القتل
فانها على عاقلة القتال ، وكما يؤخذ من قوله تعالى: « واتقوا فتنة لا تصيبين
الذين ظلموا منكم خاصة» لإنا نقول إن أمر الدية إنما الزمت بها العاقلة في الشعوب
التي لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث انهم يكونون يداً واحدة على من
سواهم ، فاذا أصاب أحدهم شيء تعاهد الباقي على الأخذ بثأره او المطالبة
بديته ، كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب حتى الآن ، ولذلك نجد
الفقهاء ينصون على أنه لا عاقلة في الأمم التي لا تتضامن قبائلها كالفرس
والفرنجة والمصريين وغيرهم من الأمم التي لا أثر فيها لتلك اللحمة التي تجعل
الحى او البطن او القبيلة كأنها رجل واحد فاخذهم الشرع كما اخذ لهم وانتقم
منهم كما انتقم لهم ، وهذا من الوجوه التي تبين لك كيف جاء الإسلام

مطابقاً للأحوال البشرية ، ملائماً لها على اختلافها .

(١٠) الأصل العاشر: ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الإمام او من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقاً لما يقتضيه العرف العام كما ان من اصوله جواز التحكيم .

واعلم ان الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقه ونحوهما وهي قليلة جداً بالنسبة لما ترك الشارع امر تحديده إلى الحكام ونوابهم، فقد أجمع الأئمة على ان التعزير مشروع في كل جنائية لا حد فيها ولا كفارة ، وجوز الإمام مالك للإمام الحاكم أن يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة .

أما التحكيم فقد أجازته الشارع في الأصول المالية وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأى للفصل فيما شجر بينهما ، وقد ذهب بعضهم إلى اعتبار قول الحكم أمراً مقضياً لا يتوقف في تقريره وثبوته على أن يقرره قاض شرعي ولا أمير ولا حاكم .

(١١) الأصل الحادي عشر : تقدير كثير من الأحكام بما تعورف بين الناس . ولا يخفى أن هذا الأصل قد أوسع دائرة الأحكام الشرعية حتى وسعت تقريباً جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها، فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى في تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين، فربَّ نفقة تلائم زوجة على أنها لا تلائم أخرى، وقد كثر التعبير بكلمة « المعروف » و « العرف » في القرآن العزيز ، وعلق عليهما تقرير كثير من الأحكام، ومن البديهي أنه لا معنى للمعروف والعرف إلا

ما كان متعارفاً مألوفاً غير مستنكر ، كما أن المنكر هو ما لا يجرى به عرف
 وألفة، فمن الآيات المحتوية عليها قوله تعالى : « طاعة وقول معروف » وقوله :
 « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وقوله : « إلا من
 أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وقوله : « وعاشروهن
 بالمعروف » وقوله تعالى : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف »
 وقوله : « وأتمروا بينكم بمعروف » وقوله : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن
 بالمعروف » وقوله : « وانجاهدك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا
 تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا » وقوله في شأن الأوصياء : « ومن كان
 فقيراً فليأكل بالمعروف » فترى في هذه الآيات ، وكثيراً غيرها ، ان الله
 تعالى قد فوض أمر تقدير كثير من المعاملات ، إلى ما جرى به العرف
 والعادة من غير تقييد بأهل مكة او اهل المدينة او غيرها ، بل اطلق الأمر
 إطلاقاً ، ولا ريب ان العرف يختلف باختلاف اهله وطبقاتهم وما اعتادوه
 بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان ، ولذا كان من القصور تعرض بعض
 من الفقهاء إلى تحديد مثل متعة المطلقة او نفقة الزوجة ، وتقدير كثير من
 الأحكام بما جرى عليه عرف اهل المدينة المنورة محتجين بعلمهم وأنهم أعلم
 الناس بما مات عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، كما ان من جمود القرينة وقصور
 النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها ، فإن هذا تخريج للكتاب
 العربي المبين على غير ما أريد منه ومما يناسب هذا المقام ان القرآن قد اتى
 بألفاظ اخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل
 والأحوال . فمن ذلك كلمات « الصالحين » و « الصالحات » و « صالحا » في

كثير من الآيات ، فإن المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سوءاً كما يؤخذ من قوله تعالى : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » فإن هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيء فهو غير صالح وأن كل مسيء فهو غير صالح وأنه لا صلاح في سوء ، فيدخل في ذلك الملك الجائر ، والحاكم الذي أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد في عروقها وتمشى الخلل في أطرافها حتى أصبحت لا تزدد إلا نقصاً ولا تعظم إلا فساداً فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لا شائبة صلاح فيه ، ولو قطع الليل تسبيحاً وقرأ آناً . ومن هنا فسر استاذنا قوله تعالى : (إن الأرض يرثها عبادى الصالحون) بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لأنفسهم ما استطاعوا من القوة وأحسنوا إلى أنفسهم فكاتفوا الأمم في الأخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسيبات إلا من أسبابها ، ولم يأتوا البيوت إلا من أبوابها .

ومما ينخرط في هذا الباب خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذى حض عليه القرآن غير مرة إذ قالوا إن التوكل هو تفويض الأمر إلى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب المألوفة ؛ ثم أن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغه من العيش الحشن ولم يستزد حتى مات . ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن أن من يذكر اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد عن حاجاته ومن قرأ : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » كفاه الله مؤنة السعى لطلب الرزق من معاهده العادية . ولقد كثرت هؤلآء في المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيراً من النعم وان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

نددت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالإسلام والمسلمين ، لما نزل
بهم من الضعف ، وانحلال العقدة والفشل ، وزعموا أن منشأ ذلك هو
أصول الدين الإسلامي ، محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين ، وبما
كذبوا على الله في تأويل آياته الكريمة نحو : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون »
ونحو : « إني توكلت على الله ربي وربكم » ونحو : « ومن يتوكل على الله فهو
حسبه » ونحو ما ورد في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم
على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »
إنني لا يسعني هنا أن أفند جميع ما قيل في هذا المقام لضيقه ، ولكن
حسبي أن أنبهك إلى أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله
حجة داحضة ، وبرهان واهن ، فإن نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين
يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الإسلام وتلزمهم
الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد ، لم يصبرهم إلا بعد أن تركوا التوكل
على الله فلم يعملوا بما ارشدهم إليه من وجوب الأخذ بالأسباب العادية ،
فانه سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات ، وخلق ما بينهما من حجة
السببية . فالتماس تلك الأسباب لا ينافي التوكل في شيء ، بل انه نفس التوكل ،
وما تفسير أولئك الناس التوكل بالتفويض المطلق ، والتقاعد عن الكسب
والتحصيل ، لما أفضى بهم إلى الإضمحلال ، فإنما منشؤه الجهل بلغة القرآن
الكريم .

ذلك الرسول ، وهو سيد المتوكلين ، يرشدنا بقراءته ، وبجميع أعماله إلى
أن لكل شيء سبباً لا يمكن الحصول عليه إلا باتخاذ ذلك السبب . أو

أو ما سمعت قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم» وقوله: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» ونحو: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» إلى غير ذلك من الآيات.

على أنك لو تأملت قليلاً في قوله صلى الله عليه وسلم: لرزقكم كما يرزق الطير... الحديث، لتجلى لك الأمر واضحاً لا لبس فيه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل — لرزقكم كما يرزق الطير تمكث في أوكارها والله يرسل إليها أغذيتها — بل قال تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

وفي صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنه قال كنا جلوساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينسكت به الأرض وقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة. فقال رجل من القوم: ألا نتكل على كتابنا وندع العمل يارسول الله! قال: لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له، ثم قرأ: «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى».

على أن الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة، وأنها من الأمور الفطرية التي فطرت الممكنات عليها، فقال في الكتاب العزيز: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (أى أكثرنا) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» فليتق الله المسلمون في دينهم، وليتباعوا به عن النقائص التي شوهوه بها، وعرضوه بسببها إلى طعن الطاعنين وغلو الآفكين.

والخلاصة إن الدين الإسلامي، لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والأصول العامة وأشباهاها، جاء صالحاً لأن يبتغى بواسطته كل خير في كل زمان ومكان. ومن هنا يتضح لك جلياً وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين، وأن شرعه خاتم الشرائع الإلهية، كما أنه لم يخالف في شيء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التي فطر العالم عليها، ولذلك لا حرج علينا في تسميته «دين الفطرة».

وبعد فاعلم أن هناك بعض أحكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الأمم، قصار النظر، فرأينا أن نأتي عليها هنا تكميلاً للغرض الذي وضعنا له هذه العجالة، إلا أننا نريد قبل ذلك أن نأتيك بما ورد في القرآن الكريم من صفات المؤمنين، وما يجب أن يكونوا عليه، وأكل اليك بعد ذلك الحكم في اعتبار مؤمنى هذا الزمان، والله يوفقك إلى سبيل الرشاد:

(١) قال تعالى في سورة المائدة خطاباً للمؤمنين « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله » أى لا يحملنكم بعض قوم صدوكم عن الدخول في المسجد الحرام، على أن تعتدوا عليهم، بل يجب عليكم العدل، كما يجب عليكم أن تتعاونوا على الإحسان واتقاء ما يسخط الله من مخالفة أوامره، وفي معنى ذلك قوله تعالى: « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى » فإن الله يأمرنا هنا أن لانطيع ما تكفه صدورنا من بغض أحد على الاعتداء عليه، بل يجب أن يوفى كل ذى حق حقه، وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل، فإنه أقرب للتقوى.

(٢) وجاء في سورة النور « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » . نزلت هذه الآية في قوم ادعوا أنهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه ، حتى إذا دعوا إلى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان في ضمائرهم أنهم ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالإثم ، فاعرضوا عن أحكام الله وهم ظالمون ، ولكن إذا كان لهم الحق جاءوا إلى المحاكم سراعاً مذعنين ، وقد بين الله تعالى هنا أن تلك ليست من صفات المؤمنين في شيء ، وما كان للمؤمنين إلا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا إلى قضاء الله وأحكامه سواء كانوا ظالمين أو مظلومين .

(٣) وجاء في إفتتاح سورة المؤمنون : « قد أفلاح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون » ، إلى أن قال : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون » فليت شعري كيف يكون لمؤمني هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم في اعتبار الشرع مؤمنون ، مع أن الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون ، والذين هم على اللغو مقبلون ، والذين هم للزكاة مانعون ، والذين هم لشهواتهم معرضون ،

والذين هم لأماناتهم وعهدهم خائنون .

(٤) وجاء في سورة الأنفال : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » إلى أن قال : « أولئك هم المؤمنون حقا » .

(٥) وفي سورة الحجرات : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » إلى أن قال : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف ، وانظر إلى استعمال الحصر هنا في قوله « إنما » ثم تأكيده ذلك بقوله « أولئك هم الصادقون » .

(٦) وجاء في سورة الممتحنة : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبأيعهن » يرخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الإيمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمداً رسول الله ، فإن هذا لا يكفي ، ولقد بين الله في هذه الآية البيعة التي يكون بها المؤمن مؤمناً ، فتدبرها حتى تعلم مبلغ إيمان الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم . فبأبيك أيها المؤمن أتجد فيما وصف الله به المؤمنين : اتخاذ المسابح ، وإطالة اللحي ، واختضاب الشعر ، وتحديب الظهر ، وملازمة الزوايا ؟ ألا إن الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به .

الخلاصة : إن من آثار الإيمان القلبي الصادق إقامة ما وقع الإيمان به ،
وملازمة حدوده ، ومخالفة وساوس الصدور ، فمتى رأيت من ينتقاد إلى
شيطانه ، ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته ، فاعلم أنه غير مؤمن .
أوما رأيت مقاله تعالى في قرآنه الكريم : «إنه - أى الشيطان - ليس له سلطان
على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه
فاعلم أنه غير مؤمن . أفيحسب أولئك الضالون أنهم على شيء ، وقد جاء
في البخارى عن سفیان بن عيينة قال : ما فى القرآن أشد على من قوله تعالى
« يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل
اليكم من ربكم » - أى القرآن - ومعنى إقامة هذه الكتب امثال جميع
ما فيها ، والإتيان به على وجهه ، فإن جاء العمل دون ذلك ، فانه لا يسمى
إقامة ، لما حوته تلك الكتب الشريفة من الأحكام ، فكيف لأحد بعد ذلك
أن يدعى أنه على شيء من الإيمان بالله وكتبه ورسله حتى يمثل ما فيها .

ومن هنا يتضح أن الإيمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل ، وهذا
والله أعلم سر مارواه البخارى فى صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام :
« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق
وهو مؤمن » .

قال القسطلانى : الإيمان هو التصديق بالقلب ، والاعتراف باللسان ،
- وتقرره الأعمال الصالحة - واجتناب المناهى ، فإذا زنى ، أو شرب الخمر ، أو
سرق ، ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه ... اهـ و مثال ذلك فى
الكتاب الكريم والسنة بشير ، ولكنها لا تعمى الأبصار .

هذا والمستقرى لعبارات القرآن الكريم ، قلها يجد فعلاً أو وصفاً مشتقاً من الإيمان إلا وهو مشفوع بعمل الصالحات، فمن ذلك قوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً » وهلم جرا . يريد الله بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول إلى أن مجرد معنى الإيمان في اللغة، أى الاعتقاد ، لا يكفي في إلحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الأعمال . واعلم أن الله تعالى قد ضمن الأمن والهداية لمن لم يشب إيمانه بظلم ولا جور، فقال : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ومن هنا نعلم أن الإيمان لا ينجى صاحبه من النوازل والمصائب ، حتى يقرن كما قلنا ، بالعمل الصالح . ولنا من نوازل هذا الزمان أصدق برهان وأفصح ترجمان، فليقصر أولئك الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

٦ - الروى فى الاسلام ومطابقتها لقتضى الفطرة

تمهيد - كانت القوانين فى الأزمان السالفة غالباً من الأوضاع البشرية، فكان يسن الفرد أو الأفراد ما شاءوا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلاً ولا نصفة ولا مساواة بين أفراد الإنسان فيما لهم وما عليهم . كان محض إرادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التى يسار على مقتضاها، فكان عدم تساوى الأفراد فى القوى الجسمية والعقلية، الذى اقتضته سنة الكائنات الحيوية، هو منشأ تسخير القوى للضعيف، وغلبته عليه، حتى أفضى ذلك بعد إلى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك، وقاهر ومقهور .

إن استخدام شخص لآخر ، واستماتعه بقواه الجسمية بلا أجر ، هو ولا ريب أساس الاسترقاق الذي نشأ مع نشأة الإنسان ، فإن من استقرأ التاريخ وجد أنه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده في أهله ، وجدت أجزامه في كل جاهلية ، ثم تعدتها إلى ما كان معها من الأمم المتحضرة ، وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة إليه وزوالها أصلاً ، فلقد عرف الاسترقاق في اليهودية واليونان والرومانين ، كما عرف بين قدماء الألمان ولقد أفرط الأخيرون في استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل في ذلك .

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق : أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعاً أو في دين عليه ، وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضي ست سنوات عليه في خدمة من هو في ملكه إلا إذا فضل البقاء رقيقاً . والنوع الآخر : استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيدهم شيء من عسف اليهود وحرورهم التي كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وإرضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم ، فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ، ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيوانات العجم ، سواء في ذلك العبيد المستخدمة في المنازل ، وعبيد الحقول والمزارع ، فإنهم كانوا يقضون حياتهم مبعضين ، مهينين ، معزولين ، محقرين ، مسخرين ، ثم جاء المسيح عليه السلام ، فلم يمنع الاسترقاق ، ولم يضع حدوداً تراعى ولا وسيلة تؤدي يوماً إلى نسخه أو تقليده ، نعم إنه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق ، وبعض نصائح للسادة ، ليتمكنوا

الرقيق من تلقى ماجاء به المسيح عليه السلام، من قواعد دينه، على أن كثيراً من الأمم المسيحية كانوا أشرفه الناس على اتحاد الرقيق، وأقسامهم في معاملته. انتشر الاسترقاق بين الرومان، منذ نشأتهم الأولى، من غير تفريق بين من كان رومانياً أو أجنبياً، فكانوا يملكونهم إما بحرب أو شراء أو اختطاف، ولا يعتبرونهم إلا متاعاً، ولقد تغالوا في السيطرة عليهم؛ فلقد كان للسيد ان يتصرف في عبده حتى كان له أن يقتله، نعم إنه قد هذب هذا القانون بعد، حتى خفف في الجملة على الأرقاء أعباء ما كانوا يحتملون، ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقة، فلقد كان لأمراء الرومان وأشرافهم الألوفا من الأرقاء، يستخدمونهم فيما شاءوا، ويوقعون بهم من الآلام ما شاءوا غير مسئولين عما فعلوا.

إن دخول الدين المسيحي في أوروبا لم يقلل من الاسترقاق إلا من جهة واحدة، ذلك أن الرقيق كان يصير حراً بالرهابية، وانقطاعه إلى خدمة الدين، على شرط أن لا يظهر له سيد يدعيه في خلال ثلاث سنوات، أما من الجهات الأخرى فإن الاسترقاق بين مسيحي أوروبا لم يكن أبداً خف بطشاً ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس. ولقد جاء في جملة قوانينهم المدنية أن الاسترقاق من الأمور الطبيعية، كما أنها قدرت أثمان العبيد، واعتبرت في تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والأعمال. ومنها عدم إباحة التزاوج بين الأرقاء، ولا بينهم وبين الأحرار، وقد قدر القانون أشد العقوبات صرامة، فيما إذا تزوج الرقيق حرة، ففرض على الحرة المتزوجة بالعبء بالقتل، وقضى على الزوج أن يحرق حياً. كان ذلك حال الاسترقاق في

أوروبا في القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام .

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية، وأسسست على أنقاضها المملكتان الشرقية والغربية، لم يقف أمر الاسترقاق إلى الحد الذي كان مألوفاً عند سلفهم، بل كان لأشراف الأمتين وأمرائهما القول الفصل، والرأى الأعلى والحكمة النافذة في الفلاحين الذين تحت أيديهم، فكانوا ملاكهم وحماهم وسادتهم وحكامهم، فلم يكن في ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة وأعلى سلطاناً سوى نفس الحكومة التي قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئاً من الحدود .

على أن الكنائس في أوروبا قد اتخذت الأرقاء، وأباحت لغيرها اتخاذهم، كما أن كثيراً من الناس كانوا يذهبون إلى استحسان ذلك، واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من السؤال، ولقطع دابر السارقين قطاع الطرق . (وأعلم) أن اقبح أنواع الاسترقاق ما كان في أمريكا الشمالية، ولم يزل فاشياً فيها، حتى كانت الحروب الدينية، التي تأججت نارها في سنة ١٨٦٥ الميلادية .

نحا كثير من الأمريكيين نحو ما كان عند الأمم السالفة من اليهود والفرس والرومان، على ما هم عليه من العلم الغزير، والتحضر الذي لم يسبقوا إليه، فكان الأمريكي الأبيض النصراني يملك الأمة السوداء، ويولدها البنين، على أنه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الإسلام، بل كان لابنه الأبيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم أخوته من صلب أبيه .

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصراني لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق

أو ينافيه ، كما أن الأمم المسيحية ، على اختلافها وتباين مشاربها ، كانت لا تبالى أن تسترق من شاعت ، وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت ، وتعامله كإشاعت ، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم ، فهدب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم ، فتعاهدوا هم وغيرهم من الأمم المتحضرة على حماية نوع الإنسان ، والحيولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض إلا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية . على أننا شاهدنا بأنفسنا أحوالاً استبيح فيها الاسترقاق بلا مسوغ عادل ، بل روعيت فيها مقتضيات النظام . فمن ذلك أن الحكومتين المصرية والانكليزية افتتحتا حديثاً بلاد السودان المصرى ، فهم العبيد الذين كانوا هناك بمغادرة ساداتهم لعلمهم ان الحكومات النظامية المتحضرة ، هى حامية الحرية ومؤيدتها ، فلما رأت الأمة الفاتحة ان هذا لا بد ان يفضى إلى تعطيل الأعمال ، وارتباك الأحوال ، وبوار الحقول والمزارع ، أقرت ما كان على ما كان ، وجارت أحكام الزمان والمكان .

وإذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية ، فدونك ما فعل الإسلام في الرقيق والاسترقاق :

(١) سوى الإسلام بين الأمم من غير اعتبار اختلاف أصنافها والوانها ، فسوى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والرعايا والمرعيين ، والرجال والنساء ، والمسلمين واليهود والنصارى ، ماداموا فى سلم .
أنظر إلى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الإسلام ، أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر ، أو من فاضل ومفضول ؟ كيف والله تعالى جعل

المؤمنين إخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتاً إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق ،
فلقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع :

« أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئء مال أخيه إلا عن
طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد
تركت فيكم ما إن أخذتم به — كتاب الله — لن تضلوا بعدى . أيها الناس إن
ربكم واحد ، وإن أبابكم واحد ، كلمكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند
الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » .

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا حتى الآن ، وهم في مقدمة الأمم حضارة
وعلماً ؟ ازدرى البيض منهم السود وامتتهوهم لسواد ألوانهم ، وتجنّبوهم وحرّموهم
كثيراً من المزايا التي استمتع بها البيض ، ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون
بهم من الفتك والمقت والتجافي عن مخالطتهم ، حتى لقد خصصوا لهم في
مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم ، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها
إلى غيرها .

زعم كثير من الناس ، لا سيما من غير المسلمين ، أن الإسلام أباح
للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض ، مستدلين على ذلك بما كان يفعله
النخاسون من أهل البادية ، وأهل السودان ، وكثير من الأتراك ، وقد
تقدم لنا أنه لا ينبغي الاستدلال على صحة الدين أو فساده ، بما يفعل أهله ؛
فإن هذا من العبث الذي ينبغي أن تصان عقول العقلاء عنه .

إن الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلاً ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا
استرقاق أسرى حرب شرعية . لم تقم إلا لإعلاء كلمة الله تعالى ، مراعي

فيها أن تكون مسبوقه باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ أن أسرى الحروب ، التي أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم ، لا لغرض سوى النهب والسلب والبطش ، مع العدوان على الغير ، لا يجوز استرقاقهم بحال ، سواء كانوا مسلمين أو غيرهم ، كتايين أو وثنيين أو مجوسا .

أما استرقاق غير المحاربين ، ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب ، كعبدة الأوثان ، فقال مالك والشافعي وأحمد في إحدى روايته إن ذلك لا يجوز مطلقاً ، فإذا ترى فيمن يذهبون إلى الصحارى ويختطفون ما وصلت إليه أيديهم من السودان وغيرهم ، ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع ، فيعرضونهم في الأسواق عرض الحيوانات العجم ، وكثير منهم مسلمون ؟ وماذا ترى في كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين ، يجيئون إليهم ويسومونهم كما يسام المتاع ، ثم يسوقونهم إلى بيوتهم إما للخدمة وإما للافتراش ؟ وماذا ترى في الذرية التي ينتجها افتراش ابنتي على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ إن الدين لبريء مما جنى عليه أولئك الظغاة الجهلة ، وظاهر مما ألقوه به من ذلك الدنس والرجس ، قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ماشاءت أن تسول ، فافتاتوا على الله ونسبوا إليه مانسبوا ، متقولين عليه ، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأييدهم .

(واعلم) أن هناك نوعاً من الاسترقاق ، فشا في المسلمين أيضاً ، وهو لا يبيحه الشرع أيضاً ، ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم ، قد يحدو بهم الفقر المدقع ، إلى جلب بناتهم بأيديهم إلى أسواق بعض المدن الإسلامية وهن صغار جداً ليبيعهن إلى الأمراء والمثريين من الرجال ، ولقد يكون

منهن المراهقات والنساء ، حتى إذ صارت إحداهن في ملك أحد استباح منها
واتخذها فراشاً ، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة ، وما يخدع إلا نفسه
من حيث لا يشعر ، فيظل طول حياته مستبيحاً ما حرّمه الإسلام ، ويدخل
في دينه ما أمّلته عليه وساوس الأوهام .

هذا . ولنعد بك إلى ما يتعلق بالرقيق في الإسلام ، فنقول :

(٢) كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله .

(٣) مجرد دخول العدو المحارب دار الإسلام أمان له من السبي عند مالك
والشافعي وأحمد بن حنبل .

(٤) للرقيق في الإسلام أن يتزوج بنت سيده ، فينقلب بذلك سيد البيت .
أين هذا مما سبق لنا نقله ، من قوانين أوروبا في القرن الثالث عشر ،
من تحريم الزواج بين الأرقاء ، وكذا بينهم وبين الأحرار وأنه يجب
قتل المرأة التي يتزوجها عبد ، كما يجب احراقه حياً .

(٥) جاء الإسلام فوضع من الأصول والنواميس ، ما كاد يقضى على
الاسترقاق ، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك على ما نعلم في أمر
الاسترقاق ، وبديهي أنه لا يمكن أن يزيل النبي عليه الصلاة والسلام في
بضع سنين امراً ألفته النفوس ، واستولى عليها ذلك الاستيلاء . لذلك
كان النبي عليه الصلاة والسلام يرغب الناس في العتق ، كما جعل هناك احوالاً
يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك :

(١) إخبار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه غير مرة بأن العتق من أجل

العبادة ، وأقربها قبولاً عند الله .

(٢) أنه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث في بعض الإيمان .

(٣) أن مكاتبه العبد مستحبة بالإجماع، وللإمام أحمد في رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها على قدر قيمته أو أكثر، وأن للعبد الاستغلال، ليحصل على ما يدفعه لسيدته من نجوم الكتابة، وإن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .

(٤) إذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما بقي، فالحنفية تجبره على الأداء . وإذا لم يكن معه مال، ولكنه قادر على الكسب، فالمالكية تجبره على الكسب، لأنه ليس له تعجيز نفسه مادام قادراً عليه .

(٥) يراعى في عقد الكتابة حالة الرقيق، فأقل وعدم السيد، أو أقل احتمال للوعد بالتحجير، يجعل التحجير ضرورياً .

(٦) اتفق الأئمة على أنه لو كان في يد إنسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام، فالقول قول المكذب مع يمينه أنه حر . فترى في هذه الصورة أن قاعدة « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق، فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولاً بل جعل القول للنكر بيمينه، ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحجير الرقاب، ما وجد لذلك سيلاً .

(٧) قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبتهم، أو أن يشتري الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم .

(٨) إن من افترش أمة، وأتى منها بأولاد، فهي أم ولده لا يجوز له

أن يبيعها ، ولسكنها لا تتحرر تماماً إلا بعد موته .

(٩) استوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالأرقاء خيراً ، فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين ، فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه ما لا يطيق من العمل ، أو أن يدعوه باللقاب الازدراء والتحقير ، كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم في المأكل والملبس ونحوهما .

٧ - المرأة في نظر الإسلام

قبل التكلم على المرأة في الإسلام ، نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف في الأمم المختلفة ، ثم نردف ذلك ببيان مامنح الله المرأة في الإسلام ، غير معولين في جميع ذلك إلا على كتاب الله تعالى وسننه الصحيحة .

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة ، كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل ، حتى ضربت بهم الأمثال . أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم ؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء ، من غير وقوف عند حد ، ولا تقييد بشرط ، ولا سؤال عن حق ، ولقد كان له أيضاً أن يتخذ من الأخدان من شاء .

فإذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ، نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع ، فلقد كانت المرأة بين وثني العرب معتبرة سلعة محضة ، فإذا مات رجلها ورثت فيما يورث ، حتى كان للابن الوارث أن

يفترش زوجة أبيه أو أمته، كما كان له أن يهبها لمن شاء، وأن يبيعها ممن شاء،
هذا عند وثني العرب .

ولم تكن منزلة البنات اليهودية عند أبيها أرفع شأنًا من ملك اليمين، فلقد
كان للأب أن يبيع ابنته قبل بلوغها، كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك .
وكانت العرب، وثنيهم ويهوديهم، يتزوجون من النساء، ولا يقتصرون على
عدد، كما كان نكاح المتعة فاشياً فيهم، حتى جاء الإسلام فأبطله على ما يأتي .
كانت العرب تئد البنات، إما من فاقة أو خشية عار يأتينه متى كبرن، حتى
قال قائلهم « دفن البنات من المكرمات » .

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم، فلم تكن بين
الفرس والرومان الشرقيين أهناً بالاً ولا أعز شأنًا ولا أكثر حرمة منها بين
العرب .

ومن المعلوم أن أحسن القوانين ما لا يشتمل على التضييق، ويلائم
فريقاً دون فريق، وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة السمحة بتلك
النواميس التي تلائم، بلا ريب، أرقى الأمم تحضراً وأصدقهم فكراً، كما
تلائم وتنطبق على الأمم الذين لا يزالون في مهد الفطرة الأولى .
ساوى الإسلام بين الذكور والإناث في جميع التكاليف الشرعية، إلا
في أحوال خاصة قليلة، كما ساوى بين الصنفين في الحقوق المدنية، وجعل
لكل أن يتقاضى حقه من الآخر، وإن يبيع ويشترى ويعقد ماشاء من
العقود، مادام عاقلاً رشيداً .

جاء بذلك الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً، فتمتعت النساء بما ملكت

أيمانهم من غير توقف على إذن زوج أو تقرير مسيطر، مع أن معظم أمم أوروبا لم يطلقوا العنان للمرأة أن تتصرف فيما ملكت يدها، اللهم إلا ما أدخلته الحكومة الانجليزية، وقليل غيرها من أهل أوروبا، منذ ثلاثين سنة، من القوانين التي حولت المرأة فيها شيئاً من ذلك، ولم يكن هذا معروفاً فيهم من قبل.

جاء الإسلام وقد كانت المرأة لا تكاد تمتاز عن الحيوانات العجم، لا تقرأ ولا تفهم، ولا تستفتى في أمر، ولا تقضى، ولا تأمر ولا تنهى، فهلا علمت ما فعل الإسلام؟ جاء النبي فكان في بيته أحسن أسوة للمسلمين، وما زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات في شأن النساء، حتى أصبحن وهن مثل الذئب عليهن بالمعروف.

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وأناثهم «واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة» فكان الرجل «وكان ما كان في الجاهلية» يأتي إليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقيه من أحكام الله ومكارم الأخلاق، وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع إلى رشدها، وتعلم أن لا دخل لاختلاف الصنف، أو الشعوب أو الأمم، في التفاضل. فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعاً لما فيها من الفضل والمزايا والخصائص «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم» لم يقل الله إن الرجال قوامون على النساء، مسيطرون عليهن بتمتضي الفطرة البشرية، أو لأن عقولهم تخالف عقولهن، ولكن الله جعل انفاق الرجل على المرأة من علل

الفضل ، كما جعل من العمل أيضاً ما قد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا ،
ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة ، ومن ذا الذي يستطيع أن
يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التي وصلت الليالي
بالأيام في طلب العلم ، حتى تتقف عقلها وتهذب نفسها . كلا إن الله لم يجعل
التفاضل إلا حيث يكون ما منح من الفضل كما قال : « هل يستوى الذين
يعلمون والذين لا يعلمون » وقال : « هل يستوى الأعمى والبصير . أم هل
تستوى الظلمات والنور » .

أباح الشرع للمرأة ، مادامت من أهل التصرف في مالها ، أن تزوج
بنفسها ، وأن توكل غيرها في زواجها ، ولا اعتراض عليها إلا أن تضع
المرأة نفسها في غير كفاء ، فهناك يعترض الولي عليها ويطلب من القاضى
فسخ زواجها .

جعل الشارع للمرأة أن تشترط في صلب عقدها أن يكون أمرها
بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت .
ففي الدر « إن تزوجها على أن أمرها بيدها صح » قال ابن عابدين :
« هذا مقيد بما إذا ابتدأت المرأة فقالت : زوجتك نفسى على أن أمرى
بيدى ، فقال الزوج : قبلت » اه بتصرف .

ولقد يعترض على قسمة الموارث من لم يتدبر ، إذ قضى للمرأة أن
يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم أن في هذا إجحافاً بحقوقها ، ولكننا
عند التأمل نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها ، وذلك أن المرأة كما سيأتى
عالة على الرجل في معظم أدوار حياتها ، فيجب عليه شرعاً أن ينفق عليها ،

ويأتي إليها بمطالبتها ، كما يقتضيه عرف القبيل الذي هما فيه ، فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية في الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها . فأين حجر الإسلام على المرأة وأين التضيق عليها من هذه المساحة ؟

٨ - فصل في تعدد الزوجات في الإسلام

تقدم لنا التلميح إلى ما حشا به الأوربيون كتبهم ، من الطعن في الإسلام ، متمسكين بما أباحته الشريعة من إباحة تزوج أكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ، ويفقهون كتاب الله وقواعده ، ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما ليس من شيمه .

إن النقائص التي مثلت بالإسلام في أعين غير أهله ، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح ، ميزاناً لتقدر بها قوازين الشرع ونواميسه ، فمن قائل بسد باب الاجتهاد ، ومن إمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمة الله ثم يحارب الله فينسب إليه ما ليس من دينه في شيء ، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، فأقضى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعاً إلى الزاني منه ، ومن أحقق أرعن لم يرض من اليسر ماضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم ، حتى ضاقت نفوسهم ، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظازين بالدين الظنون .

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ، ولكن الله تعالى يقول : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط إباحة تعدد

الزوجات بالعدل ، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافياً في تحريم التعدد ، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا ، فما بالناس مع جميع ذلك نرى كثيراً من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض ؟ عجباً أغفل الناس كثيراً من القواعد الإسلامية التي يجب تقدير الأعمال بها ووزنة التصرفات الإنسانية بميزانها .

واعلم أن المعتزلة ، وهم كما تعلم من المسلمين ، يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية مادامت الأولى في عصمته ، كما ذكره الأمير علي في كتابه « سر الإسلام » وما ذلك إلا لأنهم تذبخوا ما يجلبه ذلك من المفسد والمضارة ، وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية إعطاء الوسائل للغايات من الأحكام ، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ، ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه .

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتاً ، وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشيراً ونذيراً ، ولا ريب أن ثمة أحوالاً يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ، ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الأحوال التي تقتضي ذلك . ولأضرب لك مثلاً : رجلاً تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن ، ورجلاً تزوج امرأته فيكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يوماً ، ورجلاً تكره امرأته المباشرة في كثير من أشهر الحمل ، وهلم جرا . فأمثال هؤلاء الرجال إما أن يصبروا مع العنت والشقة ، وقليل الصابرون ، وإما أن يأتوا الفاحشة ، وأولئك هم الخاطئون .

إنني لا أرى ، كما يرى كل عاقل ، أن تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت ،

اسلم عاقبة من إتيان الفاحشة، ومن الشواهد التي يحسن ذكرها ما نقله الأمير
على في كتابه « سر الإسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية : إنها تأملت
في أحوال كثير من البلاد الإسلامية أو الشرقية إجمالاً ، فرأت أن تعدد
الزوجات أكثر ما يكون في البقاع التي تكثر فيها الفاقة ، وتقل فيها المرافق ،
فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن في تحصيل المرافق والأخذ بأسباب
العيش ، وقد رأت تلك السيدة أن هذه إحدى الضرورات التي يخول معها
التعدد .

جمعتني المصادفات برجل إسباني قابلته في لوندرة ، فكشنا نتحدث في
كثير من مسائل الدين الإسلامي ، فما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات ، فقال :
إنه يتمنى لو كان مسلماً فيتزوج امرأة غير زوجته . فسألته في ذلك فقال : إن
امرأتى قد أصيبت بجنون ، وهامى تلك تعالج في بيمارستان « مجريط » ولها
على ذلك سنون كثيرة ، ولقد اضطرني الأمر أن أتخذ بعض الأخذان
لعدم استطاعتي التزوج بأخرى ، فلو أن هذا كان مباحاً لنا لكان لي عقب
شرعى يرثني فيما لدى من المال الكثير ، ويكون لي قررة عين وخير رفيق
أطمئن به وأسكن إليه .

ثم تقابلت في أكسفورد مع دكتور فاضل ، وقد جرت عادة الانجليز
أنهم متى رأوا غريباً سألوه في جميع ما يلج في صدورهم . سألتني ذلك
الدكتور عن وجه تعدد الزوجات في الإسلام ، وذكر أنه يستتبعه ، فما
زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الأسباب ، ثم قال : إنني أكاد أرى
وجه ما تقوله ، ولكن لي كلمة في نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ماهي ؟

قال : إن منزلة النبوة التي ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين إكثاره من عدد الزوجات . فعند ذلك قلت له : إنني ياسيدي كثير التجارب ، وقد رأيت في الانجليز وفي المصريين والأتراك والفرنسيين وغيرهم من الأمم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله مادام يملك شيئاً من المال ، وهذا أيها السيد أحد الأسباب في قلة عدد ذراري الأغنياء والمثريين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ، ولو ملكت أيديهم فضلاً من المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا ، أفتنكر بعد ذلك أن تعدد الزوجات أدعى للعفة والحصانة ، وأضمن لنمو بني الانسان ؟ فما كان من ذلك الفاضل إلا أن قال : إن معظم ما قلته حق لا مرأ فيه . ثم ذكرت له أسباب إكثار النبي من النساء مما سنأتى عليه بعد ، وإنما لم أبدأ بذكر تلك الأسباب لأنني قصدت إلزامه من أول الأمر بضرورة تعدد الزوجات في بعض الأوقات أخذاً مما عليه الناس في أحوالهم الدنيوية ، التي لا يسعه إنكار شيء منها ، فلما أضعفت من قوة تعصبه ، وفللت من حدته ، أخذت أسرد له الأسباب التي لم يجد لإنكار شيء منها سبيلاً .

والخلاصة أن اعتبار كون تعدد الزوجات مصدراً لكثير من المفاسد ، إنما هو أمر إضافي ، ولا يمكن اتخاذه حكماً عاماً ، فإن ذلك يختلف باختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة والأحوال . انظر الى ما كان معروف في بدء النصرانية من استقباح الزواج رأساً وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية . ولقد قضت الرهبانية في الأعصر الخالية ان يقبر في الديور كثير من العقول الذكية ، التي لم يكن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة ، أما منشأ

ذلك فقد كان إما تقليد المسيح عليه السلام، أو بعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق إلى عبادة الحق تعالى، ولا يزال قسوس الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب، ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله إلى الشهوات الحيوانية، قالوا: إن المسيح عليه السلام روح الله، فكان أقدر الناس على غلبة شهواته، قارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل: «لا رهبانية في الإسلام» ثم انتهى بهم القياس إلى الخط من كرامة الأخير. وقالوا: شتان بين من غلب نفسه، وبين من استرسل مع هواها فأرضهاها، ولا يخفى بطلان هذه القضية، فإنه لا تنافي بين الصلاح والزواج. على أن تقليد المسيح في رهبانيته لا يبلغ غايته إلا بخراب البيوت وتلاشي الأمم وانقراض النوع الإنساني، ولا يخفى أن هذا يناقض مقتضيات العمران، ومطالب نظام الأكوان.

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما أتاه بدعا من الرسل، فذاتك موسى وداود عليهما السلام، تزوجا كثيراً من النساء، وهما ذاتك الرسولان اللذان لا يسع نصرانياً ولا يهودياً إنكار نبوتهما، أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الأولى.

هذا ونذكر لك هنا في زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم ما فيه غناء إن شاء الله تعالى، فنقول: أعلم أن أكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص، ما لم يكن لغيره من أمته، وذكروا أشياء منها تجاوزت بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشرطه، ولا يخفى أن مثل هذا لا يكفي لإقناع غير المسلمين، الذين نددوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولم يجدوا في كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم، اللهم إلا قليلاً ممن أيده الله

بروح منه ، فنريد أن نذكر لك من اسباب ذلك ما فيه مقنع إن شاء الله .
فاعلم أن أول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة تزوجها قبل البعثة
وهو ابن خمس وعشرين على أنها كانت بنت أربعين سنة .

قضى النبي صلى الله عليه وسلم شبابه ، وطائفة من كهولته ، ولا زوج
له إلا خديجة ، ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات ، بعد أن
مكثت مع النبي صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع
أولاده ، ماعدا ابراهيم ، فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء ، وهو في ريعان
شبابه ، وقد كانت العرب ، على ما علمت ، يكثرون من الزوجات حتى أن
منهم من كان تحته العشرون في وقت واحد ، فلو كان هناك سلطان
للهوى ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لاتخذ من الزوجات من
شاء ، وهو في مقتبل شبابه ، واستكمال قواه الطبيعية ، لا شرع يحول بينه
وبين بغيته ، ولا عادة تمنعه مراعتها ، من قضاء مآربه ، لا سيما وقد كان
مرغوبا فيه بين الناس ، لما اشتهر من مكارم أخلاقه ، وجميل خصاله .

بعد أن ماتت خديجة بيضعة أشهر ، تزوج النبي صلى الله عليه وسلم
سودة ، وكانت أيماً مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى
الحبشة ، وقد كانت أسلمت رضى الله عنها وخالفت بنى عمها وأقاربها ، فما
اجمل ما عمله النبي من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما فقدت ، فقد مات عنها
زوجها ولا حامى لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنفسهم ، فكان تزوج
النبي بها حماية لها أن تصل اليها يد الأذى ، كما كان ذلك أكبر سلوان لها
على فقد زوجها .

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة، ففقد النبي بموته رجلاً كان
يناضل عنه، ويدفع عنه أعداءه ما استطاع، فأخذ الأمر إذ ذاك يشهد على
النبي صلى الله عليه وسلم، فرأى أن يوثق الرباط بينه وبين قريش، فعد على
عائشة، وهى إذ ذاك بنت سبع، فان أباهما الصديق رضى الله عنه كان صدرأ
وجيهاً فى قريش، واسع المال، عزيز الجانب، يدللك على ذلك مسارعة النبي
صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها، مع أنها قاصر وأنه لم يبن بها إلا بعد ذلك
بنحو سنتين، فلم تكن وقت ذاك مطمئناً لقضاء شىء من المآرب الشهوية،
حتى يطمع اليها نظر النبي أو غيره .

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبى سفيان،
وكانت ببلاد الحبشة فى الهجرة الثانية . مات عنها زوجها هناك، وما هو
إلا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشى أنه قد كتب اليه رسول الله صلى
الله عليه وسلم ليزوجه إياها .

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبي وبين بنى أمية
من العداة، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان ألد بنى أمية عداوة لرسول الله
وللمسلمين، فانه لم يدخل فى الإسلام إلا بعد أن نال المسلمين ما نالهم من
أذاه الشديد، فتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه
لحمة نسب، تكون له فى الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الأذى عنه، كما أنه
صلى الله عليه وسلم اختارها لنفسه، لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها،
ففى عدم حمايتها ووقايتها، وقدمات زوجها . تعرض لها الى مقاساة المصاعب
والأهوال، وإنما اختارها النبي لنفسه لمكاتها فى قومها، فلو أنها زوجت

يغير كفاء لا اتخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ،
ويحرضونهم بالمسلمين على قتلهم وضعفهم .

كانت الأسرى من النساء يتخذن أماء لايسوى بينهن وبين الحرائر في
شئ ، على أنهن قلها أعتقن ، فأراد النبي أن يعلم المسلمين بالعمل ماينبغي أن
يصنعوا بما في أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة ، وأن يجعلن سيدات
البيوت ، فمن ذلك تزوجه بجويرية . قالت عائشة رضى الله عنها : أصاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه
بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهماً ، ف وقعت جويرية بنت الحرث
ابن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس ، فجاءت الى الرسول فقالت : يا رسول
الله أنا جويرية بنت الحرث سيد قوم ، وقد أصابني من الأمر ماقد علمت ،
وقد كاتبني ثابت على تسع أواق ، فأعنى على فكاكي ، فقال : أواخر من ذلك ،
فقالت : ماهو ؟ فقال : أودى عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم يا رسول الله
فقتال : قد فعلت ، وخرج الخبر إلى الناس ، فقالوا : أصهار رسول الله يسترقون ،
فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بنى المصطلق ، فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه
عليه السلام إياها . فانظر إلى ما قصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها .
ومن ذلك أيضا تزوجه بصفية بنت حيي ، وكانت من أشرف بيوت
اليهود ، ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر ، وكانت مما اصطفاها صلى الله عليه
وسلم من الغنائم .

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال : لما دخلت صفية على النبي صلى الله
عليه وسلم قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله .

فقال يارسول الله: إن الله يقول في كتابه «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فقال لها رسول الله: اختارى فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك . فقالت : يارسول الله، لقد هويت الإسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت إلى رحلك ومالى فى اليهودية أرب ، ومالى فيها والد ولا أخ ، وخيرتنى الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق ، وأن أرجع الى قومى ، قال فأمسكها رسول الله لنفسه ، وقدرضيته بعلا ، مع أنه كان لها أن ترجع الى أهلها بعد العتق . هذا واعلم أن أمر الثأر فى الجاهلية معروف ، وقد حاول كثير من الأنبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء ، ونسخ تلك العادة القبيحة ، فلم يفلحوا، لما أن ذلك كان أمراً راسخاً فى نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء ، حتى أتى النبي فجعل من عقود أنكحته ما ربط كثيراً من القبائل بعضها إلى بعض ، فبدا قرب ما بينها ، وأزال كثيراً من أحقادها ، وأطفأ سورة ما فى صدورها من الغل والضغائن، حتى قلت فى أيامه صلى الله عليه وسلم الغارات ، وكاد يتناسى أمر الثارات .

هذا ، وتتمى لهذا الموضوع نريد أن نذكر كلمة فى تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بزینب امرأة مولاه زيد :

قال الاستاذ الحكيم (١) أن زينب كانت بنت عممة النبي صلى الله عليه وسلم ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنات من والدها لأول الأمر ، حتى أنه اختارها لمولاه زوجة مع إباءها وإبائها وعد

(١) أنظر تفسير سورة الفاتحة

هذا عصيانا ، ولا زال كذلك حتى نزل في شأنها آية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضللاً مبيناً » .

ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدته ، وقد كان يراها لم يكن بينه وبينها حجاب ، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ، فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية ؟ لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة الغريب وولعه بالقرب إلى أن تبلغ حد العتق خصوصاً إذا كان عشيره منذ صغره ، بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض متى تعاشروا ، فكيف نظن أو نتوهم أن النبي الذي يقول الله له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله في ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيسة يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته ، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

إن النبي لم يبال بآباء زينب ورغبتها عن زيد ، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها بما تسوء معه العشرة ، وتفسد به شؤون المعيشة ، فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغب امرأة على الاقتران برجل ، وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا أن النبي يجد من نفسه أن هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم

إلهي، ذلك أن التصاق الأدياء بالبيوت ، واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب ، فكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الإبن ويجرون عليه وله جميع الأحكام التي يعتبرونها للإبن حتى من الميراث وحرمة النسب ، فأراد الله محو ذلك بالاسلام ، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح « وما جعل أدياءكم أبناءكم » ثم قال: « أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فآخوانكم في الدين ومروا إليكم » فبين الله أن ليس للتبني إلا حق المولى والأخ في الدين . وكان من عادة المصطفى أن يبادر في كثير من شرائعه إلى إقامتها بنفسه ، ليكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحاً تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخف وزر العادة ، وتخلص العقول من ريب الشبهة . وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزینب ، إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه ، لتسقط العادة بالفعل ، كما ألغى حكمها بالتمول الفصل . فبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يلبس إباؤها الأول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمتت بأنفها ، وذهبت تؤذى زوجها ، وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها أكرم منه عرقا ، وأصرح منه حرية ، لأنه لم يجر عليها رق ، كما جرى عليه . فشكا ذلك إلى النبي غير مرة وهو يتمول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » إلا أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها النبي ليمزق من حجاب تلك العادة ، كما قال تعالى : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدياءهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا » وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » وقد قالت العرب إذ ذاك تزوج محمد حليمة ابنة .

قال أبو بكر بن العربي : فأما قولهم إن النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت في قلبه فباطل ، فإنه كان معها في كل وقت وموضع ، ولم يكن ثمة حجاب ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد هوى لم يكن ... اه ملخصاً

وهكذا كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم في جميع تزوجاته فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السنوات التي أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه ، وقد كان فتياً لم يكلف بشيء من أعباء الرسالة ، ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتمالها ، لولا أن جعله الله من الصابرين ، هذا كله على فرض أن أنكحة النبي صلى الله عليه وسلم كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية : « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أما إذا كانت قبل ذلك كما حققه الأمير علي في كتابه « سر الإسلام » فلا حاجة إلى التماس شيء من تلك الأسباب . قال الأمير علي : إن ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ، ثم أن الله تعالى بعد ذلك لم يباح للنبي أن يتزوج على من عنده ، كما فرض عليه ألا يتبدل بهن أزواجاً أخريات فقال : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما مَلَكَت يمينك » أي إلا من سبق لك الزوج بهن . وهنا مسألة أولع بايرادها كثير من أحداث هذا الزمان ، قالوا : لِمَ جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الأزواج ؟

فاعلم أن ذلك يفضى بداهة إلى اختلاط الأنساب ، فيقع اللبس في نسبة
النسل ، ولا يخفى أن ذلك يفضى إلى تعطيل كثير من الأحكام الدنيوية ،
كالنفقة والإرث وغيرهما .

وهنا مسألة أخرى وهي أنه لِمَ جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف
العكس ؟ وجوابها أن الإسلام جعل لكل كتابي أن يبقى على دينه ، فالكتابية
في يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس ، فإن المسلمة في يد الكتابي
لا تأمن أن تفتن في دينها ، فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره ،
لا سيما من له عليه سلطان كزوجته ، والناظر لما يفعل دعاة النصرانية في
العصر الحاضر يرى جلياً وجه ما قلناه ، ومن هنا يعلم أن المرأة لم تبخس
شيئاً مما منحه الرجل .

٩ - الطلاق

مما عدّ وصمة في الإسلام إباحة الطلاق ، ولذا ينبغي لنا أن نأتى ببيان
ما سيكشف لك إن شاء الله وجه الصواب فيه ، فنقول :
إعلم أن الطلاق أباحه الله تعالى للمسلمين ، لأنه قد تدعوا إليه الضرورة ، أما
حيث لا ضرورة فسماه النبي صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال إلى الله ، كما أن
المسلمين اتفقوا على النهي عنه عند استقامة الزوجين ، فمنهم من قال إنه نهى
كراهة ، ومنهم من قال نهى تحريماً وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب ،
ويؤيد ذلك أنه إضرار ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه في قوله : لا ضرر
ولا ضرار ، ولقد كرهه النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجته زينب ،

مع أنها كانت تكثر من إيذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا ،
أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ، ولكن اختلفوا في بيان الأسباب ، قال
ابن عابدين : وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر أى الحرمة ، والأباحة للحاجة
إلى الخلاص ، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص ، بل
يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران النعمة وإيذاء بها وبأهلها
وأولادها ، ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الاخلاق
وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن
الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : « فان
أطعنكم فلا تبغوا عليهم سبيلا » أى لا تطلبوا الفراق اه .

أما غير المسلمين ، فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا إلا للزنى ، كالأمة
الانكليزية ، فأيهما اقتضه كان الآخر أن يرفع الأمر إلى المحكمة ليفصل
القاضى بينهما . أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ،
ثم وجدوا أن هناك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ، ولكن لافارقة عندهم
إلا بقضاء قاض ، ولا بد لجمعهم أن يرجعوا الى ما قرره الإسلام
من الأسباب .

نعم إن الشريعة الإسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم ،
وقصار النظر من الناس يرون أن الأول أعدل ، لأن فيه محاسبة الرجل والمرأة
على ما يعملان ، فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ، ولكن دين الإسلام
أقوى ركنا وأحكم وضعاً وأبعد مرمى ، فلم يفعل ذلك الا لحكمة صالحة ،
ذلك أن فى تطبيق الطلاق على حكم القاضى بثبوت الزنا أقبح تشهير بالمقترف

وأشنع سبة تنفر عن مرتكبيه القلوب ، وتشوه سمعته في العالم ، لا سيما في مثل هذا العصر الذي تطوف جرائده في الشوارع والأزقة والدكاكين والبيوت والمصانع ، وتنتقل من أرض إلى أخرى ومن يد إلى غيرها ، مشحونة بتفاصيل ما يعرض على المحاكم من هذه القضايا ، آتية على ما قل منها وما جل . فمن ذا الذي يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب ؟ يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة ما بقي من العمر مردولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا ؛ أما الإسلام فإنه جعل للقاضي فسخ الأنكحة في أمور لا بأس في إعلانها ، بل إن إعلانها هو المصلحة الكبرى ، من ذلك : الجب والعنة والجنون والبرص والجذام والإعسار بالنفقة والكسوة والمسكن ، مما تراه مبسوطا في كتب الفقه متى رجعت إليها . أما غير هذه الأسباب مما قد يزول أو لا كبير خطر في بقاءه ، فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانا فيه . فما أجمل ستار الشرع الذي يخفي كثيراً من النقائص ، رجاء أن تزول من قبل أن يظهر عليها أحد ، وما أرفه بالإنسان الذي قد يهفو ثم يبدو له فينيب .

هذا . واعلم أن الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا ، وغاية ماورد في الانجيل أن من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان ، وهذا لا تعرض فيه لحكم الطلاق أصلا .

واعلم أن الطلاق في الإسلام ، كما هو معلوم ، حق من حقوق الزوج (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم) ولكن الإسلام مع ذلك قد جعل للمرأة ، كما تقدم ، أن تشتترط

في العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية ، فإذا لم تشترط ذلك هي أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذي خوله له الشرع ، ولكن مع ذلك لا يجوز له أن يوقعه إلا حيث يراه الشرع حسناً صالحاً كما تقدم .

هذا ولم يعتبر الإسلام زنا الرجل من الأسباب التي تطلب بها المرأة فسخ الزواج ، ولا العكس ، إلا من قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفى حملها ، ولا بينة له ، فإن له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ، ثم يفرق القاضى بينهما ، والسبب في أن هذه التفرقة لم تبين على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث ما يستتبعه من الأحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون من الأولاد ، ولذا كان رمى المرأة للرجل بالزنا لا يصلح علة للتفرقة بل إن لهذا حكماً آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه .

فما تقدم لنا هنا نرى أن الإسلام لم يجر في جميع ما سردناه عليك هنا إلا على مقتضى أصل الفطرة ، ورفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ، ثم لم يبخسهن شيئاً ، كما أباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقرراً بما وضعه وقرره من الشروط - ولكن لو أنصف الناس لاستراح القاضى - حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم ، فكان أكثرهم إباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون .

كان الطلاق قبل الإسلام منتشرأ في جميع أمم العرب يهودياً ومسيحياً ووثنيها ، وكذا بين الرومانيين ، فلقد اعتبر قانون « الموائد الأثنتى عشرة » الطلاق جائزاً . أما ما تشددق به بعض المشيخين لهم من أنهم لم يعملوا بهذا

القانون إلا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم « رومة » فلم يكن سببه ما يدعون من بعضهم للطلاق ، ولكن لأن الرجل في تلك القرون كان له أن يقتل امرأته عقاباً لها على بعض الجرائم كالسكر ، فكانت عند الرجل كالرقيق ، كما أنها إذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزاً يخول له عقوبتها . نعم إن الرومانيين في أخريات أمرهم أصلحوا كثيراً من شأن المرأة وأنصفوها ، إذ ساووا بينها وبين الرجال في كثير من الأشياء .

يقول الأمير على إن المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق إلا بحكم القاضى الشرعى العادل ، فلا بد أن يمتحن الأسباب بلا تحيز ، فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحاً . ومن هنا يظهر أن من ضوائف الاسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم القاضى ، فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج إلا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريد من الفرقة .

واعلم أن من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته في الطلقة الأولى والثانية ، لأنه ربما كان التطليق لسورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر ، فرجا الشرع أن يرجع إليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى إذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفیه الرأى ضعيف العزم ، ولا يخفى ما فى هذا الشرط من السر الحكيم ، وإذا أردت زيادة بيان فتدبر قوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدان أصلاً يوفق الله بينهما » أيقول الله إن يريدان طلاقاً يفرق الله بينهما أم

إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما؟

وتفهم قوله تعالى: «خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة» فقال لتسكنوا إليها ولم يقل لتطلقوها، وقال وجعل بينكم مودة ورحمة، ولم يقل بغضاً وقسوة، وقوله تعالى: «أمسك عليك زوجك» أمر النبي عليه السلام زيدا بأن يمسك زوجته فلا يطلقها، مع أنها كما تقدم كانت تكثر من مضارته وإساءته، وقال تعالى: «فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا» أي فلا تطلقوهن، ومن هنا استنتج أن الأصل في الطلاق التحريم، إلا لسبب كما تقدم لنا.

١٠ - هامة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الأستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده، مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام.

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلًا وشربًا ولباسًا وزينة، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل في ولايته، أو ما تعدى ضرره إلى غيره، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لنسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها، اللهم إلا حتماً محترماً تصطدم به، أنجي الإسلام على التقليد

وحمل عليه حملة لم يرد لها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ،
واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان
في عقائد الأمم ، وصاح بالعقل صيحة أزجته من سباته وهبت به من نومة
طال عليه الغيب فيها كلها نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هنيئة
من سدنة هياكل الوهم « نم فإن الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة
والراحلة كليلة والأزواد قليلة »

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق
ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون
ودلائل الحوادث وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طرق البحث
هادون .

صرح في وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما
عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، وما على الرؤساء فأنزلهم
من مستوا كانوا فيه يأمرن وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهن
يخبرونهم كما يشاؤون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما
يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ،
وسجل الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في
الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان
على أذهان ، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفترة سيان ، بل لللاحق من

علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها
في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك
الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من
سبقهم، وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقتترفه سلفهم « قل سيروا في
الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وأن أبواب فضل الله لم تغلق
دون طالب، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب .

عاب أرباب الأديان في اقتفاءهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته
لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدناه عليه آباءنا » « إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون »

الأمة الإسلامية

« جاءت الشريعة المحمدية والديانة السماوية فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة ، ومكنت في نفوسها تلك الصفات الفاضلة ، وشمل ذلك آحادهم ، ورسخت بينهم تلك الأصول الستة بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها فكان من شأنهم أن بسطوا سلطانهم على رؤوس الأمم من جبال الألب إلى جدار الصين في قرن واحد ، وحشوا تراب المذلة على رؤوس الأكاسرة والقيصرة . مع أنهم لم يكونوا إلا شذمة قليلة العدد نزره العمد ، ولم ينالوا هذه البسطة في الملك ، والسطوة في السلطان إلا بما حازوا من العقائد الصحيحة ، والصفات الكريمة . هذا إلى ما جذبته مغناطيس فضائلهم من مائة مليون دخلوا في دينهم في مدة قرن واحد من أمم مختلفة ، مع أنهم كانوا يخبرونهم بين الإسلام ، وشيء زهيد من الجزية ، لا يثقل على النفوس أداؤه ، هكذا كان حال هذه الأمة الشريفة من العزة ومنعة السلطان » الى أن قال :

فأفسدوا « أي الطبيعيون » أخلاق الملة الإسلامية شرقا وغربا ، وزعزعوا أركان عقائدها ، وساعدتهم مد الزمان على تلويث النفوس بالأخلاق الرديئة ، وتجريدها من السجايا الكريمة . أتى كان عليها أبناء هذه الملة الشريفة ، حتى تبدلت شجاعتهم بالجبن ، وصلابتهم بالخور ، وجرأتهم بالخوف ، وصدقهم بالكذب ، وأمانتهم بالخيانة ، ووقع المسخ في هممهم . فبعد أن كان مرماها مصالح الملة عامة ، صارت مقصورة على المنافع الشخصية الخاصة ، وعادت رغباتهم لا تخرج عن الشهوات البهيمية . وكان من عاقبة ذلك أن جماعة من قزم الأفرنج صدعوا أطراف البلاد السورية ، وسفكوا فيها دماء آلاف من أهاليها الأبرياء ، وخرّبوا ما أمكنهم أن يخرّبوا ، وثبتوا بها نحو مائتي سنة ، والمسلمون في عجز عن مدافعتهم

مع أن الأفرنج كانوا قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين ، وطروء الفساد على أخلاقهم ، في قلتي لا يستقر لهم أمن على حياتهم وهم في بلادهم ، خوفاً من عادية المسلمين ، وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيز خان ، واخترقوا بلاد المسلمين ، وهدموا كثيراً من المدن المحمدية ، وأهدروا دماء ملايين من الناس ، ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم ، مع أن مجال خوفهم في بدء الإسلام على قلة عددهم ، كان ينتهي إلى أسوار الصين .

وما نزل بالمسلمين شيء من هذه المذللات والإهانات ، ولا رزئوا بالتخريب في بلادهم والفتناء في أرواحهم إلا بعد ما كالت بصائرهم ، ونغلت نياتهم ، ومازج الدغل قلوبهم ، وخربت أماناتهم ، وفشوا الغل والادهان بينهم ، ودار كل منهم حول نفسه لا يعرف أمته ، ولا ينظر إلى ملته ، فأصبحوا بقناة خوارة ، بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز ، إلا أن بقية من تلك الأخلاق المحمدية كانت لم تنزل راسخة في نفوس كثير منهم ، كامنة في طي ضمائرهم ، فهى التي أنهضتهم من كبوتهم وحماتهم على الجذ في كشف السطوة الغربية عن بلادهم ، فأجلوا الأمم الأفرنجية بعد مئتين من السنين ، وخلصوا البلاد السورية من أيديهم ، وطوقوا الجنكيزيين بطوق الإسلام ، وألبسوهم تيجان شرفهم ، ولكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف وإعادة ما كان لهم من الشوكة إلى المقام الأول ، فإن ما كان من شوكة وقوة إنما هو أثر العقائد الحقة والصفات الحمودة ، فلما خالط الفساد هذه وتلك ، تعمس عود السهم إلى النزعة . ولهذا ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط في سلطنة المسلمين كانت من حرب الصليب ، والأليق أن يقال إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد الدهرية في صورة الدين ، وسريان هذه السموم القاتلة في نفوس أهل الدين الإسلامى .

الشعب الفرنسى :

شعب كان قد تفرد بين الشعوب الأوروبية بإحراز النصيب الأوفر من الأصول الستة ، ورفع منار العلم ، وجبر كسر الصناعة في قطعة أوروبا بعد الرومانيين ، وصار بذلك مشرقاً للتمدن في سائر الممالك الغربية ، وبما أحرز الفرنسيون

من تلك الأصول كانت لهم الكلمة النافذة في دول الغرب إلى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحي ، حتى ظهر فيهم « فولتير » و « روسو » يزعمان حماية العدل ، وأحياء ما بل من عظام الناتور اليسم « الطبيعيين » ونبذا كل تكليف ديني ، وغرسا بذور الإباحة والاشتراك ، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية ، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانساني ، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية ، ورفع كل عقيرته بالتشنيح على الانبياء « برأهم الله مما قالا » . وكثيراً ما ألف فولتير من الكتب في تخطئه الأنبياء والسخرية بهم ، والقده في أنسابهم ، وعيب ما جاءوا به ، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين ، ونالت من عقولهم ، فنبذوا الديانة العيسوية ، ونفضوا منها أيديهم ، وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة في زعمهم ، شريعة الطبيعة ، وزاد بهم الهوس في بعض أيامهم ، حتى حمل لفيفاً من عامتهم على أن يتناولوا بنتا من ذوات الجمال فيهم ، ويحملوها إلى محراب الكنيسة ، ونادى زعيم القوم : « أيها الناس لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد ، ولا التماع البرق ، ولا تظنوا شيئاً من ذلك تهديداً لكم من إله السماء ، يرسله عليكم ليعظكم به ، وينزعكم عن مخالفته . كلا فهذه كلها آثار الطبيعة « الناتور » ولا مؤثر في الوجود سواها ، فخلوا عن أعناقكم قيود الأوهام ، ولا تقيموا لأنفسكم إلهاً من خواطر ظنونكم . وإن كانت العبادة من رغائب شهواتكم ، فها هي العذراء قائمة في المحراب على مثال الدمية فاجحدوا لها إن شئتم » .

والأضاليل التي بثها فولتير وروسو هي التي أضرمت نار الثورة الفرنساوية المشهورة ، ثم فرقت بعد ذلك أهواء الأمة ، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها ، فاختلفت فيها المشارب ، وتباينت المذاهب ، وأوغلوا في سبل الخلاف زمنياً يتبعه زمن ، حتى تبين صدعهم ، وذهب كل فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية ، وليس بينها وبين غايات سائر الفرق مناسبة ، وانحصر سعي كل قبيل في التماس ما يوافق لذته ، ويوافق شهوته ، وأعرضوا عن منافعهم العامة ، وأعقب ذلك طروء الخلل لسياستهم الخارجية شرقاً وغرباً « لعله يشير إلى حالة فرنسا أيام وضعه هذا الكلام منذ نيف وأربعين عاماً »

نعم إن نابليون الأول بذل جهده في إعادة الديانة المسيحية إلى ذلك الشعب،
استدراكاً لشأنه، لكنه لم يستطع نحو آثار تلك الاضاليل، فاستمر الاختلاف
بالفرنسيين إلى الحد الذي هم عليه اليوم. هذا الذي جر الفرنسيين للسقوط
في عار الهزيمة بين يدي الجرمانين، وجلب إليهم من الخسائر ما تعسر عليهم
تعويضه في سنين طويلة «... اه

* * *

هذا لسان صدق من السنة المسلمين، ينطق على خصائصهم بالحق، ويعبر غير
المستمسكين بدينهم من المسيحيين، ويقول لهم إن نبذهم الدين إنما هو الذي
عاد عليهم بالانهزام أمام أسياف بروسيا، وهو في جداله إنما يجادل بالتي هي
أحسن، معتمداً على قوة الحجج والبرهان. فأين هذا من عمل أولئك الحمقى الذين
يعتمدون في تأييد دينهم على السباب والشتم، واللعنات الوقحة، حتى وهم قائمون
يصلون في الكنائس، كما أثبت الكونت دي كاستري ذلك.

رأى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده

ولم يكن المرحوم السيد جمال الدين الافغانى وحده هو الذي تفرد بهذه
المنزلة السامية في جداله، بل إن نابغة الشرق ونبراس مصر المرحوم الشيخ محمد
عبده مفتي الديار المصرية الأسبق، كان وهو في أشد انفعال في جداله مع وزير
خارجية فرنسا، يتنكب الخط من دين خصمه، وإليك نبذة من قوله في
هذا المعنى :

« هذه هي العقيدة السامية، أو الدعوة المحمدية، أو المدينة الاسلامية، ارتقت
بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض، ولم يتلذظوا بشيء من نعيم
الحضر، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة، حتى بلغت بهم ما بلغت، واستوت
بهم على عروش العزة والسلطان، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان، وصفاء العقل،
مبلغاً مكنتهم من التلطف بالأمم، حتى وقعوا على ما كان خفياً لديها، وكشفوا
ما كان مستوراً عندها، واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على
الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية «... اه

اثر القرآن
في تحرير الفكر البشري

كتاب القواعد

في الحساب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لعل من المستحسن - قبل أن أتكلم في أثر القرآن الكريم في حركة الفكر البشرى وتحريره - أن ألم بببذة تاريخية فيما كانت عليه الأمم الكبرى في طائفة من القرون التي سبقت ظهور الإسلام من التطورات ، وما تعاقب على العقول فيها من المدو الجزر ، والتحرير والاستعباد ، فان في ذلك ما يعيننا على إدراك مدى ما فعل القرآن في إنصاف العقل الإنساني واحلاله المقام الذي خوله خالقه منذ فطره وأوجده .

كان أساس القانون العام السياسي في الامبراطورية الرومانية إباحة علنية الأديان وجميع العقائد والأفكار وما زال الأمر هنالك كذلك حتى دخلت بأوربة الديانة المسيحية التي ابتداء بها عهد الحجر والحظر على ماسياتى تفصيله .

لقد كان من أهم الدعاة إلى تحرير الأفكار من قيود الخرافات والتقاليد ، والقصص المزعجة التي كان يستعملها بعض شعراء اليونان ، ورجال الأديان فيهم : « هراقليتوس » و« ديمقريط » ، ولقد تناول هذان بالبحث - بعد المادة الطبيعية - أحوال النفس البشرية والشئون السياسية ، وكان هدفهما ورائدهما في جهودهما العنيفة إمتحان كل شىء بالعقل والفكر . وكذلك ظهر

« انكساجوراس » فجعل يعلم الناس أن الشمس التي يصلون لها صباح مساء إنما هي كتلة من النار ملتهبة لا إله يعبد .

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة في سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لعلماء التربية المسمون بالصوفية أو السفسطائية ، الذين أخذوا يظهرن في القرن الخامس للميلاد، والذين وضعوا في النصف الثاني من هذا القرن قواعد وأصولاً للحياة الاجتماعية من ناحيتي « الأخلاق والسياسة » وبحثوا في الخطأ والصواب والعقل وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا، ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الأقلية المطلقة التي هي طبقة المفكرين والعلماء ، أما الدهماء والعامّة فكانوا في كل مكان أسارى الخرافات والعقائد الضالة ، على أنه لا ينبغي أن يسجل ما كان لأئتنا في ذلك العصر من التمتع بحرية الفكر والمناقشة في الشؤون السياسية والخاصة لعهد زعيم نهضتها الحرة « بريكل » الذي كان يحمي أرباب التفكير الحر ، حتى لقد كان حصناً للفيلسوف الجاحد لآلهة أئتنا « انكساجوراس » من المحاكمة .

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على أن النزوع إلى الخروج على الأديان كان آونة لا ينجو من العقوبة ، وإن ما كان ينشر من الكتب في ذلك كان يجمع ويحرق أو يحرم بيعه علناً ، ولكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التي كانت تقام في أوجه المنطقيين « Rationalists » اللادينيين كادت في أواخر ذلك القرن تختفي ، وذلك لوفرة عدد هؤلاء واطراد نموهم وتكاثرهم ، ولقد كان من القضايا المسلمة لدى الأغريق ، ثم الرومان حتى في أرقى عصورهم علماً ومدنية ومادية أن الدين نافع وضروري لعمامة الشعوب مطلقاً ، ولذلك

كان يقول بفائدتها كركن للسياسة العامة ، حتى من لا يدينون بها ، كما أن
فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر أية عقيدة أو نظرية ، من شأنها
إحداث اضطراب ما في الحياة الاجتماعية . ومن الأفراد البارزين في هذا
الميدان من الإغريق سقراط ، الذي يعتبر بحق أجل أولئك المرين ،
فكان مما امتاز به وتفرد ، شديد تعلقه بطريق المناقشة والنقد ، واجتذاب
كل من يحادثونه ومن يستمعون إليه ، الى طريق استعراض العقائد
المعروفة المألوفة ، وامتحانها بمحك الفكر ، مع إفساح صدر العقل لكل
بحث واحتمال ، دون تقييد بشيء من التقاليد ، ولا وقوف عند رغبات
الجمهير ، وإنما سلك سقراط هذا الطريق في نشره للعلم ، واقتياده شباب
زمانه الى وجوه الحقيقة ، ومناهج التفكير الصحيح ، لأن بلاد اليونان منذ
حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسوى ، كانت ميدان حركة
فكرية ، ابتدعها أفراد من اليونان ، كانوا في أول هذه الحركة ، إما
مستزقين أو طلاب شهرة وسمعة ، ثم أخذوا يسرفون في أساليبهم الجدلية
وطرائقهم التشكيكية ، غير مباليين ماذا يصيب العقول من التضليل ، ولا
حاسبين حساباً لو خيم عواقبها ، ومنسكراً نتائجها .

ولقد أكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل
وما بين الفضيلة والرذيلة من الحدود حتى التمس الأمر على العقول وخفيت
عن بصائرهم معالم العلم الصحيح وحدوده ولم يتركوا شعبية من شعب التفكير
ولا ميداناً من ميادين المعرفة حتى أعملوا في أساسها وأركانها معاول التشكيك
للعلم ببلوغه ولا لصواب ينشدونه ولكن ضللاً لا وتضليلاً ، وجهلاً وتجهيلاً ،

فلما جاء سقراط، بما أوتي من العقل الراجح والرأى السديد والعلم الصحيح، لم يجد بدأً أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويسلك في هدايتهم تلك السبل التي سلكها أولئك في تشكيكهم وتضليلهم، ولو أنه انتهج في تعليمهم وارشادهم غير هذه المناهج التي فتنوا وأغرموا بها لما استطاع أن يجتذبهم إلى طريقه، أو يبلغ بهم شيئاً من مقاصده. وإلى عهد سقراط لم تكن التربية العالية من أغراض السياسيين والمفكرين من اليونان.

ومع كون أثينا في ذلك العصر كانت أشهر البلاد في الديمقراطية وأكثرهن تسامحاً وحرية، نجد التاريخ يسجل لنا ما لا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التي كانت تنال المتصددين للدعوة إلى حرية الفكر والاحتكام إلى العقل.

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية، وبالجدل والتشكيك، والنقد وعدم التقيد بما عليه الناس إذ ذاك من التقاليد والأفكار، ولكن كان لدى اليونانيين من الروح المعادى لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى بهم إلى محاربة الفلاسفة (وفي مقدمتهم سقراط) بسائر الوسائل، لاسيما الروايات التي وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم، وتصوير مثل سقراط زنديقاً غير تقي وداعياً مضراً، حتى لقد ثارت عليه الأمة اليونانية آخر الأمر، فاعتبرته ملحداً ومفسداً لعقائد الشباب وقتلوه سنة ٢٩٩ قبل الميلاد، لهذه الأسباب، كما يدل عليه ماجريات محاكمته، وما قدمه في الدفاع عن نفسه، وقد علمنا من التاريخ أنه قدم لدرء ما آتاهم به من افساده لعقائد الشباب هذين الدفاعين:

(١) يجب على كل فرد مهما كانت النتيجة أن يقاوم كل ما يراد عليه

مما يراه ظلماً ، سواء صدر عن شخص صاحب نفوذ أو عن محكمة .
(٢) أن لا ينزل مطلقاً عن القول بأن في المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة ، وضماناً للعلم الصحيح .

بعد ذلك بسبعين عاماً ، اضطرت أرسطو أن يفارق أثينا أيضاً ، حذر أن يساق الى ذلك المصير ، لاعتباره فيها ملحداً أيضاً .

ولقد جاءنا أفلاطون ، أنجب تلاميذ سقراط ، في آخر أيامه بصدمة تراجعت بها الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء ، فإنه يرينا في (المدينة المثالية) أنه لا بد لأهل المدينة من قبول الدين الذي رسمه هو وصوره ، وأن من لا يؤمن به يعاقب بالقتل والسجن ، وأن حرية الجدل والحوار معاقب عليها على النحو الذي وضعه . الخ ، على أن تعاليم سقراط في محادثاته ظلت ينبوعاً غزير المادة ، ترعرعت به عدة مذاهب في الفلسفة ، وصدر عن مرتواه جملة من الفلاسفة المعدودين ، كأفلاطون وأرسطو واستويقيس وأمثالهم ، ممن انبثت مذاهبهم في أطراف بلاد الإغريق منذ ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد ، وفتحوا هذه البلاد مصاريع أبواب الحياة العقلية ، وأنعشوا في أهلها حركة التفكير والتدبر .

ولقد سبقت لنا المامة بما ترك أفلاطون وأرسطو من الأثر في تحرير عقول الآثنيين ، ولكن من المفيد أيضاً أن نورد هنا أن أبيقور على رغم ججوده قيام السلطان الالهى في هذا الوجود للتدبير والتعريف ونبو بصره عن كل موجود سوى المادة والماديات قد تخطى بالعقول الخاملة في إقدامه المدهش السريع من العقبات ما كان يستعصى على الأجيال والقرون . ولقد

وجد بعض الشعراء من الرومانيين في فلسفته وحياءاً وإلهاماً مستطاباً أودعه
قصيدته المسماة (في طبيعة الدنيا)

ولم تكن فلسفة استوييقس في تحرير العقل الانساني بأقل حظاً من المذاهب
المذكورة آنفاً، بل الحقيقة أنها جاءت منظمة ومفصلة لجملة من القوانين الاجتماعية
التي لم يأت سقراط على بيان شيء منها أيام كان يقرر أن القوانين قد تكون
غير عدل وأن الناس يجرمون. ولقد كان لفلسفة استوييقس أثرها في
الشرائع الرومانية، فإن أساس القانون المدني في الامبراطورية الرومانية،
كان، كما قدمنا سابقاً، إباحة علنية لجميع الأديان والجرم بسائر الأفكار.

قدمنا لحضراتكم أن حرية الدين، وحرية الجهر بالفكر، لازمتا
الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية في أوروبا، فضربت هنالك من
حولها نطاق الحجر والحظر، لما كانت عليه من التقاليد الوثنية.

ابتدأ بها الحجر لأن الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية، التي
تنافر بطبيعتها التقاليد الوثنية الرومانية، والتي ما كانت تتمثل لأبصارهم
سهلة سمجة.

ولشدة نفور الرومانيين منها، وبغضهم لها، واعتقادهم ابتعادها عن
روح التسامح، أصدر تراجان قانون حكم القتل على من يدين بالانصرانية،
وإن يكن أحاطه بقيود لم تيسر السبيل إلى الاسراف في القتل، ولكن
الامبراطور بيوكليان أراد تأييد دين الحكومة، وتثبيت قدم الحرية التي
ألغوها قديماً، فكان ما قرره من تنظيم المذاهب في المسيحيين بكل فضاة
وقسوة. وفي الحق أن الذي دفع ذلك الامبراطور الى هذه الجرائم، أن

المسيحية كانت تقبح ما اعتيد من عبادة الرومانيين لبراطرتهم ، على حين
أن ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة أن تخصص الشعوب بالعبادة ،
توحيداً لكلماتهم ، وتعلقاً خالصاً بعروشهم التي تمثل الامبراطورية جميعها ،
ولكن بدخول قسطنطين الكبير في النصرانية دارت الدائرة على العقل ،
فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق . وبعد أن كان رجال المسيحية
في القرنين اللذين سبقا ذلك ينادون بأن التسامح الديني واجب ، وأن العقائد
ليست مما يلزم به الانسان جبراً ، ففتنوا بدخول قسطنطين في النصرانية ،
وانقلب الأمر رأساً لعقب ، فكان الحكام والملوك ، لأسباب سياسية
غالباً ، كما كانت الطوائف المختلفة لما بينها من الاختلافات المذهبية ،
يوقدون نيران الفتن ، ويتممون المذابح المريعة هنا وهناك ، حتى سلب من
الدنيا الأمن والسلام ، وفقدت الأنفس الراحة ، والطمانينة . ولقد كان من
تعالمهم أن النجاة لا تكون إلا بقبول المسيحية ، وأن من لا يقبلها لا ينجيه
فداء من عذاب الدنيا ، ولا عذاب الآخرة ، مهما بلغت فيه الفضائل ،
ومهما قدّمت يده من الخيرات والحسنات ، وأنه إذا مات الطفل قبل
التعميد فإنه في الآخرة يمشى على بطنه في أرض جهنم أبرد الآباد .

ومن أقدس رجالهم (سانت أو غسطين) الذي مات سنة ٤٣٠ ميلادية ،
فإنه وضع نظام اضطهاد من لا يتقبل النصرانية ، واستمر ذلك من بعده
متبعاً الى القرن الثاني عشر ، وكلها حدثت بين النصارى بدعة أو عقيدة تقلل
من دخل الكنيسة ، يشتد القسوس على أصحابها ويغلون في ايدائهم
والتنكيل بهم .

ولقد أمر البابا أنوسنت الثالث «قونت طولوز»، أن يستأصل طائفة من رعاياه ذات بدعة مذهبية، فلما لم يطع أمره أقام عليه حرباً صليبية كادت تنفي قومه، وفيها صودرت أملاك ذلك القونت، وكسرت شوكته، ولم يصالحه البابا إلا على شرط استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه.

كذلك أقيم نظام التفتيش في المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣ ميلادية، وتم تنظيمه لعهد انوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ وأدخل في سائر المدن والممالك النصرانية، وعين لذلك المفتشون من القساوسة، ومنحوا من قبل البابوات السيطرة المطلقة غير مسئولين عن شيء يفعلونه، وساعدهم على ذلك ما وضعه البراطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية الجائرة. ومع كون فريدريك الثاني الكبير كان حر الفكر، أصدر أمراً يقضى بأن كل من ينكر أو يبتدع شيئاً في النصرانية يعتبر خارجاً، ويحرق منهم من لم يتب، ويحبس من تاب، ومن ارتد قتل، وتصادر أملاك الجميع وتدمر بيوتهم، وكذلك أطفالهم لا يستحقون الرحمة، لا هم ولا أنسأهم، إلا إذا أخبروا عن ملحدين أو مبتدعين ولو كانوا آباءهم. وقد جعل فريدريك (الخازوق) عقوبة الإلحاد والابتداع، وطبق ذلك الأمر في إيطاليا وألمانيا خلال ١٥ عاماً (١٢٢٠ - ١٢٣٥ م) ثم عمم نظام التفتيش في غرب أوروبا. ولعهد هنري الرابع والخامس عوقب الإلحاد بالخازوق في انكلترا بقانون اصدر سنة ١٤٠٠ ونسخ سنة ١٥٣٣، ثم أعيد لعهد الملكة ماري، ونسخ نهائياً عام ١٦٧٦ م.

واستمرت في تطبيقها على المسلمين واليهود، بأفزع الطرق الوحشية،

ولم تنسخ قانونيتها إلا في القرن التاسع عشر، وكانت خلال ذلك تطبق هذا القانون على من حملتهم على الردة من البيوتات الإسلامية واليهودية. وبالجملة فقد كانت القاعدة التي بنى عليها نظام التفتيش « خير أن يقتل مائة أبرياء من أن يلحد فرد واحد » وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لأقل شبهة، ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه، ولا كان لمحكمة أن تقبل في حال ما شاهد نفي .

وكما فعل بمخالف العقيدة النصرانية، كذلك فعل بطوائف السحرة، فمن ذلك أن البابا « أنوسنت الثامن » نشر في سنة ١٤٨٤ بلاغا يؤكد فيه أن الطاعون والعواصف من عمل السحرة، فتنبعواهم في كل مكان فاتكين بهم الفتك الذريع، وبالخاصة في إنجلترا واسكوتلاندا .

وفي أواخر القرن الثاني عشر جاء للعقول قبس من دنيا أخرى ليفك عنها أغلالها وسلاسلها، إذ أخذت فلسفة أرسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها في غرب أوروبا. ولقد كان لابن رشد وأمثاله حظ كبير في تحرير عقول أهل أوروبا، كما نالهم كثير من مناهضة البابوات لتعاليمهم، فاننا نجد البابا يوحنا الحادي عشر، يقبح تعاليم ابن رشد، ويحكم بضرر وجودها ونشرها، كما أن القس توماس قسيس أكويونو بجنوب إيطاليا سنة ١٢٧٤، قام فأسس للكنيسة فلسفة أزاء فلسفة أرسطو والعرب، وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية. والحقيقة أن فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار، بل إنها في أغلب المواطن كانت تتركها كريشة في مهب الرياح ساقطة لا تستقر على حال من التلق .

وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة الفكرية ، والنهضة العلمية ، دخلتا أوروبا فيما حول القرن الثاني عشر الميلادي من طرفين : «أحدهما» الاحتكاك الذي ظل نحو قرنين مستمرًا بين أمم أوروبا والشرق الإسلامي خلال الحروب الصليبية ، و « ثانيهما » طريق المعاهد العلمية التي أقامها العرب في الأندلس و نابولي و جزيرة صقلية . والمحققون من المؤرخين يقررون أن من بدى بهم تاريخ النهضة العلمية في أوروبا كروجر بيكون وأمثاله كانوا من الواقفين على اللغة العربية واللاتينية التي كانت لا تنفك تنقل اليها علوم العرب ومباحثهم في كل فن . وإذا إنتحل هؤلاء أو عزي اليهم ابتكار أو ابتداع ، فانما سبب ذلك ما تعمدوه غالباً من إغفال المصادر التي أخذوا عنها ، حتى لقد رجح أئمة التاريخ أن روجر بيكون الراهب الانجليزي الذي يعزو اليه الفرنجة فضل السبق في العدسات والنظارات ، إنما أخذ هذا عن الحسن بن الهيثم ، صاحب المباحث العظيمة في الطبيعيات ، لا سيما الضوء والبصريات . فمجاورة أهل أوروبا لأهل القرآن ، الذي حرر العقول ، وأقام صروح العلوم ، وزين الدنيا بجميل الفنون ، هي التي فتقت بصائرهم ، وكشفت عن حديد أبصارهم أغشية الجهالة ، التي حجبتهم عن أنوار الهداية أدهاراً طويلة . ولو أن هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الإنساني موقف أهل القرآن من كل وجه ، لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذي اتصلوا فيه بالمدينة العربية وحرية الفكر الإسلامية ، ولكن كان لسلطان رجال الدين في تلك العصور ، واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها ، ما قاوم تقدمهما وأضعف تأثيرهما . فلقد وجهوا الفلسفة الواغلة فيهم إلى المناحي الدينية ، وقصروها

على المباحث الكنسية ، وبذلك صرفوها عن وجوها الأصلية ، وقصدوا
بها إلى غير غاياتها الطبيعية .

ومع أن المرسوم الذي أصدرته الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٢٩ م ،
قاضيا بوجوب الانصراف عن جميع المجادلات ، وألا تفسر التوراة والأناجيل
إلا بما تقرره الكنيسة ، قد أغضب كثيراً من الأمم النصرانية . وبرغم أن
هذا القرار في الواقع كان من أهم أسباب ولادة المذهب البروطسنتي ، فإن
لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث أن قرر أن للحكومة حق إجبار الشعب
على قبول ما رأى أنه العقيدة الصحيحة ، وأن لها استئصال الملحدين
المنكرين لها .

بذلك السكيد المبيد للعقل الانساني ، والغدر الأثيم به ، لم تقو الحركة الفكرية
على المضى في سبيل حريتها ، والظهور على ما كان يببئ لها رجال الدين من
الحروب الشعواء ، حتى كانت أواخر القرن السادس عشر ، حينما ظهر فرانسيز
بيكون الفيلسوف الانجليزى بحملاته العنيفة ، على الفلسفة الدينية ، مصدعا
بمعاولة صروحها الشاخخة الرهيبة ، داعياً الناس إلى تحرير العقول ، ومعالجة
المسائل العلمية بأساليبه الجديدة التي وضعها ، واقتاد الباحثين اليها ، فبدأ بذلك
عهد التجديد العلمى ، والتحرير العقلى ، الذى لا تزال المشارق والمغرب
حتى اليوم تنعم بشهى ثماره الدانية القطوف .

يبتدىء تاريخ الفلك الجديد بأوربا ، كما هو معلوم ، عام ١٥٤٣ م ، ذلك
حينما نشر كتاب كوبر نيقوس الذى يثبت به دورة الأرض حول الشمس ،
ثم زاد غاليليو بواسطة تلسكوبه إثبات أقمار المريخ ، وإثبات دورة الأرض

حول نفسها، مستدلاً على ذلك باللمع المظلمة التي رآها في جسم الشمس،
فماذا قابلته الكنيسة؟ لقد قرر المكتب المقدس في فبراير سنة ١٦١٦ أن
مذهب كوبر نيغوس سخيف، وبمقارنته بما جاء في الوصية (وصية المسيح)
يعد هرطقة. ولقد حرمت رومة تعليم نظام المجموعة الشمسية الى ما بعد
منتصف القرن الثامن عشر. وقد أربك هذا التحريم دراسة العلوم الطبيعية
في ايطاليا. وكذلك أقام البابا الكسندر الرقابة على المطبعة سنة ١٥١٠،
كيلا تنشر ما لا ترضاه البابوية من الأفكار، الحرة ولو كانت حقائق علمية
ثابتة. وفي فرنسا كان الملك هنرى الثانى يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئاً بدون
ترخيص. والحقيقة أن الطبع لم يصر حراً فى أية قطعة من أوربة إلا فى
القرن التاسع عشر، وهو العصر الذى ضعفت فيه سيطرة الكنيسة،
وقويت شوكة الملوك والأمراء المدنية، وسادت النظم والقوانين الدستورية.
ولما تأسست الجمهورية الديمقراطية فى فرنسا (١٧٩٢ - ٥) أعيد وأيد
القانون القاضى بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية، ولكن وجد بجانب
ذلك حركة شديدة ضد الكنائس، إذ أصدرت باريس أمراً باغلاق
سائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء، مستعملة فى ذلك القوة القاهرة والصرامة
الماضية، ولكن حينما جاء روبسبير فى رأس الحكومة قرر أن يكون دين
الحكومة عبادة العلى الكبير (أبريل سنة ١٧٩٥)، وبعد قليل أحدث دين
وضعى جديد، يسمى دين الفطر، وهو دين فلاسفة ذلك القرن ودين
شعرائه، مثل فولتير. وقواعده هى القول بالله، وخلود النفس،
والأخوة والأنسانية (الرحمة) وألا تهاجم هذه الديانة غيرها من الأديان

والمذاهب، ويسمى هذا الدين الجريديدين محبة الله (Theophila Nthropy) ولما كان عام ١٨٠١ جاء نابليون فقلب هذا الدين رأساً لعقب، وأظهر البابوية ثانية في الميدان، ولم يكن يقصد من ذلك إلا الانتفاع بالسلطة الروحانية، والاستفادة منها في حروبه المستقبلية، وتوسيع امبراطوريته في عالم الكشلكة.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، زلزلت عقيدة جماعات من المسيحيين، لما كان يذاع إذ ذاك من أن في التوراة والأناجيل من التضارب والتنافر، ما لا تقوى العقول على قبوله. فتفشى بذلك إنكار الوحي، وسادت المناقشات العلية هنا وهناك. وفي القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة، فاجتثت كثيرا من أصولها، وإن يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما بينهم بعض الشيء، فمنهم من أنكرها بتاتا واعتبرها غير معتمولة وسخيفة، ومنهم من لم يصل الى هذا الحد الغشوم. فبسكال الفرنسي كان من المؤمنين بها، ويكفون الانجليزى كان يعلن اللاهوتية وإن يكن مضمراً للالحاد. وهناك ديسكارتس كان من ناحية أخرى يحاول أن يوفق بين العقل والكنيسة.

ولقد نمت في بعض الآونة أثر تغلب العقل على الكنيسة، في معاملة السحرة، فاننا بعد أن رأينا كيف كان جسم الاول عملاً، بآية الانجيل «لا تبقوا على حياة السحرة» (Thaw shalt not suffer them to live) يطارد هؤلاء بكل صرامة وغلظة تشهد، في أواخر أحداث عام ١٧١٢ كيف يعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من أهالى هر تفوردشير مجرمة

تستحق عقوبة القتل ، فيرفض القاضى قولهم ويبرئها غير متأثر بتعاليم الكنيسة ، ولا متقيد بالتقاليد السائدة إذ ذلك .

ولقد نسخ هذا القانون نسخاً سنة ١٧٣٥ ، ولكن في سنة ١٧٥٢ حكمت محاكم اسكوتلاندة باحراق امرأة ساحرة .

ومن المذاهب الجديدة بالذكر ، ما أحدثه في هولندا فيلسوف يهودى اسمه (اشينوتزا) وأعلنه الى الناس عند ما حل عقول الفكر ، وألقى حبله على غاربه . وعقيدته أن هناك إله ليس قائماً بذاته ، وأنه ليس للانسان ارادة حرة ، وأن القول بالعلة الأولى أو علة العلل خرافة ، وبعبارة أخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجود ، أو وحدة الوجود ، ولا بد أن يلاحظ أن هذه الكلمة كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزاً إلى صاحب الفكر الحر ، فكانت عبارة مقمت وتكفير إلا فيما ورد منها في بعض الكتب الدقيقة ، ولكن الحقيقة أن الذين سموا إذ ذلك بذلك الاسم لم يكونوا إلا إلهيين ، بيد أنهم ينكرون فقط الوحي .

ومن معاصريه (لوك) ومغزى كتابه الذى وضعه سنة ١٦٩٠ أن العلم جميعه ليس إلا نتيجة التجارب وأخضع الاعتقاد فى جميع أحواله للحكم العقلى ، وقرر رفض ما يخالف حكم العقل من الوحي ، وأن الوحي لا يعطى علماً صحيحاً كالذى يعطيه النظر العقلى ، وقد وضع كتاباً فى موافقة النصرانية للعقل . ولقد حذا هذا الحذو معاصره « بايل » الذى وضع بعد نفيه من فرنسا إلى هولندا كتابه (القاموس الفلسفى Philosophical Dictionary) ومن كلامه أن فضيلة الاعتقاد تنحصر فى الإيمان بقدره الله وسلطانه

وحده ، ويقول إنه يستحيل أن يتصور الإلهيون تطبيق صفات إله الأرثوذكس على الإله الذى ثبت بالعقل وجوده . ولما قبل فريق من الأرثوذكس تحكيم العقل ضلوا ، وسقط منهم كثير فى هاوية الالحاد . وقد تطابق الإلهيون (واشبينوتزا) على القول بأن الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب .

ولقد ظلت أفكار الإلهيين خفية مكتومة إلى سنة ١٦٨٥ م حين أبطلت قوانين المطبوعات ، فابتدأت إذ ذاك تظهر بعض الظهور ، برغم ما كان أمامها من العقبات الإدارية الأخرى ، وهى :

(١) إنه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن فى المسيحية، أو يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدها ، أو يأتى بالحد ، أو سب للمسيح .

(٢) ترجمة القانون العام سنة ١٦٧٦ (ترجمة قاضى القضاة هيل فى قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن أى عمل أو قول أو رأى يخالف تعاليم الكنيسة ، يعتبر مخالفاً للقانون العام ، إذ النصرانية ركن من أركان القانون العام الانجليزى .

(٣) صدور قانون عام سنة ١٦٩٨ يقضى بأن كل نائب فى النصرانية لا يجوز له أن يعلن مخالفته لأصول الكنيسة وتعاليمها ، ومن يفعل ذلك يعاقب لأول مرة بالحرمان من الخدمة فى الوظائف العمومية ، وفى الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة مع حبسه ثلاث سنوات

ولقد تولى فولتير ، وروسو ، فى القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر . وللأخير يعزى كتاب « إميل » الذى أحرق علناً فى باريز وصدر أمر الحكومة بالقبض على مؤلفه ، فما وسعه غير صدر فردريك

ملك بروسيا ، ولكن رجال الدين هنالك ما زالوا يضيّقون الأرض عليه حتى اضطرّوه إلى مفارقة بروسيا . ولقد كان لروسو أعظم تأثير في الحياة الاجتماعية ، بعد الذي نشر من نظرياته الاشتراكية في كتابه «العقد الاجتماعي» (Social contract) الذي أحرق علناً في جنيف .

وفي سنة ١٧٧٠ فوجيء القراء الفرنسيون بالدهش يوم ظهر كتاب البارون دي هولباخ «نظام الطبيعة» (System of nature) الذي أنكر فيه وجود الله وخلود الروح ، وقد انبثرت في القرن الثامن عشر الالحاد وحرية الفكر رغم مطاردة زعماء هذه الحركة واضطهادهم . على أن ذلك استمر إلى ما وراء هذا القرن ، فتمد حوكم كارلايل سنة ١٨١٩ ، وسجن ثلاث سنوات عند ما نشر كتابه (عصر العقل Jage of Reason) . ثم جلبت امرأته وبنته وكثير من بائعي الكتب المحاكمة بسبب ذلك الكتاب .

وفي أواسط القرن الثامن عشر ، ابتدأت حركة الحرية الفكرية ، بعد إذ كانت العقول هنالك مكبلّة مغلوطة ، وبعد أن رأينا كيف نفى أبو فرديق ملك بروسيا الفيلسوف وولف ، لمجرد أنه مدح ديانة كزنفشيوس الصينية ، وما كان لأحد في رأيه أن يمدح ديناً غير دين النصرانية . وبعد ذلك يجيء ابنه على إثره بالتسامح الذي جعل أرضه موثلاً ومعاذراً لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الأخرى . ثم جاء شكسبير وغوته بما قدما لعالم الأدب ، فخطوا بالعالم في حرية الفكر خطواتهما الواسعة . وقد زلزل الثقلين (كانت الفيلسوف) إذ بين في كتابه (نقد العقل الصحيح Critic of pure reason) بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه

الكائنات، وبطلان الأدلة التي أقيمت على خلود الروح، وادعى ألا مصدر
للعلم سوى التجارب، وإن يكن في آخر الأمر وضع كتاباً آخر روحه
إلهية، وذلك حرصاً منه على الأخلاق في الشعب التي هي ميزان الحياة
الاجتماعية، والتي لا سبيل إلى إصلاحها وتقويمها فيما ارتأى سوى أن تصبغ
صبغة روحانية، وتسند إلى مصادر سماوية.

* * *

ما تقدم يفهم أن مرجع العلوم العصرية في البلاد الغربية، والقرن
السابع عشر، الذي شهد ثبوت نظرية كوبرنيكوس، والقوة المركزية الجاذبة،
ونظام الدورة الدموية، والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة، كما شهد معرفة
كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها. ولكن هذه المكتشفات ظلت
إلى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة، التي وردت في
كتب العهدين إلا بدرجة محدودة. بيد أنها مع ذلك قادت الأفكار إلى البحث
في الروايات التاريخية، التي جاءت بها، كطوفان نوح وسفر التكوين. فلقد
جاء لا بلاس في أوائله كما قدمنا، فقرر أن أبحاثه تفضي إلى رفض نظرية وجود
الخالق، ثم تقدمت مباحث علم الجيولوجيا، وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض
في الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان.

وفي عام ١٨٦٣ أوضح الأستاذ ليل الفرنسي (Lyell) في كتابه قدم
الإنسان: إن الإنسان سكن الأرض قبل العصر الذي عينته التوراة بأزمان
مترامية في القدم، ولكنه رأى إمكان الجمع بينها باعتبار اليوم الذي جاء في
التوراة طويلاً جداً، لا كأيامنا المألوفة، واعترض عليه بأن هذا لا يمكن

تطبيقه على الأيام التي خلق فيها الإنسان ، فان التوراة تفيد أنها كانت كإيماننا
وقد زعم الفلاسفة المحدثون أن علم الجيولوجيا زرع أركان الأناجيل ،
ولكنها تركت باباً للقول بوجود النوع البشري « قبل التاريخ » وما زالوا
على هذا المذهب حتى جاء علم الحيوان ، مبيناً أصل الإنسان ، فطبّقوا على
البشر قانون النشوء والارتقاء ، وسائر النواميس الطبيعية ، وكاد يعتبر هذا من
الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب دارون أصل الأجناس (Origin of species)
عام ١٨٩٥ .

وازدادت الثورة الفكرية ، وتأججت نيران الجدل عند ما ظهر في عام
١٨٧١ كتاب دارون منشأ الإنسان (The Descent of man) بين الدينين
وغير الدينين ، حتى لتقدّم عن غلادستون في تلك الآونة قوله : « إذا قلنا
بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الاله باعتباره خالقاً قد انتهت ، ولو
سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية ، وأنها قارة خالدة على حالة واحدة
لأصبحت حكومة الرب في العالم مما لا حاجة إليه . » وإذا أردنا أن نعرف
مركز العقل ، ومدى حرية الفكر في البلاد الغربية ، غير الإسلامية ، حتى
في أواسط القرن الأخير ، فحسبي أن أقتبس لكم كيف صور المؤرخون بلاغا
أذاعه أحد الكرادلة من الإنجليز إذ يقولون :

في سنة ١٨٦٤ أدهش الكردينال ما ننج الإنجليزى عالم النصرانية
ببلاغ يقول فيه : « إن لسلك إنسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحاً ،
وإنه ليس للكنيسة حق الاكراه على العقائد . وإن علم ما وراء الطبيعة يمكن
بل يجب ألا يتقيد بالوحي ، ولا برغائب الكنيسة ، وإن للكاثوليكين حق

دعوة من يشاءون من مهاجري الملل الأخرى ، وإن لهؤلاء أن يقيموا
صلواتهم جهرة ، وإنه يجب على البابا أن يقيم في سلام مع الرقي العلمي
والحرية والمدنية .

فلننظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الأحداث الكبرى
التي أدهشت عالم النصرانية. مع أنه عند التدبر لم يأت بأكثر مما عرفه العالم
الإسلامي ، وألفه منذ أشرق نور القرآن على القلوب ، وتجلت تعاليمه
الفطرية على العالم الإنساني ، تفرض التفكير ، وتقبح التقليد ، وترفع
الحجر عن العقول .

* * *

مما أسلفنا تعلم مبلغ ما كان بين الفكر البشري ، وبين ملل الغرب ،
من الجدل العنيف ، والصراع الدائم في الأعصار العديدة ، حتى كاد ينتهي
النصر في العاقبة للعقل ، ويكتب الغلب لحرية الفكر .

وإنما قلنا (كاد) لأننا لا نزال نرى في بعض ممالك أوروبا ، بل وفي
أمريكا الجديدة ، أقواماً لا ينفكون ينصرون القديم ، ويفضّلون الجود
على ما كان عليه الأولون ، ولو عارض المشهودات العينية ، وناقض الحجج
المنطقية . وهل نسي أحد منا كيف عاملت في العام الفارط إحدى
جامعات أمريكا كبيراً من أساتذها ، لترويجه مذهب دارون ؛ يوم قامت
من حوله ضجة وعجة ، لم يخفت لها صوت ، حتى انتهت بفصله عن كرسيه
في تلك الجامعة .

حسبنا تلك النبذة الموجزة ، لتصوير ما كان عليه العقل البشري في

الغرب ، من الأزمات التي احتمل مالا يوصف من آلامها وشروطها
أدهارا طوالا في سبيل حريته واستقلاله . فالآن فلألم الإمامة خفيفة بما
كان عليه العقل في الشرق الأقصى في ذلك الوقت الذي انتعشت فيه الحركة
الفكرية ببلاد الإغريق ، أي فيما حول القرن الخامس قبل الميلاد فأقول :
بينما يقوم في الشرق الأردنّي أكسينوفانيس فيهاجم آلهة اليونان ممطرا
إياها وابلا من التهم والسخرية ، داعيا الناس إلى ترك عبادتها والزراية
بسخافاتها ، وبينما كان هيركليتوس وديموقريتوس يعالجان العقول البشرية
لتحريرها من أسر التقليد الجاهلي ، واجتذابها إلى حظيرة التفكير في
ملكوت السموات والأرض ، نجد في الطرف الآخر من الشرق مثل
تلك الحركة العقلية والنفسية ، تنبه الهمم الخاملة وتقتاد الشعوب الضالة
الجاهلة ، في سبيل التفكير والبحث عما فيه صلاح حياتهم الاجتماعية :
ففي الهند يظهر بوذا بتعاليمه ، وفي الصين يحارب قونفوشيوس ما كان في
قومه وحاكم عصره من التفاوت في الطبقات ، والنزوع إلى الفوضى
السياسية والاجتماعية ، ويهذب ما كان يرى في أمراء زمنه من القسوة
والغلظة والجور واستعباد الناس .

ومما يلاحظ هنا أن الشرقيين ، وإن اتحدا أو تقاربا في زمن نهوضهما
ذلك ، فقد تشابها في كنه تلك النهضة وطبيعتها ، إلا أنها كانت في الهند أشد
عناية بتهديب النفس ، وتطهيرها من أدران الأخلاق الفاسدة منها بغيرها من
الشؤون العامة المادية ، كما أن النهضة القنفوشوية في الصين كان هدفها وضع
النظم وتقرير الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية .

كما جاء رجال الدين في الشرق الأدنى والبلاد الغربية بما بسطنا سالفاً
من البدع والمظالم والمخارم والطقوس العبادية، والعقائد التي أرهقت
العباد، وأزهقت الأرواح، واستعادت استعباد العقول، وجعلت
القرون الوسطى شر القرون وأشتمها، كذلك فعل زملاؤهم في الصين
والهند وما حولها مثل ما فعلوا، فكان من حكمة العليم الحكيم، ورحمة
الرفيق الرحيم، أن يشرق على عباده وخلائقه الحائرين في ظلمات الضلالة،
الهائمين في أودية الجهالة، ليفك أغلال عقولهم، ويرفع منزلة نفوسهم،
ويكلمهم إلى وحيه المنقذ لا إلى تجاريهم العائرة، وأن يقيمهم مصارع المجالدات
والمصادمات التي فنيت فيها الملايين من طلاب الحرية والمساواة والعدل
من أصحاب الملل والنحل الأخرى.

شاء جلت حكمته ذلك، فكاتب أن يرسل القرآن بدين الفطرة،
ليحرر بأوامره التمدسية النفوس المغلولة، وينجي من معاشر الجهالة
العقول الضالة.

سترون فيما أقص عليكم كيف سار القرآن الكريم بالفكر البشري
في سبيل الحرية، وأين حل بالعقل من المنازل العلية. بيد أنه يجمل أن
نتهز هذه الفرصة لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من أنه إذا كان دين
القرآن هو دين الفطرة، وإذا كان مقياس صحة الأحكام في نظر القرآن
هو العقل والمنطق. فماذا عسى أن تكون فائدة الدين؟ ولماذا لا يترك
العقل البشري يجاهد وحده في سبيل الحق والحقائق، حتى يبلغهما، وينتقب

عن الخير والشر والنافع والضار، حتى يفقه كنهها، ويدرك حدودها، ويعلم ما بينها من الفوارق والمميزات؟

إلى أمثال هؤلاء نقول إن من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجارب إلى ما تصبو إليه النفس الإنسانية، من مراتب الكمال في الأحكام، والتصورات والنظم الاجتماعية، والمسائل العلمية والآداب الخلقية، ولكن في سبيل ذلك عتبتان لا بد من تسنمهما حتى تتحقق مثل تلك الأمنية: إحداهما عادية والأخرى طبيعية.

فأما الأولى فهي: ضرورة انسلاخ عدة من القرون في التجارب والأبحاث التي يقتضيها الوصول إلى ما تلمسه النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة للمصلحة.

وأما الثانية: فهي ناموس المشوء والارتقاء، أو التطور التدرجي الذي بالاعتماد عليه وحده في عالم المعقولات والمعنويات، لا يمكن أن يصل العقل البشري إلى مرحلة، حتى يكون قطع ما قبلها من المراحل.

على أن ثمة عوامل أخرى تكتنف سير العقل في أحكامه وأبحاثه، وكثيراً ما تقوم منها العواثر التي قلها ينجو معها من السقوط والزلل. وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية، والاضطرابات العصبية، التي لا يجهد أحد منا آثارها في شعب الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية. ومن المغالطة أن نبريء أنفسنا أو ندعى بلوغ الكمال في شيء من أفكارنا وأحكامنا وعواطفنا، مادنا نجمع بين جنوبنا نفوساً أماراً، إلى قلوب متقلبة، إلى شهوات مطاعة، إلى هوى متبع.

فالدين فيما أراد منزله جل شأنه ضروري لأصحاب تلك الأهواء المتقلبة
والنفوس الجاحمة .

لذلك ، وللسلوك بالناس أقصر طريق وأقومه وأسلمه ، يرسل الخالق
صفوة خلقه بالهدى ودين الحق رحمة بعباده أن نزل أقدامهم ، وتضل
أحلامهم ، وتفتنهم أهواؤهم ، وتضيع مئات السنين أو آلافها في البحث
عما تصبو إليه نفوسهم من العلم والحريّة والمساواة والعدل ، وسائر
الفضائل والكمالات .

* * *

جاء القرآن بدين الفطرة في كل شيء ، فطابقت قواعد أحكامه وأصول
آدابه وشرائعه ، مقتضيات الفطرة البشرية ، حتى لقد كان من أمهات أصوله
فيما هو خاضع لتأثير المؤثرات ، وعرضة لتعاقب التطورات ، أن يكون
العرف في كل أمة متميماً تقديرها ، ومن هنا كان لا بد أن تختلف المسائل
الفرعية باختلاف الأزمنة والأمكنة والعرف الخاص في الشعوب والأقوام
المختلفة ، وبذلك طابقت القرآن مطالب العقل ، غير متنكر لما فطرت
عليه طبيعته ، ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره في الحياة الاجتماعية
بجميع شعبها .

* * *

عرف القرآن أن الإنسان مفطور ، منذ بدأ إحساسه وشعوره ، على
البحث عن علل ما تدركه حواسه من الاحداث والكائنات ، فزاد تلك
الغريزة تنشيطاً وإنعاشاً ، وما انفك يقرع الجامدين على المنقولات ،

المحصورين في مضايق التقليد ، فلا يكاد يخلو له مقام من دعوة إلى تدبر وتفكير ، ولا تنفرد له مجادلة عن حجة يقيمها على الخصم ، أو برهان يحاكمه به إليه .

* * *

لم يكن من منافرات العقل أن يأتي القرآن فيدعو الناس إلى الإيمان بالرسول والأنبياء ، والأخذ بما كلفوا تبليغه من الأحكام والشرائع والآداب والفضائل ، فان ذلك للتدبر من مقتضيات العقل وطبيعته . ذلك أن العقل مفطور على الشعور بالحاجة إلى ما يدفع عادية الأفراد والجماعات بعضهم على بعض « ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض .. الخ » كذلك هو مسوق بغريزته إلى أن يضع أو يتمبل كل ما يرى فيه ضمانا لنظام الحياة الاجتماعية في العالم الانساني ، وبما أن عقل الإنسان معروض للإفلاس والزلزال في معالجة الشعب التشريعية والادبية والعلمية ، على ما بسطناه في محاضرة أخرى ، كان بطبيعة الحال ميالا إلى الطمأنينة ، والسكون إلى من يثق به ، وإلى قبول ما يكفيه عناء البحث والتنقيب ، ويقيه مخاطر المغامرات التي تستلزمها الظنون والتجارب ، شاخصاً إلى وحى ينزله المحيط بما عليه البشر من الفطر والغرائز والطباع ، العليم بما فيه صلاح شأنه واسعاد حياته ، وان حرص الإنسان بفطرته على التماس أقصى الطرق المؤدية الى ما ينشده من الرغائب والكمالات ، ليدفعه الى طلب القدرة التي تسكن اليها نفسه ، وتقبل ما يصدر عنها من الأقوال الحكيمة ، والنصائح القويمة ، وهذا هو سر اندفاع العامة ، بل وأكثر الخاصة ، الى الاعتقاد في أفراد من الناس يرجون

أن يبلغوا بهم منازل الكمال ، ويعيشوا بهديهم في سعادة وسلام من الأنبياء
والرسل ، ومن على قدمهم من الدعاة . وإنما طبع الانسان على ذلك لأنه
يكفه أن يتدرج في تعرف الفضائل وطلابها . تدرجا قد لا يدرك في غضبه
صواب أمره أو لا يضمن سلامة سبيله ، فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه
من شتى الأعمال والتصرفات والأحكام يمين بفطرته إلى الإصاخة والاستماع
إلى المبشرين والمنذرين من الدعاة عسى أن يجد فيما يدعو نه إليه ضالته المنشودة
التي يصبو اليها ، وقلها عرف لها اذا ترك هو وشأنه سيلا .

فالإنسان بفطرته السليمة وعقله الحر ، مدفوع الى الطمأنينة ، والاعتقاد
فيمن يسلك به سبيل السلامة ، من الخطأ والخطل والزلل ، حذر أن يفوت
عليه جهله وضلال فكره ومعوج سعيه بعض ما تصبو اليه نفسه من طيبات
الرغائب وجماليات المطائب ، وبمقتضى هذه الفطرة أقيمت المدارس وجمعيات
التبشيرية ورجال المذاهب الصوفية وانكب عليها الناس من جميع الطبقات ،
ومختلف الأسمان في سائر الأزمان .

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة الى انعاش العقل وتحرير الفكر
إلا تدرع بها ، فهو إذا تحاكم فإلى العقل ، وإذا حاجب فبحكم العقل ، وإذا
سخط فعلى معطلي العقل ، وإذا رضى فعن أولى العقل .

جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنحل ، والماديين والدهريين ،
فما قارعهم إلا بالبرهان ، ولا دعاهم إلا الى البحث والنظر ... من ذلك
آية « لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان
لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » . وكم من

آية قرع فيها أولئك الضالين لألغائهم عقولهم أو لاحتباسهم إياها على ما
وجدوا عليه أباؤهم، ولو جيئوا بأهدى منه كما في آية « وإذا قيل لهم اتبعوا
ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون
شيئاً ولا يهتدون » .

ومن الآيات التي هزمت أشياع التقليد، المعطلين لعقولهم في كل زمان
ومكان شر هزيمة، قوله تعالى في الآيات « ولا تقف ما ليس لك به علم . إن
السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » و « إن شر الدواب
عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » و « ومنهم من ينظر إليك أفأنت
تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » .

ولا تكاد تترك آية في المجادلات إلا وهي محتومة بمثل « بل أكثرهم
لا يعلمون » « قليلاً ما تذكرون » « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »
« أنى يؤفكون » « لو تشعرون » « أفلا يسمعون » « إنما يتذكر أولو
الالباب » وهلم جرّاً .

وقف القرآن الكريم في جميع مقاماته ، لدى ما اقتضته طبيعة الدين
الذى جاء به ، فإذا دعا إلى عقيدة ، أو ركن من أركان الدين ، تجافى عن
الالزامات التي لا تحبط بها العقول ولا تدركها الافهام . وكلها هم بتلقين
أصل من أصوله ، بدأ بالمقدمات النظرية، ثم ينتهى بالتحذير من جحودها
عناداً وكفراً وذلك كما يقول في آية « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى
من حي عن بينة » وآية « لكيلا يكون للناس على الله حجة »
ولم يكن منزل القرآن جلّت حكمته ، وهو خالق الإنسان ومالك

القلوب والأسماع والأبصار ، لم يكن في شيء مما أوحى من آياته إلا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه الحسنى التي منها العدل والحق والخير ، فهو الذي لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين ، ولكن مبشرين ومنذرين « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » « فهل على الرسول إلا البلاغ المبين » « أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين » « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادلوا الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » « ما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

إن أول ما بدأ به القرآن في التحاكم إلى العقل الإيمان بوجود الله ، فإن القرآن ، ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين ، كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاستدلال ، حتى أن منهم من لم يقبل الإيمان التقليدي بالله وإن أفتى الغزالي وأمثاله بقبول الإيمان التقليدي من العامة والدهماء الذين لا يستطيعون البحث والنظر إما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه ، فاكتمفوا من هؤلاء بالإيمان الثابت رحمة بهم ، ووقوفاً معهم عند مدى موسوعاتهم ، وإن كان تقليدياً لم يُسقم على شيء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظري .

فأما دعوة القرآن الكريم الناس إلى البحث والنظر والتحاكم معهم إلى التفكير والعقل ، فإنه لا يكاد يخلو منها سورة من السور ، واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هذا المقام ، فلنجتزئ هنا باقتباس شيء من هذا فيما يلي من الآيات :

١ - « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل

الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .
وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان
وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في
ذلك لآيات لقوم يعقلون .

٢ - « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما الله أنزل من السماء من ماء
فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح
والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »

٣ - « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ،
وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ،

٤ - « وفي أنفسكم أفلا تبصرون . »

٥ - « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

٦ - « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله

من شيء » .

لا يتسع هذا المقام لاستقصاء ما جاء من ذلك في القرآن الكريم ،
فلنكتف بما اقتبسناه هنا ، منتقلين إلى البحث في مسألة تخبط فيها كثير
من الباحثين . تلك هي : ما مصير من لم يقصر في النظر والبحث ، ولكنه
مع ذلك لم يستطع الوصول إلى العقيدة الحقة في الدين ؟

للعلماء في هذا المقام آراء مبسوسة في الكتب المختصة بها ، ولا يعنيني
هنا إلا أن أعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه ، فأستفتيها في حكم ذلك

التشريع من الناس ، إلا أنني قبل ذلك أسترعى أسماعكم نبي المسلمات
الأولية التالية :

(١) أنه ليس في استطاعة العقل البشري ، إذا قام له الدليل الصحيح
على حكم أن يرتاب فيه .

(٢) أنه ليس في متناول العقل البشري أن يقول بجواز صحة أمرين
متناقضين معاً .

(٣) إذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة ، كان من
المستحيل تكليف العقل أن يغلب عليه سواه .

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية ، وجاء كتابه السماوي
مصدقاً لها ، ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ، ولكنهم إن اختلفوا
بعض الشيء فيما عنّ لهم من الآراء ، تجدهم أجمعوا على قناعة أنه يجب أن
يؤول الى حكم العقل من الشرعيات ، ما ظاهره يخالف العقل .

وهل هذا إلا وقوف عند حدود المسلمات العقلية ، ونزول على حكم
الفطرة البشرية ، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والإرغام ؟ أم هل
كان لدين الفطرة ، دين البحث والنظر ، أن يكلف بالعقيدة من قصرت
عقولهم عن إدراكها ، أو من تراجمت عليهم الشكوك والشبهات ، حتى
عجزوا عن صدها ومدافعتها ؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين ، الذي قوِّض دعائم الإيمان بغير
المعقولات ، وأقام على أنقاضها عقيدة الإيمان اليقيني المتحصل من طريق
العقل والنظر ؟

إن الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم ، أو أن يلزمهم الإيمان بما لم يهدمهم إلى حجته وبرهانه . يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى : « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

إذاً فلنعد الآن إلى سرد بعض آي القرآن الكريم المناسبة لهذا المقام مكتفين منها بما يلي :

١ - « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » .

٢ - « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

٣ - « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » .

٤ - « إن عليك إلا البلاغ » .

٥ - « إنما أنت نذير » .

وخلاصة القول أن القرآن ، الذي هو كتاب دين الفطرة ، ما كان ليأتي بما ينافي الآراء القويمة ، أو تغم حكيمته على العقول السليمة ، ولم يكن ليكلف العقل الإيمان بما لا يعقل ، أو يحمّل الجسم ما لا طاقة له به ، أو أن يفترض على الإنسان ما ليس من موسوعات فطرته . إذاً فوظيفته في البشر رسم أقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلكة التي يغشاها طلاب الحق والحقيقة ، لا من طريق الوحي بل من طرائق

التجارب، ومصارعة شياطين الإنس من الحكام الجائرين، وعصابات رجال الدين المضللين . ولنا على ذلك ما نشاء من الأدلة والشواهد ، لننظر كيف ومتى صحت عزيمة الأمم الغربية إزاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار ، وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية ، أو أبيضت حرية التفكير والنشر ، وتقررت بينهم حقوق الإنسان ، سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبؤكم مبلغ ما أريق فيها من الدماء ، وأزهق في سبيلها من الأرواح . سلوها تصف لكم فواجعها وأهوالها ، وما أصاب الأمم من شرورها ونكباتها .

موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات

لست هنا في مقام المتعرض للبحث في أمر وجوب المعجزات وخوارق العادات إثباتاً أو نفيًا ، ولا أنا في مقام المعرف بكنهها المحصى لأنواعها وأقسامها ، فان شيئاً من ذلك ليس مما نقصد إليه هنا ، ولكن الغرض الذي نرمي إليه في بحثنا الحاضر هو موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات والخوارق . ذلك لنعلم هل يرى فيها القرآن ما رأته الأديان الأخرى من اعتبارها أسساً للعقائد الدينية ، وآيات قاطعة تكفي أن يعتمد عليها الرسل والأنبياء في فحam المتحدّين لهم من الأمم التي يرسلون إليها ؟ أم هل يرى في طبيعتها وقوة حجتها — مع دعوته إلى التعقل وحضّه على النظر والتدبر — ما يخرجها عن دوائر الأدلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج ؟

فلا يلتبس الأمر على حضراتكم ولا يغيبن عن أبصاركم هذا المقصد .

امتياز الإسلام من بين الأديان ، كما أسلفنا غير مرة ، بأنه دين الفطرة
والعقل ، كما امتاز رسوله من بين الرسل بأنه الرسول الفطري الذي أرسل
بالحق والهدى بشيراً ونذيراً . فميزان صحة هذا الشرع المنيف ، وقسطاطه
المستقيم ، هو أن جميع ما جاء به من الأحكام والمراسم ، وضرور المواظ
ونزاهة ، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليمة .
إذاً فما كان له أن يتأيد بما نيس من حدوده ، ولا أن يطابق ما ليس
على شاكلته .

كذلك جاء القرآن الكريم بهذا الدين ، دين العلم والحكمة ، دين البيان
والبرهان ، ولكن الأقسام الذين أنزن فيهم كانوا أهل جهالة وعناد ، وعباد
أهواء وشهوات ، جهلوا سر الإسلام وروحه ، فاستمسكوا بما استمسك
به آبائهم الأولون من طلاب المعجزات والخوارق . ولم يكن طالب تلك
المعجزات من الرسول ناجماً عن ترو وصدق رأى ، ولكنهم كانوا
يقترحونها إما عبثاً أو عناداً ، أو التزاماً لما أرضعتهم الجاهلية الأولى من
الضلالات والأباطيل ، وفقدان العلم ، « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله
أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد
بيننا الآيات لقوم يوقنون . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل
عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .
قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم
ما لك من الله من ولي ولا نصير . »

ظل النبي عليه الصلاة والسلام كلما طلبوا منه المعجزات يدعوهم إلى

العمل بمقتضيات الفطرة ، ويرشدكم إلى كنهه وظيفته النبوية ، وما هي سوى الهداية إلى السبيل القويم ، وإرشاد الناس قاطبة إلى ما فيه الخير والسلامة في معاشهم ومعادهم « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن اتبع إلا ما يوحى إلي . قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

رأى القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها الأولون بعد إذ ألحوا في طلبها ، وأجيبوا إليها ، فرأتها أبصارهم رأى العين . ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من إثبات رسالات الرسل كان من نتائج القرينة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع إلى نفوسهم الشك فيها بعد الإصرار على طلبها واللجاج في استنزالها ، فمنهم من يراها من أنواع السحر ، ومنهم من يكذب بها بغياً وعدوياً « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

ولو أن جهل أولئك الأقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدى ، لما أصروا على طلاب ما قد طلبه أسلافهم ملحقين ، ثم تولوا عنه بعد إذ جاءهم مدبرين مكذبين . ولكن كان ذلك منهم جهل عناد وإعنت ، ولهذا لم تقدمهم هدايات القرآن الكريم ، ولم تزدهم ببنايته إلا عتوا واستكباراً « وقالوا لن

نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل
وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا
أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في
السماء ولن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل سبحان ربي هل
كنت إلا بشراً رسولاً ، « ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه
بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

يقص علينا القرآن في غير موضع أنه طالما كذب المشركون وأهل
الكتاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمعنوا في اعناته وايدائه ،
ولجوا في زعمهم أنه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها . كما يقص علينا أنه لو كانت
المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله
بها رسوله ، ولأيدده بما لا يحيط به من الحصر من ضروبها . ولكن عليه
الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ، واستنكرونها أنفسهم
بغياً وعلوياً . ولهذا يبين لنا في صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى
أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التي لا تنافر فطرته ، ولا يقوى معاند
على معارضتها . تلك هي القرآن الكريم نفسه « أو لم يكفهم أنا نزلنا
عليك الكتاب يتلى عليهم . إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

والمتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد أن الرسول عليه السلام ما سئل
معجزة من المعجزات إلا تلتطف بطلابها وأرشدهم فيها إلى الأخذ بأسباب
العلم والهدى وسماهم تارة بالجاهلين ، وأخرى بالذين لا يعلمون . ولا ترى
في القرآن جميعه أن الرسول عليه السلام جرى أولئك الحمقى في سبيل

مطالبهم ، وجاءهم بشيء من المعجزات التي سألوها ، وقد جاء هذا صريحا في قوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتيننا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » قال ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية « يقول تعالى ذكره وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألتها قومك إلا أن من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوها مثل سوء آلهم ، فلما أتاهم ما سألوها منه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجيء الآيات فعوجلوا ، فلم نرسل الى قومك بالآيات لأننا لو أرسلنا بها اليهم فكذبوا بها سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم »

وما كان مبعث الاضراب عن إجابة مطالبهم والخافهم في سبيل المعجزات عجز الله تعالت قدرته عن تبديل شيء من ظواهره الكونية العادية . ولكن علم الله منهم ما علم من آباءهم الأولين ، لجأج في الطلب ، وجنوح عن التصديق ، وجهل بمكانة دين الفطرة ، وضلال عن ركنه المتين ، وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه !! قل إن الله قادر أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقد أسلفنا أنه لو كانت دلالة المعجزات الخارقة للعادة على الرسالة أو النبوة قطعية إقناعية ، لما أمعن المعاندون في تأويلها تارة وإنكارها أخرى ، وما قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فليسهو بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » إلا لبيان هذه الحقيقة . ذلك أن الخوارق للعادة ضروب شتى . فمنها ما يظهر على أيدي المصطفين الأخيار من أنبياء الله ورسله ، ومنها ما يظهر على أيدي غيرهم من السحرة والمشعوذة ، ومنها

ما يظهر على أيدي أرباب الرياضات الروحانية ، حتى من المجوس
والمشركين .

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس فيما يقارن دعوى
الرسالة من المعجزات التي يراد منها إقناع المدعوين الى صحة الرسالة، وإثبات
أن الرسل صادقون في دعواهم السفارة بين الله وبين خلائقه في تبليغ أحكامه
وآدابه ، ولا يكفي في التفرقة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التي تظهر
على أيدي غير الأنبياء أنهم مبعوثون من قبل الله الى خلائقه لتبليغهم
أحكامه وعظاته . فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم
الآيات بعد إذ يطلبونها من أنبيائهم ورسولهم ، فتارة يقولون هي سحر مبين ،
وأخرى ينكرونها معاندين .

فالإسلام فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الأديان
الأخرى بأنه دين اليقين والنظر ، لا دين خوارق العادات، وما وراء العقل
من الآيات . ذلك قوله تعالى « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . إنا أرسلناك
بالحق بشيراً ونذيراً » .

فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقتنع بها من شغلهم أو هامهم ووساوسهم ،
وتعطلت في حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم ، فسبحوا في لجج من
الوهم ، وحجبوا بعنادهم عن النظر والفهم ، ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون
أن الله لا يرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ، وأن معيار صحة رسالات
الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوي ، وضمن ذلك لسعادة الإنسان
في حياته الدنيا والأخرى .

ولقد بلغ حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على قومه حدّاً كان يكبر عليه فيه إعراضهم عن دعوته، وإصرارهم على مخالفته، والكفر بآياته حتى كأنما هو بلا مرأء مسئول عنهم، وحامل لأوزارهم . فأنزل الله في تسليته وإراحة نفسه من عناء الحزن عليهم وآلام الرحمة بهم قوله : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » . « إن عليك إلا البلاغ » . « إنما أنت نذير » .

ولكم شق على المصطفى صلى الله عليه وسلم انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات ، فكانت نفسه الشريفة تطمع آونة في أن ينزل الله شيئاً من آياته مجارة لأولئك الضالين المعاندين ، ولكن الله الذي أدب رسوله وأكمل عتملة أراه في آية : « وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تتبغى نفقاً في الأرض أو سهلاً في السماء فتأتيتهم بآية ولو شاء الله ل جعلهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » . أراه في هذه الآية الكريمة أن من الجهل مجارة الجاهلين ، وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه الإنسان .

وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد إذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق صدره بما كانوا يعرضون ، وأن يحزنه الذي يقولون ، أو مصيرهم الذي يوعدون ، فإنهم ما كانوا يكذبونه ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، فما عليه إذأ من حسابهم من شيء ، بعد إذ قام بما حملة من التبليغ المبين : « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » .

وهنا مبحث يجب أن نعجل الإلمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون

ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه لا إكراه في الدين، وأن الرسول غير مكلف بشيء سوى التبليغ المبين، والتذكير بآيات الذكر الحكيم « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ». وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم في قومه مقام الجبارين، فيقتلهم أو يحرقهم مجرد إعراضهم عن دينه بعد آية: « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ».

فالإسلام الذي هو دين الفطرة، ومجموع الحكالات القدسية، والآداب الإلهية، ليس بذلك الذي يتذرع اليه بالقسوة والغلظة، ويروج في العالم بالسيوف والنيران.

ومن الأوليات المسئلة أن العقائد لا تتكون في نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولكن لها وسائل معروفة لا تلمس إلا بها، فمنها البرهان العقلي، والخطابة والشعر والتقليد، ولكل من هذه الأنواع تأثير في نفوس الناس، بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل، وإنما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التي ورثها بمحض التقليد والافتداء، ولو كانت غير معقولة، ومنافرة للعقل السليم، وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث، وقولهم إن عيسى صلب ليفتدى أتباعه بدمه، وليكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم أبي البشر، وهكذا من العقائد الغير البينة.

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية إلى

عقيدته على جهله ، وعدم تحصيله وقصور عقله ، وما هي سوى قول تلقفه
من يشق به ، أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم .

وبالجملة ما كان للعقائد أن تتكون بالإرغام والقهر ، ولا للإسلام الذي
هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم
عن دركه ، أو تراحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها
ومدافعتها .

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهرة والقرآن الحكيم
أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اكتفى منهم في حقن دمائهم واحترام
حقوقهم بالجزية إذا أبوا الإسلام يدفعونها في سبيل حماية أرواحهم وأموالهم
واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم ، فهم إذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من
الحقوق ، وعليهم منها ما عليهم . وما خولف هذا الحكم في أرض جزيرة
العرب إلا لمقصد قد أتى على بيانه بيانا شافيا فيما يلي .

وحسبنا في ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من
جزيرة العرب حتى لا أرى إلا مسلما » وقد أجلاهم سيدنا عمر في خلافته ،
وأجل لمن قدم منهم تاجراً ثلاثة أيام . أما المشركين وأهل الكتاب في
غير أرض الجزيرة فقد علمنا أحكامهم ، أما أهل الردة الذين دانوا الله ،
والتزموا الإسلام ، ثم ارتدوا عنه - إما الى غيره من الأديان وإما للشبهات
وشكوك قامت بصدورهم فصدتهم عن البقاء على شيء من أصوله ، ويسمى
الفقهاء جميع هؤلاء المرتدين ويفتون فيهم بالقتل ، أما بعد الاستتابة أو

دونها على خلاف لهم في ذلك - أما هؤلاء فإن علينا ان نبين هنا رأينا
فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول :
إن ذكر الردة جاءنا في موضعين من القرآن الكريم ، ففي سورة
البقرة جاءت آية : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا .
ومن يردت منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا
والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وفي سورة المائدة جاء قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يردت منكم
عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على
الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وظاهر أن هاتين الآيتين لا تدلان على معاملة أهل الردة بما أفتى
الفقهاء من القتل مجرد الرجوع عن الدين ، وكل ما دلت عليه آية البقرة
- المذكورة آنفاً - أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى ، ومعنى الردة
هنا - على ما يظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة - أن معناها الارتداد عن
الدين ، أي الكف عن الجهاد في سبيله ، والارتداد عن منازلة الأعداء الذين
كانوا لا يفتأون يقاتلون الرسول وأتباعه ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم
كفاراً بعد إذ آمنوا .

يدلك على هذا التأويل ما جاء قبل ذلك من الآيات . قال تعالى : « كتب
عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى
أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن
الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به

والمسجد الحرام . واخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من
القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يروا دمكم عن دينكم إن استطاعوا »
يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت في قوم من المسلمين
كانوا يهمون بالكف عن القتال ، ويرغبون عن أن يدافعوا عن دينهم ،
وأن يبذلوا مهجهم وأرواحهم في نصرته وتأبيده ، بغضا للقتال ، وضنا
بالأرواح ، وما علموا لجهلهم أنه ليس وراء اخلاصهم إلى العدو وإعراضهم
عن صده سوى أن يستنذهم ذلك العدو ويتعبد لهم ، وأن الموت الذي
يفرون منه لا ريب ملاقيهم ، إلى ذلك يشير قوله تعالى : « وعسى أن
تكفروا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم »
ولو أن أولئك النمر أذركوا بسهولة ، ما وراء هاتين الكلمتين القدسيتين
من الحكم البالغة ، والمنافع العظيمة ، ما سألو بعد ذلك رسولهم عن القتال
في سبيل الله خلال الأشهر الحرم ، ولكن وهنت قلوبهم ، وتمكن حب
الحياة من نفوسهم ، وقصرت أبصارهم عن درك ما وراء ذلك من الخالد
والمسكنة الأبدية ، واستهانوا بأمر الفتنة في الدين ، فجنحوا إلى التسليم ،
وإخماد السيوف ، سائلين الرسول عليه الصلاة والسلام عن القتال خلال
الشهر الحرام ، كأنهم يريدون بذلك أن يجد لهم من تحريم هذا الشهر معذرة
عن القعود عن مقارعة الأعداء ، وحماية دين الله من الأذى والمكر السيئ
ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح إلى النزول
على حكم أعداء دينهم من المشركين وأهل الكتاب ، جاء في استنفارهم وحشهم
على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعد ذلك : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت

وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

ذلك حكم الله في المسلمين ، إذا ماقتنوا عن دينهم ، وقتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم ، وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوه ، ويرغب عن بذل روحه في سبيل حماية دينه وملته « إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون » .

فالردة في هذه الآية الكريمة ليست الفسوق عن العقائد الإسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين ، ولكنهم ارتدوا عن نصرته الإسلامية ، وتخلفهم بأنفسهم عن تأييده ، وحماية ذمارة ، بينما أعداؤه لا يفتأون يناوئونه ويكيدون له ، ولا يزالون يحاربون رسوله واتباعه .

وهذه الآية وإن لم تنص على قتل أولئك المرتدين ، فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفته أبو بكر وعمر من بعده ، وكيف نكلوا بهم إذ كفوا عن الدفاع عنه ، ثم انقلبوا خوارج عليه ، يحاربونه ويقتلون أهله تأييداً للمشركين من أقوامهم وتوهيناً لبنيانته ، بعد إذ ظهروا على عورات المسلمين ، ووقفوا على مواطن الضعف فيهم . ذكر صاحب الكشف : أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت عن الإسلام ، ثلاث في زمن الرسول عليه السلام ، وسبع في خلافة أبي بكر ، وواحدة في عهد عمر ، وقد كفى الله الإسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه وتنقيض أركانه . ذلك قولنا في آية البقرة . أما آية المائدة فإن المتدبر للآيات السابقة لها في القرآن الكريم ، يتبين أنها لا تكاد تخرج عن المعنى الذي نزلت فيه آية البقرة .

ذلك أن قرأنا من مناقبي المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزائمهم، فحجوا يخشون
أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم أعداؤهم من أهل الكتاب، هنالك
جعلوا يخالطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة،
يريدون بذلك أن يتخذوا لهم يداً عندهم، حتى إذا كان ما حسبوا وخشوا،
سلموا من بطشهم وأذاهم. وفي هؤلاء نزلت الآيات: «يا أيها الذين آمنوا
لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه
منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين. فتزى الذين في قلوبهم مرض يسارعون
فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده
فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين. ويقول الذين آمنوا أهدؤنا الذين
أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبيطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين» .
إتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المسلمين، ليكونوا لهم شفعاء
إذا كان ما خشوا وحسبوا، وأسرعوا خفية إلى الاندماج في سلك أهل
الكتاب لتوقعهم سرعة غلبهم وظفرهم بالنبي عليه الصلاة والسلام وأشياعه،
فكفوا بذلك عن نصرته وتأيدته ومظاهرتة على أعداء دينه من اليهود
والنصارى. ولولا أن الله تعالى أتى للمسلمين «بقوم يحبهم ويحبونه أذلة
على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة
لائم» لأصاب المسلمين من ذلك المكر السيء الذي بيته أولئك المنافقون،
ومن تخلفهم وارتدادهم، وتوليهم عمداً عن نصرته دين الإسلام ومناصرة
أهله، ما قد كان يمحوا آثار التوحيد، ويرفع منار الشرك في الأرض .
فالارتداد في آية المائدة - كما رأيت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها -

إنما أريد به تولى أولئك المرتدين عن نصره الإسلام ، والتخلف عن درء الأذى عن اخوانهم المسلمين ، تاركهم لغارات أعدائهم ، بعد إذ اتخذوا لدى هؤلاء من الأيادي مازعموا أنه وقاية لأسبابهم وعصمة لدمائهم إذا ما كتب لهم الغلب والظفر بالمسلمين

ومن الآيات التي جاءت في هذا الموضوع ، واختلف فيها أهل التأويل قوله تعالى : « فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سييلاً . ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلو قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سييلاً . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلها ردوا إلى الفتنه أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتهموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً »

أى ما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النفاق فئتين (١) والله ردهم إلى أحكام أهل الشرك المحاربين في إباحة دمائهم

نزلت هذه الآيات على رأى فيمن تخلفوا عن الحرب في واقعة أحد ، وانصرفوا إلى المدينة قائلين « لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » وهذا التأويل يلحق

(١) تفسير الطبرى جزء ٥ صفحة ١١٢ إلى ١١٨ مع بعض تصرف

هؤلاء المتخلفين بالفارين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية في كل زمان ومكان ودولة دماءهم . على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما: (١) من يصلون إلى قوم بينهم وبين المسلمين موادعة وميثاق وعهد . و(٢) من جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أى ضاقت عن الميل إلى مقاتلة المسلمين أو مقاتلة أقوامهم ، فلم يجعل الله بذلك سيلا للمؤمنين على أنفس هؤلاء وأموالهم وذراريهم ونساءهم .

وقال آخرون : بل كان اختلاف المؤمنين في قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الاسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم ، فقالوا إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس .

فأصحاب هذا التأويل على ما وصفنا يرون أن الآيات الكريمة نزلت في منافقين غير مسلمين ولكنهم خونة غدارون

والقول السديد الذي ارتضاه الطبرى في تفسيره ، وهو الذى أراه ، أنها نزلت في قوم من أهل مكة لا المدينة ارتدوا بعد إسلامهم فكانوا حربا على المسلمين مع قومهم ويؤيده قوله تعالى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا » فان الهجرة لم تكن فرضاً على أهل المدينة ومع ذلك فهى مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين في قوله : « إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ... فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلا »

ومن هنا يتبين أنه لا علاقة لهذه الآية بمسألة الارتداد عن الاسلام لمجرد شبهة لم يستطع ردها ، وفكرة عجز صاحبها عن دفعها

وكذلك يكون القول في الآيات الكريمة: (١) « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » على أن الطبرى وغيره يقولون بأن هذه الآيات فيما تختص بمشركى جزيرة العرب قد نسخت هي وما قبلها بآية « فاذا انسلك الشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة نفلوا سيلهم » وكذلك بآية « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر » إذ جعل الله لهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض ، أى أرض الجزيرة ، وأبطل ما كان قبل ذلك من أحكام بالنسبة لهم ذلك ما جاء فى القرآن الكريم ، فلننتقل بكم إلى ما ورد فى السنة فى هذا الباب ، فنقول :

إن الأحاديث التى وردت فى هذا الباب كثيرة ، وجلها من الآثار المروية عن عمر أمير المؤمنين ، وعلى بن أبى طالب ، وابن عباس رضى الله عنهم . أما ما عزى إلى الرسول عليه السلام فى ذلك وصح سنده ، فقليل جداً ، ومنه أن قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل المرتدين المحاربيين .

روى فى ذلك البخارى حديث النفر من عكل ، إذ قدموا على الرسول عليه السلام ، فأسلموا فاجتووا المدينة ، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة

(١) سورة الممتحنة .

فيشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فضجوا فارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا
الإبل ، فبعث في آثارهم ، فأنى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ،
ثم لم يحسمهم حتى ماتوا

وورد هذا الحديث لغير البخارى مع بعض تغيير زهيد .

ولا مرأ أن ذلك الحديث صحيح السند والمتن ، ولكن ذلك النفر
من عكل ، فضلا عن ردتهم ، كانوا من أولئك الخائنين المحاربين ، الذين يسعون
في الأرض فساداً ، المنطبق عليهم آية : « إنما جزاء الذين يحاربون الله
ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم
وأرجلهم من خلاف أو يذبحوا من الأرض »

فلم يكن منشأ ما فعل الرسول (ص) لهم طروء شبهة فهم أو هنت فيهم
عقيدة الإسلام ، أو حجة أرتهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الأوثان ، ولكن
لما رأينا من إرتدادهم إلى محاربة المسلمين وإيذائهم ومحاولة اللحاق بأقوامهم
لمناصرتهم ومؤازرتهم ، فهم خائنون ومحاربون وساعون بالفساد في الأرض
تنطق بذلك كله عبارات الحديث المروى آنفا عن البخارى في شأنهم .

أما غير المحاربين من المرتدين ، فللعلماء كلام طويل في جزائهم ،
فالجمهور من الفقهاء يقولون بقتل المرتد والمرتدة ، عملاً بعموم حديث (من
بدل دينه فاقتلوه) . وخصه الحنفية بالذكر وتمسكوا بنهى الرسول عن
قتل الأنث . وأما جميع ما ورد من الأحاديث في قتل الرسول لبعض
النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة . بل لقد قال ابن الطلاع في الأحكام (١)
إنه لم ينقل عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قتل مرتدة .

(١) فتح البارى — جزء ٢١ صفحة ٦٣٦

وجمهور الفقهاء ، وإن قالوا بقتل المرتد ، اختلفوا في أمر استتابته قبل
القتل ، فمنهم من أوجب أن يستتاب أولاً فإن لم يتب قتل ، وذهب الحسن
وطاوس وأهل الظاهر وكثير غيرهم إلى القتل في الحال . قال الشوكاني في
نيل الأوطار ، وعليه يدل تصرف البخاري ، فإنه استظهر بالآيات التي
لا ذكر فيها للاستتابة والتي فيها أن التوبة لا تنفع ، وبعموم قوله (من بدل
دينه فاقتلوه) . ويرى النخعي أن المرتد يستتاب أولاً (أي فلا يقتل) .
تلك أقوالهم في هذا الباب ، ولهم تفصيلات كثيرة لاحاجة إلى استيعابها ،
والذي نراه في ذلك قد يخالف ما قالوه من وجوه ، ولكن لا حرج علينا
فيما نرجو ما دام عمدتنا في ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرسول
عليه السلام .

وخلاصة رأينا في ذلك أن القرآن الكريم لم ينص في آية ما على قتل
المرتدين عن دين الإسلام إلى دين آخر على النحو الذي شرحناه في تفسير
آيتي الإرتداد السابقتي الذكر . وأما الآيات التي سردها البخاري (١)
واستدل بها على وجوب قتل المرتد فوراً ، فليس شيء منها فيما نرى جاء نصاً
في القول بالقتل ، ولا في بيان حدود الردة وكنهها والتعريف بها ، ولقد
نستوفي الكلام فيها بعد بما لا غبار عليه ، بيد أنه يجمل بالباحث أن
يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع في هذا الباب .
أولاً - إن القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذي يريده
الفقهاء يقتل .

(١) الجزء الثاني عشر من فتح الباري صفحة ٢٣٦

ثانيا - إن لبده ظهور الإسلام من الأحكام ما ليس لغيره . ذلك ان المرتدين عن الإسلام يوم بدأ رسولنا الأكرم الدعوة إلى التوحيد كانوا يعودون الى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية ، وكانوا إذ ذاك لا جرم يلحقون بأقوامهم ويحاربون المسلمين في صفوفهم أو يظهر ونهم على عوراتهم ، فارتداد من كانوا يرتدون إذ ذاك عن الإسلام لم يكن مجرد الخروج عن هذا الدين ، ولكن كان دائما مشفوعا بمظاهرة من يلحقون بهم من أقوامهم .

والمستقرىء لأحاديث الباب لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا ، فمعاملة رسولنا الأكرم وخلفائه من بعده للمرتدين ، تلك المعاملة كانت فيما نرى لأنهم يتقبلون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين . وإننا لنرى اليوم أن الفار من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائنا ويتمتله من فوره ، ولو لم يرتد عن دينه، فما بالناس لا ندرك سر قتل الرسول وخلفائه للمرتدين عن الإسلام الذين إن لم يتمتوا اشتدت بهم الفتنة وظاهر قومهم على المسامين ، وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء ، ودلوهم على مواطن الوهن فيهم .

ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ويكفرون آخره لعلمهم يرجعون ، فالمرتدون في صدر الإسلام كانوا في الغالب ممن دخلوا في الإسلام نفاقا ، وخرجوا منه للفتنة وكشف الأسرار .
ثالثا - إن الردة التي جاءت في آيات البقرة والمائدة وغيرها كانت - كما علمنا - ارتدادا عن نصرته المسلمين ، والاشترك معهم في محاربة أهل الكتاب ،

لما كانوا يخشونه من ظهورهؤلاء على المسلمين، وظفرهم بهم يوماً ما، فأرادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من الأيادي ما يحقنون به دماءهم ويعصمون أرواحهم .

رابعاً - إن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا كيف نتصرف في الحوادث، ونقف عند حدود مقتضيات الأحوال . ولنا من سيرته السامية واعماله الحكيمة آلاف من الأدلة والآيات، واكننا ابتلينا بالجمود، وضعفنا عن ادراك أسرار سيرته ودينه الفطري، ووقفنا عند حدود الألفاظ، وأخذنا نتقيد ببعض الروايات . ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الإلهي ما يرشدنا الى أيسر السبل وأقومها لو كنا نعقل . ولنضرب لك أيها المتدبر المفكر في ذلك بعض الآيات والشواهد .

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الإسلام ، وهم على ما نعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين ، فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالأقوام رويدا رويدا ، كما كان يلين لهم من جانبيه ، ويتساهل في مطالبهم ، تأليفاً لتلوبهم واستمالة لهم الى التوحيد . ومن ذلك ما روى عن نصر بن الليث عن رجل منهم ، أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم على أن يصلي صلاتين لا (خمساً) فقبل منه ، رواه الإمام أحمد (١) وفي لفظ آخر له على ألا يصلي إلا صلاة فقبل . وعن وهب قال : سألت جابرا عن شأن ثقيف إذ بايعت فقال : اشترطت على النبي ألا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون » رواه أبو داود .

(١) نيل الأوطار جزء ٧

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : إسلم . قال :
أجرتني كارها . قال : إسلم وإن كنت كارها ، رواه أحمد . قال الشوكاني -
بعد أن سرد هذه الأحاديث - فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول
الإسلام منه ، وإن شرط شرطاً باطلاً ، وأنه يصح إسلام من كان كافراً .
فعل ذلك الرسول الكريم ، لما يعلمه من أن من المنفرات تكليف
المدعو جميع أحكام الله في آن واحد ، وأنه لا حرج أن يشترط المدعو
ما شاء من الشرائط ، ولو باطلة ، فإن دخوله في الإسلام على أى وجه
جدير أن يوجد في نفسه من الميل للإسلام والعطف على إخوانه المسلمين
ما يدفعه لاجرم إلى بذل ما ضمن به و تنقض ما قدم في بيعته من الشرائط .
ينبىء بذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حديث جابر المذكور آنفاً .
(سيتصدقون ويجاهدون) .

فانظر كيف فعل ذلك الرسول الحكيم ، فراعى مقتضيات الأحوال ،
وأتى بما هو الأصلح للإسلام والمسلمين .

وناهيك بما فعله في صلح الحديبية ، من قبوله شروط قريش الأربع ،
ورضاه أن يرد إلى المشركين من يحييه منهم مسلماً ، على ألا يردوا هم من فر
إليهم من المسلمين . فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فيه من
الأسرار والحكم البالغة ، مما لم يفقهه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة
إلا بعد أمد غير قصير .

لقد كان الإسلام يوم بدا غريباً ضعيفاً ، فكان لا بد من اتخاذ كل
ما يمكن من ضروب التحولات والشدة ، حتى يشتد ويقوى ، ويسلم مما كان

يراد به من الفتنة والأذى . ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم ، أن يقيم
الرسول الكريم عليه السلام : في ذلك من الأحكام ما يضمن سلامة
الإسلام ، فلما أيد الله دينه ورفع منار كلمته ، كان لا بد أن تكون هناك
أحكام أخرى تناسب ما صار إليه المسلمون من القوة والمنعة ، وما أصبح
فيه الإسلام من السلامة والأمان ، من ذلك ما رواه البخاري بسنده (١)
عن ابن عمر أن رجلاً جاءه ، فتمال : يا أبا عبد الله ألا تصنع ما ذكر الله في
كتابه « وان طائفتان من المؤمنين اقاتلوا فأصلحوا بينهما » (الآية)
فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخي ! أعير
بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بآية « ومن يقتل مؤمناً متعمداً
فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . قال فإن الله يقول « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة »
قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ كان
الإسلام ضعيفاً ، وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه .
حتى كثر الإسلام ، فلم تكن فتنة .

فانظر كيف كان عبد الله يفسر الفتنة ، ويفرق في الأحكام بين عهد
الإسلام بالقلّة والضعف ، وما صار إليه لعهد من العزة والمنعة . ولعل
ما ذكرناه هنا هو سر قول الإمام النخعي ، بأن المرتد يستتاب أبداً ولا
يقتل . ذلك أن الإسلام على عهده ما كان لتضره ردة المرتدين ، بعد إذ
أصبح في مأمن من أن تؤذيه مكاييد المشركين ، ومن يرتدون اليهم من
متأفقي المسلمين .

(١) تفسير ابن كثير جزء ٤ صفحة ٣١٦

ولو كان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) ، الذى رواه البخارى وغيره
من أئمة الحديث عامة، على نصيبته غير مختص بزمان ولا معقود بمقتضيات
غير مطردة ، ما وسع النخعي ولا غيره مخالفته .

وإذ مهدنا أمامك السبيل ، بتلك المقدمات التى أسلفنا ، فاعلم أن الذى
نراه ، أن المرتد إما أن يرتد عن دينه ، فلا ينضم الى المدافعين عنه من
المسلمين ، ولا يقف منهم موقف المسلم غير الخائن ، كما كان يفعل أولئك
الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة، فهذا لا جرم يقتل . وأصرح ما نزل
فى قوله تعالى: «ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كما
ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ، فإن لم يعزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا
أيديهم، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً
مبيناً» .

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون ، كما سبق فى حديث النفر من
عكل . ولا ريب أن المرتدين فى هذين القسمين منافق خائن أو محارب ،
فلا بد أن يقتل من فوره .

وكذلك تفعل المالك جميعها فى الوقت الحاضر ، مع أمثال هؤلاء من
أفراد شعوبهم ورعاياهم .

ويلحق بهذا النوع الزنادقة ، الذين كانوا على عهد على بن أبى طالب
رضى الله عنه . فقد روى من طريق عبد الله بن شريك العامرى عن أبيه ،
قوله لعلى : « إن هنا قوما على باب المسجد يدعون أنك ربهم ، فدعاهم
فقال لهم : ويلكم ما تقولون ؟ قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ! فقال :

ويليكم إنما أنا عبد مثلكم ، آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ،
إن أطعت الله أثابني إن شاء ، وإن عصيته خشيت أن يعذبني ، فاتقوا الله
وارجعوا ؛ فأبوا ، فلما كان الغد غدوا عليه ، فجاء قنبر ، فقال : قد والله رجعوا
يقولون ذلك الكلام ، فقال أدخلهم ، فقالوا كذلك ، فلما كان الثالث ، قال :
فإن قلت ذلك لأقتلنكم بأبجث قتلة ، فأبوا إلا ذلك ، فقال : يا قنبر أعنى بفعلت
معهم فخذ لهم أخذوداً بين باب المسجد والقصر ، وقال احفروا وابعدوا
في الأرض ، وجاء بالخطب فطرحه بالنار في الأخدود ، وقال اني طارحكم
فيها أو ترجعوا ، فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها .

وكان يقال لهذه الطائفة سبئية ، نسبة الى كبيرهم عبدالله بن سبأ ، كان
أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة . وإنما ألحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين
قبلهم لأنهم ظهروا والإسلام غض حديث العهد بالوجود كثير الأعداء
والمحاربين .

فلو أن على بن أبي طالب ، ابن عم الرسول وخنته ، وأصل العترة النبوية ،
أبقى عليهم ، أو خفف العقوبة عنهم ، لامتحت آيات التوحيد عن ظهر
الأرض ، ولما وجد في العالم أحد من المسلمين ، وليكان للناس من على بن
أبي طالب ، ما كان لليهود من عزيز .

أما أمثال هذه الفرق اليوم ، وقد اشتد ساعد الإسلام ، وقويت شوكته
وتبينت للناس حقائقه وأصوله ، فلا خوف عليه منهم ، ولو كثرت جموعهم
وعظم سلطانهم ، اللهم إلا إذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل أو
السجن أو التنكيل ، فهناك يحق على المسلمين مناهضتهم وتقتيلهم أينما ثقفوهم .

وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الإسلام ، ولم يخرجوا عليه ، ولم ينضموا الى صفوف أعدائه ، ولم يخونوه في شيء ، ولكن أضلّتهم بعض الشبهات ، التي لم يستطيعوا لها رداً ، والشكوك التي لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان ، فإن سيئهم فيما نرى ألا يعتبروا كالمتردين ، ماداموا لم يهتدوا الى الصواب ، ولم يقم من أهل الذكر والعلم من يبين لهم فيها الرشد من الغي .

والله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم ، أو أن يلزمهم الأيمان بما لم يهدم وجه الصواب فيه . يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ، فإن الرسل قد بعثهم الله لخليقته وكلفهم البلاغ المبين ، إذا فلا تكليف إلا حيث البلاغ المبين . فإذا ابتلى العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين ، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور النابتين من المسلمين ، فكيف يؤاخذون إذا ضلت أحلامهم بعد إذ فقدوا أركان الإسلام ، وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدرأوا الشبهات ، ويهدوا الهائمين في أودية الضلالات .

أقول ذلك بعد إذ رأيت من الشبان المسلمين ، من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء ، ويغشون مجالس أئمة الإسلام ، لا لغرض سوى استفتائهم في بعض أصول الإسلام ، والفرار الى معادل علمهم وهدايتهم ، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والأوهام ، حتى إذا استفتحو عليهم بكلمة واحدة في ذلك ، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريرهم ، ما كان يصد أولئك الحائرين عن مجالسهم ، وقد تنازعهم ضلالات الحيرة ، ودفعتهم

معاملة الشيوخ الى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم .
ونحن على ثقة أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية ، وعرفوا
أسرار سنّة الله في خليقته ، لما كثرت الملاحدة وفشت المناكير ، فكيف
لنا مع جمود المتصدّين للفتيا والإرشاد ، وكيف لنا أن نؤاخذ النشء
الصغار وغيرهم ، ممن لم يستوعبوا أصول الدين ، ولم يهتدوا الى صواب
اليقين ، وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قبل لهم به من غارات الشكوك
والشبهات .

بلى لقد تعرض لنفس المسلم شبهة ، لا يستطيع دفعها ، على حين لم
يقصر في التنقيب عن وجه الصواب والحق فيها ، فهل هناك دين غير
الإسلام ، يحكم بنجاة هذه النفس الحائرة ، ويقول ما قال القرآن :
« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » .
« لا اكره في الدين » ؟ أفلم يعتبر القرآن التفكير في ملكوت الله من
كبريات العبادات ، يزدلف بها الى الله ؟ أو لم يقل رسوله صلى الله عليه
وسلم : « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » الى نحو ذلك مما علم المسلمين ، أن
من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الإنسان على معرفة حكم الله في
خلائقه ، وإدراك البدائع من صنعته ، ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة
وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس وأشباهاها ؟ أليس ذلك يخول المسلم ، متى
أحسن النية ، أن تكون أكثر أيام تحصيله للعلم ، واعماله للتفكير عبادة لله
تعالى وتعرفا اليه ، بما يفهم من بدائع آثاره ، وما يدرك من دقائق صنعته ؟
إذا فالإنسان في نظر القرآن كلما ازداد علما وبحثا ، ازداد من حظيرة الله
تعالى اقتزابا وحظا .

مقام القرآن الحكيم ازاء العلوم والمعارف الكونية

كثيراً ما نسمع من خطبائنا العصريين ، ونقرأ في صحائفنا ومجلاتنا الحديثة ، ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين في حرب قائمة دأمة ، لا يستقر لها صلح ، ولا تتخللها مهادنة .

يلهج بذلك أشباه المحصلين ، وتلاميذ آثار الغربيين ، ممن يطرون لكل هيعة ، ويفتنون بكل بدعة ، ولو كبات عقولهم بأغلال التقليد ، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير .

ليت شعري أفما كان الأجدر بمن منحوا فطرة الإنسان ، ورفعوا عن مراتب العجم من الحيوان ، أن يتساموا بعقولهم ويتحاكموا إلى بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات ؟ بلى ، ولكنهم أبوا الا أن يجمدوا على الثقة بالمباحث والأقوال الغربية دون سبر لأغوارها ولا تفكر في مبلغها من الصدق ، وما يتبع أكثرهم في ذلك إلا الظن وما تهوى الأنفس . وليت هؤلاء يكتفون بخزي الجود أمام الحديث فيقفوا ازاءه سلبين صامتين لا يبدون حراكاً ولا ينتحلون فهماً ، بل نراهم على ضلالهم الكشيف وجهلهم الفاحش يملأون الفضاء بالدعاوى الجوفاء ، ويدعون لأنفسهم علوم الأرض والسماء ثم لا ينفكون يتدفون مع ذلك برجوم تهكمهم وسخريتهم قديم المأثورات ويغضون أبصارهم حتى عن آياتها البينات .

جهل ذلك الرهط من المتفهمين تاريخ الأمم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التي تعاقبت فيهم ، جهلوا ما انبعثت عنه أحكامهم وأقوالهم في

مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية، جهلوا جميع ذلك، كما جهلوا
اللباب من أمر دينهم، وبيضض الصحائف من تاريخ أسلافهم، وليتهم مع ذلك
الجهل المؤكد أنصنوا الطائفتين، فسوّوا بينهما حباً أو كرهاً، وانتظموهما في
سلك واحد من المعاملة الحرة، البريئة من شوائب التحيز، ولكننا نجدهم إذا
عرض لهم شيء ليس بغربي لوّوا رؤوسهم وثنوا أعطافهم، وقالوا في عنجهية
شوهاء ونعرة حمقاء: «لا حاجة لنا بما لم يصدر عن أوروبا، ولا نولى ثقنتنا
من لم يرد منا هلهلها ولم يتخرج على أسانديتها»

وإنه لحسب أحدهم إذا ماشئت إقناعه أن تقول له «بذلك يقول المستر
فلان الانجليزى، أو المسيو فلان الفرنسى، أو الهر فلان الألماني». فليكفينك
هذا وحده مشقة التمدليل وتوفير البراهين، وليسلسن لك مجرد ذلك ماشئت
من أعنة كل عصي شمس

ولو أن أسارى التقليد ممن تصدروا لزعامه الحركة الفكرية والنهضة
العلمية، كانوا طلقاء العقول، أحرار التفكير، لما ابتاعوا من محصول العقول
الغربية إلا ما أمنوا غشه، واستوثقوا من نقاء معدنه، وكال صلاحه بعد إذ
عرضوه على محك الاختبار، وناقشوا أصحابه دقيق الحساب، وميزوا ما فيه من
النافع والضار، ذلك كيلا يقبلوا قولاً ولا يرفضوا رأياً إلا وأفتدتهم مطمئنة
وأقدامهم ثابتة، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ولكنها
فيما نرى نوبات عصبية، وغضبات جاهلية، ملكت أعنة قلوبهم، ولعبت بموازن
أفهامهم، فأطلقت الستتهم بالأراجيف، وسولت لهم كل زأى سخيف.

زعموا فيما رويناهم أنفامعاداة الدين للعلم، وأنه لا يجوز أن يقف الدين
في سبيل الرقي العلمى مهديه بأنه إذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة
المنكرة مصيره المؤكد .

كذلك يقولون أيضا فيما يرجفون إنه لا بد من فصل الدولة عن الدين
وإن حرية الفكر الانسانى تستلزم انقلابه مادياً طليقاً لا يتقيد بشيء من
قيود الأديان .

هذه هى الدعائم التى يقيم عليها أولئك الحائرون والأباحيون فى هذه
البلاد وأشباهاها صروح نهضتهم ومعاقل دعوتهم

ولقد بينا مبلغ ضلال أحلامهم فى تلك المقالات ، وخيبة ما بيتوا من
الكيد السيء لأهل القرآن، كما أوضحنا فى أكثر مقاماتنا أنه لو كان لذلك الجيش
المفتون من الزارين والمستخفين والطاعنين ، لو كان لهم علم بأصول القرآن
ووقوف على ما يمكن للعقل والوجدان ، والقول من قواعد الحرية الصادقة
فى سائر شعب الحياة ، لما زلت لهم قدم فى مزلق التقليد، ولفقهوا جلال ذلك
الكتاب الذى يقول : «ولا تقف ما ليس لك به علم» والذى يقول : «فاسألوا
اهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»

سيقتادنا التعرض لتحليل هذه القالات ومناقشتها، والرجوع بها إلى
الأسباب التى انبعثت عنها لدى الأمم الغربية، والعلل التى بررت رواجها فيهم
وبقاءها بينهم ، سيقتادنا تفصيل ذلك كله إلى الخروج بعيداً عن دائرة
الموضوع، فكان لزاماً أن نقصر القول هنا على ما سيكشفكم أولئك المستهزئين
وما سيريكم أن أولئك الأدعياء ما كانوا فيما فعلوا إلا كالشعراء يتبعهم

الغاوون، ألم تروا أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم عن العلم الصحيح محرومون.

* * *

معلوم أن الحكمة في ظهور الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إنما هو دعوة أممهم الضالة إلى إصلاح ما فسد من أمرها، ومعالجة ما مرض من أخلاقها، وكبح ما جمح من أهوائها وشهواتها.

ولقد جاء أكثر الأنبياء والمرسلين برسالات خاصة، كما جاء بعضهم لمعالجة أمراض معينة في أقوامهم، جلتها فيما يحدثنا القصص الاجتماعي وخلقى، ولم يكن في موسوعات رسالات أكثرهم البحث في العلوم الكونية والظواهر الطبيعية، بل ولا النظم والقوانين المدنية.

وإذا كانت رسالات أكثر الأنبياء انقطعت بانقطاعهم، ودرست معالمها بفنائهم، حتى لم يبق سبيل إلى ضبط ما جاء منها، ضبط إحصاء واستيعاب، فإن لنا أن نستأنس بتاريخ رسالة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، فإنها مرآة غيرها من سائر الرسالات التي سبقتها.

ظهر المسيح عليه السلام في جزء من المملكة الرومانية ذات القوانين المدنية والديتاتير السياسية، بيد أنه ظهر في أمة اليهود، بعد إذ انصرفوا إلى عبادة أحبارهم، وتقطعت فيهم أوامر الأرحام، وتفسخت الاخلاق عن النفوس، وتفشيت المنكرات، واعوز الناس الرحمة والحنان. حتى لم يكذب يبق لهم في الحياة من مطلب سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية.

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف الدنيا، وتزهيدهم في باطل متاعها، وعند ما ضرب لهم الأمثال

والقصص ، ليقوم الحرب على الشهوات والماديات التي كانت مالكة لأعنة
قلوبهم ، ومضلة لعقولهم ونفوسهم .

ولقد كان من تعاليم أولئك الأنبياء والمرسلين ، ومن حذا حذوهم من
المصلحين ما جاء عقوبة لأثمهم المتفحشة زجراً لهم عن رجس الشهوات التي
عكفوا على مرضاتها ، وأسلبوا متاليدهم لها ، حتى أنستهم أنفسهم ، وهبطت بهم
إلى مراتب سائر الحيوان الأعمى . فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من
الحض على الرهبانية ، والترغيب في الخصاء ، والحث على افناء القوى العقلية
والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالترحج عن أكثر مطالب الحياة . وما
كانت أمثال هذه التعاليم في سبيل المصلحة العامة العمرانية ، ولا مقصودة
لغير من نزلت فيهم من أشرار الناس وعبيدة الشهوات ، وإلا فهي منقصة
للنسل ، مذهبة للعمران ، سبيل إلى الخراب والزوال . ولذلك يمكن القول
بأن رسالات السيد المسيح ، وأكثر من تقدمه من الأنبياء والرسل الكرام
عليهم الصلاة والسلام ، كانت في جوهرها قاصرة على قسم الجهاد النفسى ،
والتربية الخلقية ، كما أنها جاءت لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر
بلغت في شدتها وفداحتها مثل الذى بلغه هؤلاء من الفساد والفجور .

ومع ذلك لم يكفد المسيح وكثير غيره يأتون الناس فى الأخلاق بدساتير
تبين الخير من الشر ، وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون ، بل لم يكادوا
يأتون بشيء كبير فى باب العقائد الالهية . أفلا نذكر كيف استأثر رجال
الدين بعد السيد المسيح بالأمر ، وكيف اختصوا أنفسهم بتقرير العقائد
وموسوعات الوجدان الإنسانى ، وكيف وضعوا (طقوس) العبادات ، وحرموا

على الناس حق تفسير كتب العهدين ، كما حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة ، ولو كان من غير المعقولات ، إلى أشباه ذلك مما ضجت الأمم النصرانية من هوله ، وثارَت للتخلص منه ثوراتها الدموية التاريخية ، سياسية كانت أو دينية .

لم نر فيما سجل لنا تاريخ الأديان السماوية ، ديناً تجاوز تلك الحدود التي وصفنا ، فتناول شيئاً من الشرائع المدنية أو علماً بالشئون الكونية سوى دين موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وذلك وإن يكن فيما يخيل إلينا خروجاً عن الحدود العادية للرسالات السماوية ، إلا أنه لمن تدبره لم ينزل به الروح الأمين عبثاً ، ولم يرسله الحكيم العليم إعتباطاً ولا فضولاً ، ولكن كان فيمن بعث إليهم هذان الرسولان الكريمان ، من الشئون والأطوار ما اقتضى أن يمدّا من قبل القوى العزيز بما لا بد منه في مصارعة أفكارهم الضالة ، وهداية عقولهم الهائمة ، وإصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة . كان بنو إسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقائد والعلوم والعبادات المصرية ، فكانوا يعبدون الأوثان والصور ، ويعلمون من العلوم الكونية ما كان معروفاً بين الناس في هذه الديار ، فلما خرجوا إلى سيناء ، ولم يكفهم تأديباً ولا عقاباً ما لاقوه في التيه من صنوف العذاب والشدة ، جاءهم موسى ، بعد مناجاة الطور ، بالألواح يدعوهم فيها إلى توحيد الله ، والنهي عن عبادة غيره ، ويحرم عليهم أن يشركوا به شيئاً . ولقد كان لا بد أن يأتيتهم بشيء من العلوم الكونية ، لما كان لهم من الإمام بها والوقوف على تنف من غيها وثمينها وفاسدها وصحيحها ، فإذا جاءهم بسفر التكوين فإنما

ذلك لتبديد ما تراحم في صدورهم من الضلالات والخرافات المصرية
والكبريتية التي أبعدهم عن العلوم بقيوم الأرض والسموات ، وسولت
لهم عبادة الصور والأوثان ، وما في الفضاء من الثوابت والسيارات . وإذا
جاءهم موسى مع هذا بشيء من الشرائع والأحكام التعاملية ، فإنما جاءهم
بما كان ضروريا لهم في تديير وسياسة أرض كنعان ، التي كتب الله لهم .
ولو أن موسى عليه السلام عاش حتى ظهر قومه على الكنعانيين ، واندمج
في نطاق ملكهم ما شمله بعد موته حكم يوشع وداود وسليمان ، لكان في
توراته اليوم من الأحكام التعاملية والتعاليم السياسية الشيء الكثير .

وهل كان في استطاعة موسى عليه السلام ، لولا ما أمده الله به من ذلك
العلم والشرع ، أن يعيد أقوامه الهائمين في أودية الجهالة الى حظيرة القدس
الربانية ، أو يشرق على نفوسهم الضالة بالأنوار الإلهية ؟ كذلك جاءت
رسالة موسى عليه السلام للبلاد . أما محمد عبدالله ورسوله الى الناس كافة ،
فإن لرسالته التي دامت نيفا وعشرين عاما ، ولدعوته التي ستبقى ما بقي
الإنسان في الأرض ، من الشئون والخصائص والمقاصد ما لا يشاكلها فيه
دين ولا تشبهها شريعة .

لا نعرض هنا لما جاء به القرآن الحكيم من الشرائع الإجتماعية
والأحكام التعاملية ، فإن هذا ليس موضوع محاضرة اليوم ، على أننا
استوعبنا الكلام فيه ، وفصلناه تفصيلا في محاضرتنا المعنونة (لماذا ظهر
الإسلام في مكة) .

فأما بحثنا في هذا المقام ، فإنه خاص بموقف القرآن ازاء المسائل

الكونية والعلوم العقلية . ولا نعى بهذا أنه جاءنا في هذه المقاصد
بما تجيئنا الكتب الفنية ، تبويبا وتفصيلا وتدليلا وتعليلًا . فإن هذا كما هو
معلوم ما كان يوما ما من المقاصد الأولى للكتب الإلهية ، ولا من
أغراض الرسائل السماوية ؛ وإنما يعيننا فيما يلي مدى ما بين القرآن
الكريم والعلوم الكونية من الصلات ، وهل وقف كتاب الإسلام يوما ما
في سبيل رقي العلم وحرية الفكر ، كما يتشدد الخراصون ! أم أنه على
العكس من ذلك كان محرر العقول الأسيرة ، ومنير البصائر المظلمة ، ومثبت
الأفكار القلقة ، ومنعش الهمم الخاملة ، ومحرك الأفهام الجامدة !! كذلك
يعيننا أن نصف مقامه في هذه الأغراض ، وأن نأتى على بعض آياته التي
لم يفسرها إلا الزمان ، ولم يكشف دقائقها سوى ما أحدثته الحركة العقلية
الجريئة التي انهزمت أمامها ظلمات التقليد ، وخفي بها عن الأبصار ما كان
يعد لدى القدماء علوما صحيحة ، ونظريات ثابتة ، وما كان أكثرها سوى
ظنيات اخترعها الخيال والتخمين ، أو أساطير خرافية توارثها الأخلاف
عن آباءهم الأولين .

جاء القرآن بما جاءت له سائر الرسائل السماوية قبلا من التعريف
بالخالق ، وتقرير العقائد ، وأمهاث الشرائع ، وأساس الأدب والأخلاق ،
جاء بجميع ذلك ، قصداً الى هداية العالم الإنساني ، وإرشاده الى ما يضمن له
السعادة والنعم في حياته . إلا أن القرآن حينما جاء كان الناس في جميع
الأرض ، كما هو معلوم للمؤرخين ، نهبا مقسما بين رجال الدين وبين المتغلبين
المسيطرين من الأشراف والفوارس ، فأما رجال الدين فقد استرقوا من

الشعوب والأفراد ضمائرهم وعقولهم ، فما كان لأحد من أقوامهم في تلك العصور المظلمة أن يمضى في شأن له إلا كما يفعل الأسير العاني، عطشته السلاسل ، وأثقلته الأغلال ، وأرهقه النصب ، وأنهكتة الأوصاب .

كذلك كان شأن الناس في تلك القرون الوسطى يوم هبط وحى الله في مكة بالقرآن . فاذا جاء القرآن لما سردنا من المقاصد التي نزلت بها الرسالات السماوية الأخرى ، فلقد جاء كذلكم لتحرير العقول البشرية من رق التقليد وإخراج الوجدان الانساني من نطاق الحجر الذي ضربه من حوله رجال الدين ، جاء لانهاض العقل الآدمي واستحثائه في سبيل التفكير والنظر . جاء يخفر النفس البشرية ويسوقها ، لتقرأ صحف الطبيعة ، وتتدبر آيات صنعها البديعة . بغض القرآن إلى الانسان ، كما أسلفنا ، رذيلة التقليد، ونعى عليه الجود على ماورثه آباؤه الأولون ، أو شاءه الأحبار والربانيون ، حتى لقد سمي القرآن هؤلاء أرباباً لمقلديهم في آية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله »

ولكم عيّر القرآن الغافلين من معطلى العيون عن الأبصار والآذان عن حسن الاستماع والأفئدة عن الفهم والتدبر ، بأنهم كالأنعام بل هم أضل جاء القرآن والناس في الأرض أمى لا يعلم الكتاب إلا ظنوننا وأمانى أو مقلد ملكت فؤاده تعاليم الأحبار والرهابين وأساطير الآباء الأولين أو أباحى لا قيدي استرقتة الشهوات والأهواء فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح ، أو دهرى يقول إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر . ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر

في أن تستنير البصائر، وتتحرر العقول، وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله
كلهم لآدم وآدم من تراب، وأن يعلموا أنه لا تغني نفس عن نفس شيئاً
وأن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، يقبل التوبة عن عباده ويعفو
عن السيئات ويعلم ما يفعلون.

جاء القرآن والناس في كل أرض كما وصفت لكم، فكان لا بد له من
الحيلولة بين أغوال المسيطرين المفترسين من أشباه الناس، وبين صرعى
فرائسهم المسكينة، تلك التي تزعمهم يقظتها ويهولهم انتعاشها ويهدم صروح
مظامعهم فيها بعثها ونشورها.

ولقد كان ماشاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين في الأرض، فان
البعثة المحمدية لم تختم إلا والناس كافة طلقاء عقلا وضميراً، أحرار قولا وفعلا.
بهذا الجهاد المشكور للقرآن ورسول القرآن بديء عهد البحث والنظر
وولت دولة الجود فوطئت بذلك الأكتاف للفلسفة الاغريقية وتحصيل علوم
الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت. فهي بأهل القرآن عاشت، وفي أرض
القرآن نمت، وفي ظل القرآن عزت وسادت

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتوس
وديمقريط والكساجوراس ما لقيته هي نفسها في بلاد الاغريق، وهي مهد
الفلسفة ومنبتها؟ أم هل لقيت منهما فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو
وارسترخوس وكليانتوس وبطليموس ما لقيته من الكنيسة الرومانية فلسفة
هؤلاء الأساطين، ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة؟ وهل
اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو، وأمعنوا فيهم تنكيلا

وتحريقنا لغير علة سوى أنهم، بعد إذ اعتمدوا على الحس والمعايينة وتسليحوا
بالآلات المكبرة والمقربة، استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة إلى
المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات ؟

ظهر القرآن أول ماظهر في أمة أمية، لم تألف المباحث العقلية، ولم تعرف
علوم الكون والمسائل الطبيعية، فلما جاءهم بما ذكر لهم من إشاراتها أو صريح
عباراتها — ولم تتسع لها مداركهم بعد — ذهبوا في أمرها مذهب التفويض
والتسليم وأبوا أن يقفوا ما ليس لهم به علم، فتقبلوها مؤمنين . وتركوا أمر
تأويلها وفهمها إلى أهل العلم آخذين بقوله تعالى « إن الظن لا يغنى من الحق
شيئاً » وقوله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » وقوله « وفوق كل ذي علم
عليم » إلى أشباه ذلك من الآيات التي علمتهم من الله أن العقل ليس بعربي
ولا عجمي، وأن العلم ليس بشرقي ولا غربي .

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض
فيما لم يعلموا، حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين، بعد إذ أعدها
الاسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية فتفجرت لأهل القرآن
عيونها النضاجة وتقدمت لأيديهم قطوفها شهية دانية، فكان ما شاء الله أن
يكون لعباده المؤمنين، سبق في كل مضمار، ونقابة خالصة لهم في سائر
شعب الحياة، وقيادة عامة في ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة
والآداب وفنون الجمال .

أجل! ولكن بقايا الصدر الأول، المسمى بالسلف، قلقت نفوسهم يوم
رأوا الفلاسفة الأخرى تجد سبيلها بين المؤمنين، حتى رأوا الكثير فيها

خطراً على دين الإسلام ، وحراباً على تعاليم القرآن ، كما خفّت إذ ذاك
أحلام طارت بها الأهواء والزعازع الفكرية الى مسالك متشعبة من الشك
والابتداع والإلحاد ، حتى إذا ركبت تلك الأعاصير ، وثابت العقول الى
رشدتها ، وامتنحن الناس موقف القرآن ازاءها ، سكنت النفوس القلقة ،
واطمأنت الأفئدة المضطربة ، إذ وجدوا في آياته المحكمة ما كان جنة
لهذا الدين ، ومناراً للمحصلين ، وحجة قائمة على الجامدين ، ورجوماً لشياطين
المرجفين من الجاحدين . ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم وهم القوامون على
دين الإسلام الحامون لحماه ، يهتمون بأمر تلك العلوم ، ويتزعمون الى العربية
ما كان موضوعاً منها باللغات الأخرى ، كما أخذوا يتدارسونها ، ويقربون
من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها ، ولو كانوا من غير المؤمنين . ففي ظل
القرآن وصادق دعوته الحارة الى الدرس والبحث والتفكير العميق ، تعانق
العلم ودين الاسلام عدة قرون ، لم تتخللها وحشة ولم يعوزها صفاء ولا
سلام . وما زال ذلك الأمر قائماً في البلاد الاسلامية حتى فسدت الملكة
العربية ، وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وإدراك تعاليمه ومقاصده بمستقل
مداركهم وحُرِّ عقولهم . هنالك حيل بين العقول والعلوم ، وبالخاصة في
بغداد ، فنصبت طائفة من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير ، حاجرين على
المدارك أن تتحرك في ميادين المعقولات ، وعلى الأبصار أن تتقلب في
صحائف الأرض والسماوات . وما زال شيوخ الدين ، باسم الدين هنالك ،
يستأثرون بكل أمر ، والخلفاء والأمراء الترك من ورائهم يحنون ثمار
الجهالة التي تفتشت في أمهم ، ويستغلون العامة من شعبهم ، استغلال بهم

الأنعام ، حتى عاد الاسلام غريبا كما بدا ، وانقلب الناس الى جاهليتهم
الأولى . ولقد حذا المسلمون في هذه النبوة حذو المسيحيين في البلاد الغربية ،
فأقاموا في بغداد ما أقامه الأرييون في ممالكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا
نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم في الرأي والاجتهاد ، ولو كان
مرجعهم في ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم . فلقد أوصدوا أبواب
الاجتهاد أمام العقول وقطعوا للناس في العقائد والأحكام بأشياء وضعتها
أيديهم ، ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت
أيديهم وويل لهم مما يكذبون .

احتكرت هذه الطائفة وبالخاصة في بغداد علم العقائد والشرائع وتأويل
الكتاب والسنة كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية وتبعوا
في استبدادهم بالعامة بل وبكثير من الخاصة سنن رجال الكنيسة ، شبراً
بشبر ، وذراعاً بذراع ، فحرموا وحلوا وفسقوا وكفروا ، وحذروا الناس
عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون ؛ فأقاموا بذلك لأنفسهم سلطاناً على
النفوس والسرائر والعمول ، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين
والأمراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطامعهم المادية .
فالأغراض السياسية صبغت بألوان دينية كان أكثر ما شهدته بغداد من
المصادمات والاضطهادات الدموية التي قامت باسم الدين ، وما هي من الدين
في شيء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين ، قضت بأن يعطل في
بغداد القرآن ، ويطفأ بها نوره الساطع الذي جعلها في عدة قرون كعبة
المحصلين ، ومثابة المستنيرين ، ومهاد توأمى العلم والدين .

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة ، كتب الفوز والغلب للجهل
وتم النصر للسيف على العقل ، فهام الناس في أودية الضلال ، ورجعت
العقول الى جاهليتها الأولى ، انقطاعاً عن التحصيل ، وتقيداً بالتقليد ، وأخذاً
بالخرافات والأضاليل .

بهذه النظرية العامة التاريخية لموقف القرآن أزاء العلوم العقلية
والكونية ، يتبين لكم أن حياة تلك العلوم وذيوعها في سائر البلاد التي شملها
ظل القرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف الناس على معاني هذا الكتاب ،
ومدى إدراكهم لأسراره وأخذهم بتعاليمه . ولعلمكم لاحظتم كيف ابتداءً
تقلص ظلالها عن الربوع الإسلامية ، ومتى انطلمست معالمها في
الحواضر التي بها كانت زاهية زاهرة ، تضرب اليها آباط الإبل من كل
صوب ، ويقصدها طلاب المدنية والعرفان من أطراف الأرض .

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الأمم وعقلياتها ، يعدى بعضها
بعضاً ، لا سيما ما كان منها خبيثاً ، فالشعوب الإسلامية في الشرق ، عندما
غشت أبصارها ظلمات الجهالة ، فعل فيها رجال الدين ، ما فعل في الغرب
رجال الكنيسة بالمسيحيين ، وكم من مرة اتحدت أو تقاربت فيها الأوقات
التي كانت تقام فيها محاكم التفتيش في أواسط أوروبا ، والاضطهادات
المذهبية في بغداد وما حولها .

وما لي لا أحدثكم بما فعل الكاثوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا
عام ١٥٧٢ م بالبروتستانت من المذاهب التي أحصيت ضحاياها ، فبلغت ستين
ألفاً عدداً ، مقارناً ذلك بالجناية الكبرى ، التي جناها السلطان السليم عام

١٥١٣ م في حدود العجم ، يوم أحصى الشيعة في تلك البقاع بطريقة سرية لم يشعر بها أحد ، حتى إذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم ، أمر السلطان فأبندوا فجأة عن آخرهم ، وكانوا نحو أربعين ألفاً ، ولم يكن لذلك من سبب ، سوى القصد الى إثارة نفس عميد الشيعة الشاه اسماعيل ملك العجم ، واستفزازه للحاربة ، طمعاً في ملكه ، وقصداً الى إبادة دولته . فالسبب في هذا المثل كما ترون سياسى بحت ، ظهر للناس في شكل دينى . ولهذا المبحث من الأحداث والشواهد ، ما يخرجننا سرده عما قطعناه على أنفسنا هنا من الإيجاز والاجتزاء بالعجالات والأمثال .

كذلك كان شأن القرآن إزاء العلوم ، وقد كان من موسوعات العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعية وما وراء الطبيعة ، فهو الذى قام بالدعوة اليها ، والترغيب فى البحث عن دقائقها وأسرارها ، وهو الذى ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال الكندى ، ومحمد بن موسى الخوارزمى ، ويحيى بن أبى منصور ، والعباس بن سعيد الجوهري ، وأحمد بن كثير الفرغانى ، وجعفر بن محمد البلخى ، ونصير الدين الطوسى ، وألوغ بك ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الخيام ، وابن سينا ، وأبى نصر الفارابى ، وابن رشد ، والحسن بن الهيثم ، وأشبهاء هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والأثقال والموسيقى وغيرها .

فلم يبق علينا إذاً إلا البحث فى موقف القرآن الكريم ، إزاء ما يسمى الآن بالعلوم (Sciences) ، وهل فى طبيعة دراستها بالأساليب الحديثة ، ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سداً لا يتعانتقان معه ، وقتالاً لا يرجوان

سلاماً بعده؟ أجل! بيد أنه لا بد لنا قبل الدخول في تفاصيل ذلك البحث أن نعرف لكم معنى كلمة (العلم) المؤلف للعرف الحاضر في الغرب وكذا في الشرق، الذي يسير على أثر الغرب في كل شيء، فإن لكل زمان اصطلاحه وعرفه، ولكل عرف حدوده وحكمه. ولنعتمد فيما نقدم لكم من ذلك على أقوال أساطين رجان الفلسفة الحديثة من أهل أوربا، فإنهم محدثو هذه الفلسفة، ومبتدعو اصطلاحاتها، وواضعو تعاريفها، فنقول:

(١) يقول هو كسلي: « العلم » فيما أعتقد، ليس سوى الذوق الإنساني بعد تربيته وتنظيمه، ويطلب هذا « العلم » حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس، مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة، مثل المناظير المكبرة (Microscope) والمناظير المقربة (Telescope)، وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتون إلا على تلك القواعد الثابتة، قواعد الشهود بهذه المناظير؟

(٢) ويقول الأستاذ بلفور في خطبة له:

يتوقف « العلم » في تحصيله والتثبت منه على المقاييس، فكل ما لا يقبل القياس من الأشياء، فهو خارج أو يكاد يكون خارجاً عن حدوده الطبيعية، ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور ليست مما يقاس، فهي إذاً لا تكون من موضوعات « العلم ».

(٣) ويقول الأستاذ ونديل: « العلم » سواء استعان بالآلات أو لم يستعن، عماده ما يلاحظه الإنسان ويحسه من الكائنات، وما تهديه إليه في المعامل الكيماوية والمعامل الطبيعية التجاريب والآلات، التي تمسكته من

انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكانها العميقة ، مع بلوغها من الدقة
والضآلة ، ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائي .

وإذا أردنا أن نبحث في باطن النظام الآلى للطبيعة أو في خارجه ، أو
قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام ، وكيف كان وما مصيره ، أو حاولنا
أن ندرك كنهه هذا الكون ، ومبلغ شعورنا به ، ولم نجد ولم نخلقنا
نحن هنا ، إذا أردنا ذلك ، فإن « العلم » الحديث ليس لديه جواب عن شيء
منه ، إذ لا دخل لشيء من ذلك في الحدود المصطلح عليها للعلم ، وإذا كان
لا علاقة « للعلم الحديث » بشيء من تلك المباحث ، ولا جواب لديه عن
أمثال ما قدمنا من الأمثلة ، فليس بالطبع لأحد ممن يتكلمون باسم « العلم »
أن يدعى أن « العلم » أقام البرهان على عدم وجود الله ، أو أنه ليس هناك
أرواح ، أو أن هنالك أو ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور ،
ولا جنة ولا نار الخاه ... مما اقتبسناه لكم هنا من أقوال أساطين التجديد
الغربيين في تعريف كلمة « العلم » وتحديد مداها وموسوعاتا يتبين لحضراتكم
أن من الجهل الفاضح واللغط الطائش أن يتعرض باسم هذه الكلمة -
ورقتها من الضيق على ما رأيتم - إلى المباحث العقلية البحتة ، وبالأخص
ما وراء الطبيعة منها فإن « العلم » بالمعنى الذى وصفه وعرفه واضعوه كما سمعتم
لا يعرض لشيء من هذه المباحث بنفى أو اثبات ، ولا يتناولها بامتحان ولا
مناقشة وكيف وهو لا يصل إلى المحسوسات ولا يعرف موضوعا غير
الماديات ، ولا منطقا سوى المعامل والآلات

ولقد وقفت الكنيسة في بدء بناء « العلم » على تلك القواعد الجديدة وقفة

المحارب العنيد أيام حكمت بالكفر شعبة الإلهيات في جامعة توبنجن بألمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذي خلاصته :

(١) أن النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وأنها لا تتحرك من مكانها هذيان فلسفياً ونظاماً . وأنها كذلك هرطقة لأنها بلاريب مناقضة للكتاب المقدس .

(٢) أن النظرية القائلة بأن الأرض ليست مركز الدنيا، وأنها غير قارة، ولكنها متحركة ومتنقلة ، هذه النظرية مساوية فلسفياً لسابقتها في هذيانها وخطأها ، ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة . ولم تهبط سورة الحركة العدائية للعلم وأبحاثه الجديدة إلا في نحو الثلث الأول من القرن السابع عشر بعد إذ أخذ رجال الدين يتبينون خطأهم في فهم عبارة «العلم» ويفقهون ألا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات أصلاً ، فهنا نرى القسيسين الكاثوليكين بـسليالدو وغسـيندى يتوليان علنا في الأعوام (١٦٣٩ م - ١٦٤٥) الدفاع عن نظرية كوبرنيك ، فلا يصابان بأذى ، ولا يتهمان بهرطقة .

بعد الذي قدمنا لحضراتكم في هذا المقام من البيان ، نود أن نقرر بكل تأكيد أن موقف القرآن الكريم تجاه «العلم» في الاصطلاح الحديث، هو عين موقفه إزاء «العلم» في القرون الوسطى إلى عهد التجديد الغربي ، فهو كما كان قبلاً لا يفتأ يدعو العقل إلى التفكير ، والأبصار إلى الاعتبار ، والآذان إلى الاستماع ، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس إلى التحسس من أسرار

الكائنات ، ويحفزهم إلى الكشف عن غوامضها ، والتنقيب عن دقائقها ، فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ، وأن الله يخلق ما لا يعلمون ، وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون ، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة . كذلك يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منبهين عن التقليد في عقائدهم ، واتباع الظن في أحكامهم ، والميل مع الأهواء في تصرفاتهم .

على أنهم مع هذا كله يجدون في كثير من آي القرآن ما يرشدهم إلى مواطن التفكير والبحث ، ويعرفهم ما يتطلبون الوصول إليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه . وإذا كان استقصاء ما جاء من ناحية النظريات الحديثة في القرآن الكريم ، وبيان القول فيه كما ينبغي مما لا يتسع له هذا المقام ، ووجب أن نكتفي هنا بالآيات على طوائف منها اجمالا لا تفصيل له ، وإيجازا نجزىء بالاشارة فيه . ففي هذه الحدود التي رسمنا لأنفسنا نقبس من الآيات الكريمة ماله علاقة وتناسب بأمهات تلك النظريات الفلسفية . وقبل انجاز ما وعدناكم هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله من القول فأرعونا أسماعكم :

(١) ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث في الشؤون الكونية والمسائل العلية والفنية على النحو المألوف في الكتب الخاصة الموضوعية فيها .

(٢) لما جاء القرآن الكريم كان في جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطيء بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بني اسرائيل عندما أخرجهم موسى عليه السلام من مصر ، فكان من الحكمة الالهية أن

يُنزل على محمد في سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى في سفر التكوين . والحكمة البالغة في ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق ، وتقرير الحق من العقائد، وقبول ما يلي ذلك من الشرائع والأخلاق ما كانت لتجد سبيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية وأصلها وألوهيتها وتزاوجها وما كان من أنسائها في تكوين هذه الكائنات ونظامها ما قررتة العقلية القديمة في بلاد مصر والاعريق، وما بثته في جزيرة العرب وما حولها أساطير الاشوريين والبابليين والكلدانيين . إذاً كان لزاماً أن يسترعى القرآن الناس إلى وجه الخطأ في عقائدهم ، وأن يشككهم في الباطل الذي اتبعوه ، لأنهم وجدوا عليه آباءهم ، وأن يظلمهم بذلك من الحجر الذي أشقاهم والحقهم بالانعام من الحيوان .

(٣) كانت إذاً مهمة القرآن الحكيم ، التي أرادها لتمهيد السبيل إلى التعرف للخالق جل شأنه ، أن يبين للعقول بضرب الأمثال لم تفكر وفيم تفكر وكيف تفكر؟ فهو في جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشاخنة المتينة ، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كي يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال .

(٤) لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال في بيان بعض غوامض الحقائق الكونية ؛ بل جاء في ذلك بحقائق أمر الآمين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها ؛ كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوب الصواب فيها . ثم فصح للفريقين أن يعترفا بعجز عقولها ، وألا يقطعاً في شيء فيما لا تبلغه

أبحاثهم وسعيهم ؛ بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور ، ويسألون أهل
الذكر فيما لا يعلمون أو يكون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق
وهو اللطيف الخبير .

(٥) إن المسيحيين حينما ثاروا في وجه العلم ونظام الحكم ثوراتهم
التجديدية في أوروبا لم يكونوا ليشبهوا في شيء من مواقفهم تلك أحداً من
الشعوب الإسلامية ، وإنما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم
الدموية ، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان ،
وقرروا للكنيسة فلسفة حرّموا على الناس حتى إستيضاح ما غمض عليهم
منها ، ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ، ولو اعتمد في رأيه على الحس
والمعاني . حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرموني اللذان رفضا أن
ينظرا إلى السماء بتلسكوب (الآلة المقربة)

وقد روى عن غاليليو أن من تلاميذ المذهب الأرصطاطالى من كانوا
ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل ، وانهم كانوا يعتبرون فلسفة
أرسطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك ، إذا نقض منها حجر إنهار سائر
بنيانها على أثره ، فكان ذلك سبب مغالاتهم في التمسك بها والحرص
عليها مجتمعة .

* * *

والآن ، وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية ، ننجز لكم ما سبق لنا
الوعد به ، فنقول :

(١) تكون جميع أصول الكائنات من زوجين اثنين ولسان العلم الحديث الكترون و بروتون .

الآية « ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين » فما من شيء في الوجود إلا منه الذكر والأنثى سواء في ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرهن مما لا نعلم . وجاء في بيان إجمال ذلك قوله تعالى « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وفي عبارة « ومما لا يعلمون » من المعانى ما يسكن إليه عقل الإنسان في كل زمان ، ويطابقه كما رأينا أحدث نظرية في أصول الأكوان .

(ب) تتولد الحياة من الماء .

الآية « وجعلنا من الماء كل شيء حى » وهذه الآية ناطقة بما يطابق العلم الحديث في هذا الموضوع . ولقد وقفت عقول قدماء المفسرين إزاء هذه الآية حائرة قلقة ، فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه . ولذلك وقع لهم في تأويلها خلط كثير نضرب عنه صفحا هنا .

(ج) تعدد الأرضين .

لم يذكر القدماء شيئا في أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك أراضى كثيرة غير أرضنا ، وما زال رأى السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة يقول بعدم تعددها ، حتى جاء غاليليو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة ، وكذلك من جاء بعده فأثبتوا بمشاهدتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا ، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق

والعمران . ولم يعتمدوا في هذا التجويز إلا على الحدث والظن ، فإن
مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد .

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين في آية (الله الذي خلق سبع
سماوات ومن الأرض مثلهن) ففي تفسير أبي السعود (من مفسرى القرن
التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض . وفي
تفسير النيسابورى أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها إلى الأخرى
مسير خمسمائة عام (١) وفي كل أرض منها خلق ... إلى أن قال وهم
يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها الخ . ومن أصرح
الآيات في أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى « ومن آياته خلق
السموات والأرض وما بث فيهما من دابة » إذ المراد بالسموات هنا
السيارات على ما أتى لنا من التأويل . ومن الآيات البينة في هذا الموضوع
قوله تعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض وما فيهن
بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » .

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعدوا وجود الحيوان في الأجرام
السماوية، ولكن نفي الزمخشري والبيضاوى وغيرهما استبعاد أن يخلق الله.

(١) مسألة تقدير المسافات التي بين السيارات مثلاً بمسير خمسمائة عام يفسرها
الشهرستاني بالدابة تسير فرسخاً إسلامياً في كل ساعة على ما هو معروف ومصطلح
عليه في سائر الكتب الإسلامية مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ مليون ميل تقريبا وهو
قريب جداً من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول
ذلك الأستاذ في كتابه المسمى (الهيئة والإسلام) صفحة ٩٠ جزء أول .

فيها صنوفا من الحيوان يمشون فيها مشى الإنسان على الأرض ، فالله خلق
كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم .

(د) السيارات هي التي تدور في مدارات وهمية ، وليست كما يقول قدماء
الفلاسفة إنها ثابتة في أفلاك دائرة بها ، وإن هذه الأفلاك لا تقبل الخرق
والالتئام ، إلى آخر ما جاء للقدماء في وصفها والتعريف بها ، أما القرآن الكريم
فيطابق الفلسفة الجديدة في آية « كل في فلك يسبحون » وآية « ولقد خلقنا
فوقكم سبع طرائق » .

(هـ) الشمس جسم مشتعل تبتث النور والنار من ذاتها وترسلهما إلى
سياراتها المرتبطة بها وإن اقتضى ذلك إضاءة أضعاف أضعاف ما يحتاجه
كل سيار من أشعتها . والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان ،
وقابلة للتفاسد والفتناء . ومن الثابت بالحساب أن الشمس تفقد من مادتها
في الثانية على أقل تقدير أربعة ملايين طن . ولا ينبغي أن يزعج هذا عشاق
الحياة الدنيا ، فإن الشمس على هذا الحساب تحتاج في فقدها جزءاً من مائة
جزء من حجمها إلى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة . على أنها بعد أن
تصل إلى هذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل
الحياة في أكثر أجزاء هذه الأرض صالحة طيبة .

آيات القرآن في ذلك « وجعل الشمس سراجاً » « جعلناها سراجاً وهاجاً » قال
مقاتل في تفسير الوهج : مجمع النور والحر ، وفي القاموس : وهجت النار اتقدت .
ومن الآيات « إذا الشمس كورت » أي ذهب حرها ونورها ، وآية
« إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت » « فاذا النجوم طمست وإذا

السما ففرفف وإفا الفبال نففف « إلى أمفال هففه من آفا الفقرآن الكرفم . وهنا ففمل أن أذكف بالففر أفف ففففف الشففة هبة الله المشهور بالفهر سففانف ، وهو من علماء عصرنا فقد وضع كتابا ففما بفن الهففة الففففة والإسلام من الففصال ، فأف على بعض مبالف فففة مفففة ففحسن أن أفففبس منها ما ففاه له فف بفان معنى السماء فف الفقرآن إذ فقول : —

(١) إذا وردف السماء والأرض معاً ومفرفففن فف آفة ، كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السماء ما علاها من الهواء والأفرام .

(٢) وإذا ورد لفظ الأرض مفرفداً ومعه السماء بمفوعة ، كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السموات الكفرف والأفرام مطلقاً .

(٣) وإذا ورد لفظ الأرضف مع السماءف بمفوعفن ، كان الظاهر من الأرضف السماءف والكفرف البخارفة المففطة بها . وفقول صااب هففه الضوابط إنفا قليلة الففلف ففكاف ففرفر اطرادا كاملا . وكفذلك فقول إذا عنى بالسمواف والكفرف البخارفة المففطة بالطبقة الهوائفة المففطة بالأرض قبلف ففوى الففائلن بأن نبتون وفلكان لفس لها سمواف ، وأن السمواف خاصة بالسفازاف الأفرى بافمال قوف . وفكون الفففسار على ففرففد الأرضف بسبع — مع أن فلكان ونبتون من الأرضف وأنها فسع — لأنها ذكرف مع السماءف السبع المبصرة بففر المناظر المكبرة المفرة . وقد افكففف نبتون وفلكان فف سنة ١٨٤٦ م .

هفا وفطلق اللغة كلمة السماء على كل ما ففعلو الأرض . قال القزوفن : كل ما فوق الأرض فهو سماء ، وقال الطبرسى فف مفع البفان ، كل ما علاك

وأظلك فهو سماء « وجملة القول فيما قصده القرآن كلمة السماء إن السماء : —
(١) نفس الجو كآية « وجعل في السماء بروجاً وجعل فيها سرجاً وقمرأ
هنـيرا » .

(٢) الأجرام السماوية والسيارات كما في حديث « إن في السماء آدم
كأدمكم ونوحاً كنوحكم » وكما في آية « ومن آياته خلق السموات والأرض
وما بث فيهما من دابة » .

(٣) جسم عظيم مـكـور محيط بالأرض ، ولكن اختلف الناس في فهم
كنهه والمفهوم من بعض الأحاديث أنها كرة بخارية غازية ، وهذه مع كرة
الهواء التي في جوفها تتحركان مصاحبتين للأرض بجميع حركاتها، وفيها يقول
الأستاذ فاندريك (جزء ثالث — النقش في الحجر) :

إننا عائشون في قعر أقيانوس سيال معدل عمقه على الأقل مائة مثل
لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الأرضية ، وفي هذا المعنى جاءت آية
« ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إنئتيا طوعا أو كرها
قالتا أتينا طائعين » ففي مروج الذهب وابن ميثم في شرحه على نهج البلاغة
أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذي تكونت منه السماء كان عن
تنفس الماء وتبخره، وفي كليات أبي البقاء: كل دخان يسطع من ماء حار فهو
بخار وكذلك الندى . وبهذا المعنى أتت الآيات الكريمة (١) ففتحننا أبواب
السماء بماء منهمر (٢) يوم تشقق السماء بالغمام و (٣) وأنزلنا من السماء ماء
و (٤) أولم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء
كل شيء حي (وذلك في رأى بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر .

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
ولقد رويت بهذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها ، وفيها
تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر المكفوف ، أى الذى لا يهبط ولا يسقط
لأنه فى حالة بخارية .

وفائدة الجبال فى الأرض وحكمتها انها مقام الانسان وغيره من
الكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها، اذ هى الجزء الجامد المرتفع الراسى
الثابت المتماسك الأجزاء والعناصر الصلبة. ولولا هذه الخصائص والصفات
لمادت الأرض ببحارها ولاضطربت بأمواجها كما يشاهد فى القسم المائى
منها وهنالك لا يكون للإنسان بها مستقر ولا للعميران فيها سبب
ولا مكان .

ومن الآيات الواردة فى ذلك المعنى (١) « وجعلنا فى الأرض رواسى
أن تמיד بكم » و (٢) « وجعلنا الجبال أوتادا » و (٣) « وألقى فى الأرض
رواسى أن تמיד بكم » .

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاعها عن سطح
البحار تكون للانسان موقعا حصينا لا يهدده طغيان الأبحر ولا يجترفه
مضطرب الأمواج . ثم أنها لشهوقها ومختلف درجات ارتفاعها من الفوائد
العظمى والشرائط الجوهرية الضرورية للحياة والعمران والحضارة ما لا
يخفى على المحصلين . ومن الألفن والخطل أن تتخيل الجبال كالأوتاد ترز
فى الأرض أو الحائط لتربط بها الدواب خشية فرارها أو الخيمة لبنائها
وإقامتها على أعوادها فإن هذا المعنى ليس مما يخطر للعقل السليم . وما لنا

نأخذ بهذا التأويل السقيم ، ولنا في معاني الوتد لغة مالا يلجئنا إليه ؟
لقد سمي العرب الهنيئة الناشزة في مقدم الاذن وتدا ، فيقال « ما أملح
وتدى أذنه » كما استعملوا أوتاد البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتاد الفم
لأسنانه المثبتة في فكيه . إذاً لماذا يقذف بنا الشطط في التأويل حتى نحمل
كتاب الله العربي من المعاني ما هو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية؟
أفلا يعلم أولئك أن الجبال هي المثبتة في الأرض كما يثبت وتد الدابة أو
الخيمة في الأرض والحائط ، وأن الأمر بهذا ينعكس عليهم إذ تكون
الأرض هي الوتد الذي تثبت به الجبال لا العكس .

ثم ماذا عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال في الأرض من ناحية حفظ
توازنها ووقايتها ما يحل بها من الميدان والاضطراب كما يقول أولئك
الواهمون . إننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى رفع السموات والأرض بما
قدر لها من القوانين الكونية وما أقام بينها من التجاذب ، فهو الرافع لها ، كما
في القرآن ، بغير عمد مرئية للابصار ، ولكن جعلها سابحة في الفضاء محفوظة
من السقوط والاضطراب والميدان ، فهي تسبح بقدر في مدارها سبحاً
لا يعتموره نشوز ولا نكوب ما دامت تلك النواميس قائمة معقودة
بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الأرض والسموات « ان الله يمسك السماوات
والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده » .

على أن نظرة واحدة إلى نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض
تدلك على أن الجبال في الأرض ماهي إلا كالهانات الناشزة في سطح جسم
الانسان لا تقيم بضآلتها وزناً لا اعتداله ولا توازنه ، فان رفعة تلك الجبال

الشاهقة في كرة الأرض على قلة عددها تتراوح بين خمسة آلاف من الأمتار
وتسعة آلاف متر تقريبا وبعبارة أخرى تتراوح بين جزء واحد وبين جزء
ونصف جزء من ثلاثة آلاف جزء متساوية يقسم إليها قطر الأرض تقريبا (١)
ومن هنا يتجلى مبلغ ضآلة تلك الجبال في الأرض . أما الحكمة في
وجودها فقد سبق الكلام فيها وإجمالاً أن الغرض هو أعدادها لعالم الحياة
والعمران في كرة الأرض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها
من الأحياء وإقامة معالم الزينة والجمال في أقطارها وربوعها
يشير إلى ذلك قوله تعالى: « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا
فيها من كل زوج بهيج »

* * *

وبعد فقد آن لنا أن نكتفي بما قدمنا لكم من العجالات والأمثال
فإن في استقصاء هذه المباحث ما يحتاج إلى ضخام المطولات . فحسبنا
هنا ما تيسر لنا منها والله المسئول أن يوفقنا إلى إكمال هذه الموضوعات
وايفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهددين من المؤمنين
ولقد أجدني لضيق المقام مضطراً أيضاً إلى إرجاء الكلام في التكليف
العيني والوجدان الفردي الذي سبق لنا الوعد به إلى فرصة أخرى تتسع
لما فيه من المسائل القيمة ، نسأله تعالى التوفيق

(١) قطر الأرض يساوي ٣٠٠٠ فرسخ .

الآيات والأحاديث التي وردت حول موضوعات الكتاب

في الحديث الشريف

(١) الدين العقل ولا دين لمن لا عقل له

(٢) أثنى قوم على رجل حتى بالغوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف عقل الرجل؟ فقالوا: إننا تمدحه بتقواه لا بعقله فقال إن الأحق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع الناس غداً في الدرجات الزلني من ربهم على قدر عقولهم .

في القرآن الكريم

(٣) « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْهَ مَعَ اللَّهُ بَلِ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رِوَاْسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلَيْهَ مَعَ اللَّهُ بَلِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »

(٤) « قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ، أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ، بَلِ إِنَّ يَئِدَ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً »

(٥) « أَلَيْهَ مَعَ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

(٦) « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

(٧) « إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور »

(٨) « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »

(٩) « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا يعقلون

ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون »

(١٠) « وهو الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل

الثمار جعل فيها زوجين اثنين إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وفي

الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير

صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك

لآيات لقوم يعقلون »

(١١) « كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم

من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » قل

فله الحجة البالغة » .

(١٢) « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها

قل إن الله لا يأمر بالفحشاء » أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

(١٣) « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

(١٤) « أن تقولوا يوم القيامة إننا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا

إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون»

(١٥) « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا

يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله
ليشتروا به ثمناً قليلاً » .

(١٦) « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله
من وليٍّ ولا نصير » .

(١٧) « ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »

(١٨) « قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم
والله يؤتي ملكه من يشاء » .

(١٩) « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » .

(٢٠) « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر
أولو الألباب » .

(٢١) « هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور
أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ »

(٢٢) « قال الذين أوتوا العلم إن الحزى اليوم والسوء على الكافرين

(٢٣) « فاسألوا أهل الذِّكر إن كنتم لا تعلمون » .

(٢٤) « ولا تقف ما ليس لك به علم * إن السمع والبصر والفؤاد
كل أولئك كان عنه مسؤولاً » .

(٢٥) « يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك
صراطاً سوياً » .

(٢٦) « وقل ربّي زدني علماً » .

(٢٧) « سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين » .

- (٢٨) « وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .
- (٢٩) « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .
- (٣٠) « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » .
- (٣١) « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .
- (٣٢) « تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم » .
- (٣٣) « (قالوا) إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون (قال) أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » .
- (٣٤) « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » .
- (٣٥) « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .
- (٣٦) « وأبليغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون » .
- (٣٧) « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » .
- (٣٨) « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »
- (٣٩) « فأعرض عنهم توألى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » .
- (٤٠) « فذكّر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر » .
- (٤١) « فإنا على رسولنا البلاغ المبين » .
- (٤٢) « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ؟ » .

وهنالك كثير من آيات القرآن الكريم محتومة بمثل العبارات الآتية
« قليلاً ما تذكرون » ، « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ،
« إيتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » ، « إن
في ذلك لآيات للعالمين » ، « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » إلى
أشبه ذلك مما تجدونه منشوراً في ثنايا الكتاب العزيز .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسوله

المبعوث بالآيات المنجيات ٩

آشَارُ الْاِحْمَرِ
فِي نَظَرِ اَزَّةِ الْاُمَّمِ الْمَسِيحِيَّةِ

Faint, illegible text, likely bleed-through from the reverse side of the page.

مكتبة
مكتبة
مكتبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الهادي الحكيم ، الفتحاح العليم . وصلى الله وسلم على رسوله
المبعوث لهداية الخلائق ، وليتمم مكارم الأخلاق .

وبعد ، فإن ما اتخذته حكومات الجماهير المتحدة بأمريكا من الوسائل
الشديدة في مقاومة الخمر ، ومدافعة أذاها عن هنالك من الأنفس البشرية ،
لم يسبق له مثال في تاريخ الاجتماعيات والشرائع ؛ منذ جاء رسولنا الأمين ،
بما جاء في تحريمها الصارم واعتبارها أم المحارم .

تنكرت الحكومات الأمريكية للخمر بعد الذي رأته من ثمرات
تحريمها المطلق خلال الحرب العامة ، فلم تكن فيما فعلته - وهي نصرانية -
منصاعة بالطبع للقرآن ، ولا متشبهة بأهل الإسلام . ولكن وجدت
فيما قيده من الأحداث والحقائق ، وجمعه من الفتاوى العلية والأبحاث
الطبية ، ما لم تر معه سبيلا الى مهادنة هذه الآفة المنكرة ، وتجاهل شورها
المؤكدة .

لذلك عولت على وضع عجالتى هذه ، لمن لم يدرك أسرار أحكام الدين
من المتفهمين ؛ ولتقص من الحجج البينة ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ؛
وإن الله مع المتقين ؟

مُقدِّمة

حرمت أمريكا الشمالية الخمر خلال سنوات الحرب الخمس ؛ وكذلك فعل غيرها من الدول التي اشتركت في تلك الحرب ؛ ولكن أمريكا التي تعقبت نتائج ذلك التحريم في تلك الأعوام ، والتي كانت قبل الحرب تعالج آفة الخمر بمختلف الوسائل لم تفعل ما فعلت الدول الأخرى من نسخ التحريم عند ما وضعت الحرب أوزارها ؛ بل حرمتها أيضاً بعد الهدنة تحريماً باتاً عاماً ؛ وكما حرمت شربها حرمت إتيانها وصناعتها. ثم عاقبت بالسجن شراؤها حتى لقد غصت السجون هنالك بمخالفى هذا القانون الجديد الذى لم تأخذ المحاكم الأمريكية - فى سبيل تطبيقه على تلك الأمة على حداثة عهدها به - رحمة ولا هوادة .

ضجت من ذلك القانون (طبعاً) تلك الأمة التي كانت من أشد الأمم إسرافاً فى الخمر وإدماناً لها ؛ ولكن الحكومة التي أبصرت جلى آثار التحريم فى إصلاح الحياة الاجتماعية والآداب الخلقية، كما رأت واضح آياته فى تقليل الجرائم والتجافى عن كثير من المحارم . تلك الحكومة لم تتردد فى مدافعة أم المنازع الشهوية إلا شدة وصرامة . وآخر ما روته الصحف العامة فى ذلك، أن الأمة الأمريكية أخذت تعلل النفس بأن الفتاوى الطبية -

ستجد لها مخرجا من تلك الضائقة الآخذة بخناقها ، وزعمت أن ليس في استطاعة المحاكم أن تخالف ما سيفق به الأطباء من ضرورة استعمال شيء من الخمر على سبيل التداوى . اشرأبت الأعناق طويلا الى تلك الفتاوى الطبية التي لم يرد منها إلا أن تكون تروسا تتقى بها العقوبات القانونية وحبائل تنصيد بها الجرع الخمرية . ولكن الأطباء لم يجدوا من قواعد حفظ الصحة ما يضطر حتى المرضى الى تلك السموم المبيدة للأجسام الهادمة للأخلاق ، إذ ما من مرض إلا وله في الطب من الأدوية النافعة الناجحة ما يغنى عن الخمر . بعد إذ رأت الأمة الأمريكية من أطباءها ما رأت ، أخذت آمالها تتضاءل رويداً رويداً ، ودائرة رغبتها تضيق شيئاً فشيئاً ، فصارت تعلل النفس بأن الجعة (البيرة) ستضيق عنها دائرة التحريم المطلق ، وأن علماء الطب لن يجدوا من العلل والأسباب ما سيلحقها يوماً ما بتلك السموم القتالة . ولقد أخذت الشركات الكبرى هنالك قبل عام تتأهب وتستعد لإغراق الأسواق الأمريكية بطوفان من الجعة ، بيد أنها كانت تنتظر قضاء المحاكم في أمرها ، وما ارتاب أحد هنالك في أن الفصل سيكون لها لا عليها ، ولكن أبت حكمة دين الإسلام إلا أن تتجلى ثانية في تلك المملكة البروتستانتية . فلقد خبت محاكم أمريكا ، وإصالة رأى رئيسها الدكتور هاردنج ، جميع ما استطاب أولئك من الأحلام ، واستعذبوا من لذائذ الظنون والآمال ، إذ قرر القضاء التسوية بين الجعة وغيرها من صنوف الشراب علة وحكما ولم تلبث أن صدر بتحريمها أمر الرئيس هاردنج حتى للتداوى فكان يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢١ (يوم صدور ذلك الأمر) مبدأ تاريخ الجفاف

التام (كما سماه الغربيون) في سائر الممالك المتحدة الأمريكية .
وقع هذا الأمر على قلوب الأمريكيين وقع الصاعقة المحرقة ، فلم يجدوا
سبيلاً لنقع غلتهم والتعلل بأصل علتهم سوى الفرار من وجه القانون
والتحجب عن أعين الشرطة الساهرة ، ولكن الحكومة التي أرادت أن
تظهر أرضها من تلك الآفة الفتاكة أبت إلا أن تتعقب خفي أماكنها
ومكائنها وتريق في الأنهر والبحار ما تجد من غاليلها ومرتخصها ، حتى لقد
رأينا صحف أمريكا تنشر الضراعات والابتهالات راجية من دور الشؤون
البلدية أن تختار ظلمات الليل لنقل ما تريد إراقته من الأشربة التي تصادرها
الآن في نقلها علناً في خلال النهار مشاراً لآلام الشعب وإيذاء له ، إذ لا يزال
حديث عهد بقانون التحريم . ولم يفت أولو الأمر في أمريكا أن الشعب
هنالك يجد من السفائن الأجنبية عوناً له على بلوغ بعض شهواته ، فإن
كثيراً من الناس كانوا يختلفون إلى السفائن الراسية في المياه الأمريكية
لا لغرض سوى الحصول على بعض الشراب حتى لقد كانت بعض السفائن
الأجنبية تقل ما استطاعت من صنوف الخمر ثم تطيل مقامها هنالك
لتصيد أموال ذلك الشعب الظمان وتعطل من القوانين ما وضع لحماية
الإنسان .

تبقظت حكومات أمريكا لهذا فقررت تطبيق ذلك القانون على السفائن
الأجنبية متى كانت في ثلاثة أميال من السواحل الأمريكية ، وبرغم ما قدمت
لها دول أوروبا من الإحتجاجات والاعتراضات لم تزد الحكومة إلا تشدداً
وإصراراً في تطبيق ذلك القانون على السفائن الأجنبية قاطبة .

ولكن المحاكم قضت بإباحة أن يكون في تلك السفائن ما يكفي زبائها
وخدامها ، إذ هزلء ليسوا وهم في سفائنهم خاضعين لأحكام الممالك
المتحدة ؛ فصار المفتشون الأمريكيون كلما قدمت سفينة أجنبية ذهبوا إليها
للتفتيش وكل ما يجدونه فاضلا عن حاجات عمال السفينة من مقادير الكحوليات
أراقوه في البحر . وقد تكون أمريكا فعلت ذلك لتتخلص من الحركات
العدوانية والضجة التي أقامتها عليها شركات الملاحة الأجنبية ، فتجافت
في معاملتها عن الإفراط في التضيق حتى لا ترتبك الشؤون النقلية
وتضطرب العلاقات التجارية بين أهل أمريكا وبين البلاد الأجنبية . وبالجملة
فتمد صارت السفائن الأجنبية منذ ذلك التاريخ خاضعة لهذا القانون الجديد
وللتفتيش متى دخلته في ثلاثة أميال من سواحل أمريكا الشمالية على ذلك
الشرط الذي ذكرنا . ولتمد نهت هذه الحركة الإصلاحية في أمريكا
الشعوب الأخرى الى ما في الخمر من المضار فما تنفك الجرائد الانجليزية
وغيرها يخضن في أمرها وينشرن الآراء المختلفة في نفعها وضرها . ومن
الدول من أخذن يفكرن في الاقتداء بأمريكا ولكن لا بتلك الشدة
والصرامة .

نشرت صحيفة « المورنج بوست » أن حركة وضع قانون لتحريم
الخمر في بلاد النرويج تشهد رويداً رويداً ثم زادت أن وزير خارجية
النرويج خطب في (كريستيانيا) فأعلن ضرورة تحريم الأشرطة الروحية
ومصادرة ما يوجد منها في السفائن ، وأيده في ذلك الدكتور (شارفتبرج)
مضيفاً الى هذا قوله : إن قانون تحريم الخمر سيظل أمراً خياليا ما دامت

النرويج ملزمة باباحة إدخال الكميات الكبرى من الأشرطة الأجنبية ، مما اقتضته المعاهدات التجارية التي عقدت بينها من جانب وبين فرنسا وإيطاليا وإسبانيا من جانب آخر والتي تلح البرتغال في إحراز مثلها ، وينتظرون في تلك المملكة أن تعدل الفقرة المختصة بالأشرطة في تلك المعاهدات التجارية قريباً .

والفرق بين مافعلته أمريكا وما قررته النرويج أن هذه قصرت التحريم على ما يكون مقدار الكحول فيه ١٤ ٪ أما غير ذلك فلم يشملته حكم المنع بعد ولعل هذه خطوة تمهيدية قصدت بها النرويج أن تستدرج الشعب هناك في سبيل الإصلاح فلا تباغته مباحته أمريكا لشعبها بالتحريم المطلق أما (السويد) فإنها لجأت إلى استفتاء الأمة السويدية في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٢ .

وفي اليوم الرابع من شهر أكتوبر من هذا اليوم نشرت الحكومة نتيجة الاستفتاء فأرتنا أن عدد طالبي التحريم ٨٨٩٠٧٨ وعدد المستيحيين ٩٢٤٨٧٤ ومن هذين العددين يرى أن طلاب التحريم المطلق ازدادوا بسرعة مذهشة زيادة بالغة . ذلك إذا ما تذكرنا كيف كان عدد هم في السنوات القريية وليأتين يوم ترجح فيه كفة الآراء المحرمة كفة المستيحيين (وما هو بعيد) فيلتحق ملايين السويديين بالسابقين الأولين من إخوانهم نصارى القارة الأمريكية . ومعلوم أن السوفيت الروسية فعلت في بلادها ما فعلت أمريكا فخرمت تناولها وأغلقت حوانيتها ومصانعها وتعقبت شراها حتى في خلواتهم ومقاصير حجراتهم .

ذلك ما فعلت وتفعل الحكومات النصرانية في مدافعة تلك الآفة القتالة
عن أممها وشعوبها . ذلك عمل أمم لم يجتهد كتاب سماوى بشيء مما جاء به
القرآن الحكيم من البيان الشافى فى أمر هذه السموم الفتاكة . فماذا
فعل المسلمون ولهم من قرآنهم وسيرة رسولهم وعمل الصالحين من سلفهم
ما مزق كل حجاب ولم يؤتته غيرهم من أهل الكتاب ؟

لقد وقفت أكثر الشعوب الإسلامية جامدة أمام هذه الحركة الإصلاحية
الاجتماعية وما كان أجدرها أن تكون إماماً للمصلحين وبين يديها كتاب
الله الذى جمع من مكارم الاخلاق وحكمة الحكيم الخلاق ما ضمن لها الفلاح
القريب وأغناها عن انتظار التجاريب .

وقفت أكثر الشعوب الإسلامية تلك الوقفة الشائنة فلم نر من غير
حكومة انقرة الوطنية غيرة على اقامة هذا الركن المكين ومحاربة أرومة
ذلك البلاء المبين .

فهاهى تلك مصر مثلاً وفى قلبها الجامع الأزهر وعلى آلاف منائرهما الداعون
إلى الفلاح وفى أكثر مكاتبها نسخ القرآن الكريم وفى جميع كتاباتها
ومدارسها الحافظون والمقرئون وفى افراحها التالون والمرتلون . مصر تلك
لا ينكاد يمر المار فيها بحارة أو زقاق أو جادة إلا رأى من تلك المنكرات
مما لا يحمل المسلمون ولا ويلأئم آداب الاسلام .

ولقد جعلت أرقب خلال هذين العامين أن يشوب المؤمنون إلى رشدهم
وأن تفكر صحافة مصر وتونس والجزائر وأشباهاها من البلاد الإسلامية
فى الاقتداء بصحف الغرب فيدعون تلك الشعوب إلى الرجوع إلى آداب

دينها وأخلاق نبيها أو على الأقل إلى محاكاة تلك الشعوب الغير المسلمة التي
قصصنا قصصها فماكاد يقع بصرى إلا على ابتهالات نشرها بعض الافاضل
من قبط مصر في الدعوة إلى الاقلاع عن ذلك الداء الويل واتقاء غوايات
الضالين والمضلين .

ومن عجيب أمر المسلمين هنالك أن قابلوا تلك الدعوة بالاهمال أو
الاستخفاف فلم يلب منهم تلك الصيحة سوى نفر قليل بالاسكندرية كأن
الدعوة إلى تجنب الخمر من الاحداث المبتدعة التي لم يأتهم بها الكتاب
الكريم ولم يسبق اليها البشير النذير صلى الله عليه وسلم .

وأعجب من هذا كله أن تفرع تلك العظمت والعبر كل يوم آذان شيوخ
الاسلام بمصر وتونس ومراكش وسوريا والعراق وغيرهن فلا يزدادوا
إلا أعراضا عنها وانهما كما فيما بين أيديهم من مدارس الخلافات ومزاولة
ما جاء فيها من القصار والمطولات غافلين أو متغافلين عما يفعل الجهل
بالدين في جماعات المسلمين . ذلك وقد أقامهم الله حيث تبسط يد الفضيلة
بالاستغاثة وتمتد أعين الدين للاستنفار وتعقد آمال الباكين والشاكين
والمستغفرين بالأسحار .

إذا كنا نتحدث أو نفكر في مقاطعة الاعداء والكف عن معاملاتهم
والاعراض عن مصنوعاتهم ومنسوجاتهم على حاجتنا اليها فكيف لا نفكر
في الكف عن ابتياع خمرهم التي هي سم زعاف لأبداننا ومعول ينقض
أركان ديننا؟ نفكر في الاقتصاد وعدم التبذير فأى موطن أجد أن

تصان عنه أموالنا عن بيوت الخمر التي تقتل فيها النفوس ، ويضحى على
جدرانها بالاخلاق الكريمة ؟

نفكر في الاكتتاب للنقابات وشركات التعاون وتوفير سائر وسائل
التخلص من العدو ، فهلا فكرنا في صرف بعض ما نسخوا به على الخمر الى
تلك الوجوه الكفيلة بسلامة المسلمين والبلاد الاسلامية جميعاً ؟ أفلا يجدر
بالذين يفكرون في ترويج الصناعات الوطنية واتخاذ الألبسة القومية
أن يحفظوا أيضاً نسيج أبدانهم التي بين جنوبهم حتى لا تصل اليها يد الخمر
بالنقض والتوهين والبلاء المبين ؟

تفتحم الأمم الاسلامية اليوم في سبيل حريتها واستقلالها شديد
الغمرات، ولكن أنى لهم بلوغ ذلك وجيوش الخمر المستخفية الفتاكة تعين
الأعداء على نيل ما ربه من بلادهم ومن جماعاتهم .

تلك نفثة مصدر ضمنتها هذه المقدمة ، فأما الذين في قلوبهم مرض
فسيقولون ما يقولون ، وإن هم إلا يخرصون ، وأما المهتدون والمستهدون
فانهم سيجدون ان شاء الله فيما يلي من الفصول ما فيه شفاء المؤمنين ، ومشكاة
تشرق بمصباحها حكمة الكتاب المبين .

تمهيد :

جاء النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً » بآية التحريم المطلق ، بعد إذ أسماها القرآن الحكيم رجساً من عمل الشيطان ، وأبان ما توقعه بين الناس من العداوة والبغضاء ، وما تستتبعه من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

أما الفقهاء فلم يقفوا عند منطوق هذه الآية الكريمة ، ولم يجمعوا على الأخذ بقول الرسول : « كل مسكر خمر » ، بل أخذوا يشتغلون ببيان ما هي الخمر ، وهل يندمج فيها النبيذ ؟ وما حكم المثلث العنبة ومطبوخ النبيذ ؟ وما حكم استعمال الدباء والحنتم والمنقور من آنيتهما ؟ ثم أخذوا يطيلون في ذكر حد شاربها ، وهل يشترط في ذلك أن تشتد وتغلي وتقذف بالزبد ؟ وفي أى نوع يشترط الإسكار ، وما درجة الإسكار الموجب للحد ، وهلم جرا . أسرفوا في تلك الوجوه ، كما أكثروا من الخوض في أحكام الوضوء بالنبيذ وإزالة النجاسة العينية به ، وما حكم المعاملات والجنايات التي تقع من السكران .

والخلاصة ان المستقرىء لما كتبه الفقهاء في الخمر لا يجد من بينها تعرضاً لبيان ما تفعل بالأفراد والجماعات من المضار البالغة ، كتمزيق الصلات ، وتوهين أركان الحياة الاجتماعية ، ونشر السفاهات ، ومضاعفة الجنايات ، واضعاف الأبدان ، وقتل الأجنة والأطفال أو توريثهم معضل العلل والعاهاات ، عقلية كانت أو بدنية ، الى نحو ذلك مما سنأتى بعد على تفصيله .

ولو أن الفقهاء وقفوا عند ظاهر الآية الخمرية ، فلم يتناولوها بتلك التأويلات . ولم يغلوا حدها بما جاءوا من الخلافات ، لما وجد المسلمون سبيلا الى ما قارفوا من المحارم ، ولسلت أخلاقهم وجماعاتهم من الوهن والضعف ، الذي أمكن منهم الأمم الأخرى ، وجعلهم لقمة سائغة لكل آكل . فلتبين فيما يلي آراء أهل الذكر وفتاواهم التي بنت عليها أمريكا حكم المنع المطلق ، فانها جديرة بالتعريف ودوام الذكرى ، وما يتذكر إلا أولو الألباب .

السكر والحياة الاجتماعية :

كان من أسوأ آثار الثورة الفرنسية التي قررت حقوق الانسان وحرية الأفراد ، انتشار بلاءين عظيمين انتشار البرق في الفضاء ، حتى لم يكن ينجو منهما في الجملة الا من يسمون في عرف الشعوب الأوربية بالأمم المتأخرة ، أو بعبارة أخرى «الأمم الاسلامية» ، وأول هذين البلاءين : الخمر ، وهي شرهما .

تمشت الخمر في الشعوب المتحضرة تمشي السم البطيء الفتك في القنوات الدموية من الأجساد الحية ، فلم تكذب تبدو أعراضها إلا بعد تمكنها من جذران الحياة الاجتماعية وقواعدها ، فكان أول من شعر بمقدمات شديد زلزالها تلك الشعوب التي جعلت الخمر شعار رقيها ، وآية مدنيتهها ، وأخص بالذكر من بينها شعوب أمريكا وأوربا الشمالية والوسطى .

شعرت تلك الشعوب المسرفة على نفسها بما أصاب أركان حياتها

الفردية والاجتماعية من الرجات المصدعة ، وتنهت بعد أحلام سكراتها
الذيذة إلى ما فعلت أيدي الخمر بأخلاق أفرادها وأبدانهم؛ تنهت إلى الأعصاب
المتوهنة ، والأدمغة المضطربة ، والآجال المتقصفة . تنهت إلى فتكها
بالحياة البيئية ، وتمزيقها ما أمر الله والطبيعة بوصله من العلاقات الأهلية
والصلات النسبية . تنهت إلى الجنائيات الفاشية والأمراض الفاشية .

تنهت تلك الشعوب إلى هذه الآثار الوخيمة ، فأخذن يحاربن الخمر
بما عنّ لهن من متنوع الوسائل . عاجنها بمضاعفة الضرائب ، واعتقال الشارب ،
واتخاب النساء في المجالس البلدية ، وتحديد نسب الكحول فيما يباع منها ،
ثم أكثرن من نشر التعريف بمضارها ، وفتاوى الأطباء في أمرها ، إلى
أشبه ذلك من الوسائل المعروفة في أمريكا وأوربا . وقد تعقب الأستاذ
اشتاینر الألماني طائفة من الأحداث التي انتجها استعمال الكحول ومبلغ
جنائيته على الحياة الاجتماعية فيها ، فلم يلبث أن ارتد على نظرية « حرية
الفرد في تصرفاته » بالنقض والتمويض ، منكرًا على عامة رجال القانون
اطلاق القول بهذه النظرية . قال الاستاذ : يقول القانونيون
مالنا وللإنسان يوقع الأذى بنفسه، ولو بلغ في ذلك الأمر مرتبة الانتحار .
إن للإنسان أن يفعل ما يشاء، مادام لا يتعدى على حقوق الأغيار، أو يضر
بالأمن العام . إن له أن يشرب حتى يموت ، كما أن له أن يذهب بعقله
وإرادته ومروءته وسائر ما قد يكون فيه من الفضائل والمواهب الإنسانية
غير محاسب ولا مسئول ، ما دام هو يريد ذلك لنفسه . أما تقرير الأمن
العام وصد الشارب عن العبث به، وكذا عن استخفافه بحقوق الآخرين،

فقد عهدت الحكومات المنظمة الى رجال الادارة والقضاء بتدبيرهما،
واتخاذ الذرائع اللازمة لها. فأما الادارة فانها تعتقل الشارب في محاجر
دوائر الشرطة، حتى يفيق من سكرته، ويسلم الجميع من شره وعربدته
فان لم يعثر عليه الا بعد الجناية أو ارتكاب احدى الجرائم الأخرى سيق
الى دوائر القضاء لينال هنالك من العقوبات ما يزره عن العودة ويحذر
غيره عواقب الاعتداء. فالقضاء والادارة إذأ كفيا الجموع البشرية ما قد
يفضى اليه الكحول من الشرور والأذى. أما رجل يشرب بين جدران
بيته أو يموت فما لنا به؟ ذلك قول القانونيين، وهو كلام يشبه الحق ويمثل
أروج صور المغالطات الجدلية؛ أما أنا فأنى أعيد أصول الشرايع التي
ما وضعت إلا لسلامة الشعوب بأن يزوج بينها بأمثال هذه الفلسفة المفضية،
الى وهن الأبدان، ونقص الانسان، واختلال الموازين العقلية، وتقويض
دعائم الأخلاق التي هي قوام الأمم وشرائط حياتها الاجتماعية.

إن من فساد الرأى أن يفرق الانسان بين الفرد والجمع، ما دامت
الجموع تتألف من الافراد، اذ بدهى انه كما تكون الافراد كذلك تكون
الجموع التي تتألف منها. فما أخلق رجال التشريع، الذين نصبوا أنفسهم
لاسعاد أممهم، أن يفقهوا أن زواجهم لا تغنى عن الجماعات شيئاً، كما أنها
لا تنفع المصالح العامة، ما دامت الافراد التي تتكون منها تلك الجماعات
مطلقة الايدى في ضروب الرذائل والمفاسد، مرسله الأعنة في دروب
الغواية والاستهتار. يسكر انسان فيحدث من الاضرار ما قد تحكم
فيه المحاكم بالتعويض أو الغرم أو الحبس «البسيط»، فهل تمنع هذه

الزواج ذلك الشارب وأشباهه من أصحاب الكحول أن يأتوا ما تزين لهم الخمر من الجرائم كبيرها وصغيرها؟ يعرف المتعقبون لما يرد على المحاكم من الأحداث التي يقارن فيها أصحاب الكحول أن زواج المحاكم لا تكاد تغني عن الأمن والحقوق العامة شيئاً، لاسيما أن من ديدن القضاء المدني الرفق بمن يقارن الجرائم وهم سكارى، بل إن كثيراً من المحاكم لدينا تقضي ببراءة هؤلاء، فلا تقيم لسيئاتهم وزناً، ولا تقدر الفعلة بنتائجها .

ولقد أعجبني ما سمعت من أن شريعة الإسلام تؤاخذ من غيب عقله متعمداً بجميع ما يخرجه من الجرائم لا تفرق بينه وبين الصاحي المتعمد . كما أنها تحرم جنائية الانسان على نفسه أو شيء من بدنه تحريمها عدوانه على غيره، ويفرق القانونيون بين اضرار الانسان بنفسه وبين عدوانه على الغير، ثم أنهم مع علمهم بأن في جميع ما يوقعه الانسان بنفسه من ضروب الأذى ضرراً بيننا للجموع، الذي هو جزء منها، لا يقولون بعقوبة من يؤذى نفسه ولو بمحاولة الانتحار، بله الحشيشة والأفيون والمرفين والكوكايين والكحول .

فليت شعري أين شديد غيرتهم على الجموع البشرية وحرصهم على سعادتها إذا ما أباحوا للأفراد، الذين هم عناصر الأمم وأجزاؤها التي يتألفن منها، تلك السموم المذهبة لروح الجماعات، وكيف لهم أن يدعوا كفاية ما بين أيديهم من الذرائع للوصول إلى إسعاد الجماعات الإنسانية؟
إنني لا أكاد أتلقى نظرية « حرية الأفراد المطلقة في تصرفهم » إلا كحديث خرافة، وسيتبين العقل البشري يوماً أمرها . ولقد سبقت روسيا

البشفية غيرها ، فضربت على الأيدي ، وأحاطت الارادات الفردية الجامعة
بكثير من القيود، غير مبالية بما زعم رجال التشريع أنه أمهات أصول
القوانين المدنية والديساتير الاجتماعية ؛ وكذلك فعلت أمريكا المتحدة، إذ
بطشت في موضوع الخمر بتلك القاعدة بطشتها الكبرى ، وهناك انقطعت
حجج الثرثارين المتفهبين الذين استخفوا بما فعلته روسيا ساخرين منها ،
ملحقيها تارة بالأمم الآسيوية ! وأخرى بالشعوب البربرية . إن على المشرعين
أن يفقهوا فشل جميع الوسائل التي قرروها لمنع شرور أصحاب الكحول ،
وحسبهم أن يرجعوا إلى ما بين أيديهم من الاحصاءات الثابتة قديماً
وحديثاً ، ليروا كيف يفعل الكحول في نشر الجرائم . فكيف فشلت
التحولات الإدارية التي قررتها الديساتير المدنية ، فلم تحم السلام العام
من الاضطراب ، ولم تق الجوع الانسانية جنائيات أصحاب الشراب .

بين يدي احصاء الدكتور « باير » طبيب سجن « بلنزير » يرينا
الحقائق المرة التي تقشع لها الابدان . فلقد وجد أصحاب الكحول المدمنين
أكثر عدداً وأذى للأمة من غيرهم ، لافي باب المخالفات والجنح العادية فقط ،
ولكن في السرقات الكبرى ، وسرقات السابلة من الناس ، و(أكثر شطار
الجيوب منهم) ، وكذلك في باب الحرائق التي يراد بها التذرع الى النهب
والسلب .

ثم بحث الدكتور فيمن اقترفوا الجرائم وهم في حالة السكر ، ولكنهم
ليسوا من المدمنين ، فوجد النسبة الى مجموع من كانوا في السجن هكذا :

٥١,٤ ٪ أوقعوا بغيرهم من الناس أضراراً بدنية

٦٨,٣ ٪ عصاة للاحكام والأنظمة الادارية

٥٥,٦ ٪ مخلون بالآداب العامة الاجتماعية

وقد وجد الدكتور « هو جو هوبه » طبيب الأعصاب في كينجر برج قبيل عام ١٩٠٧ أن نسبة من في مستشفى المجاذيب هنالك من الرجال أصحاب الكحول الى سائر من في البيمارستان ٣٠ ٪ ، ومن السهل أن يدرك الانسان مقدار ما أوقعه هؤلاء من الأذى بأنفسهم وأطفالهم وأهليهم وقومهم قبل سوقهم إلى المستشفى ، هذا فضلا عن حرمان الأمة التي هم جزء منها تنتفع بهم أو أن تسلم على الأقل من شرهم .

يحدث الكحول ضعفا في الاذراة وشللا للأعصاب ، وبذلك يضاعف الأمراض النفسية والعقلية ، فتمتخذ المحاكم من هذه الأمراض ذرائع تبررها إخلاء سبيل الكثيرين من المقارفين للكبائر والصغائر الاجتماعية ، معتبرة إياهم مرضى غير مؤاخذين ولا مكلفين ، وما كانوا مرضى ولكن أقبلوا على الكحول مختارين عامدين ، فاخلوا بأيديهم الموازين الفطرية التي ما أودعهم الله اياها الا ليزنوا الأعمال والافكار ، ويفرقوا بين المنافع والمضار ، فمادما فعلت التشريعات المدنية وأصحابها لتقى المجتمع البشرى ما يأتيه أولئك المرضى من الجرائم ، وهم كلما سيقوا إلى المحاكم لينالوا من الجزاء ما يردعهم ويجعلهم عبرة لغيرهم اطلقتهم لسبب أمراضهم العصبية ، فكسنتهم بذلك من العبث بالأمن العام والعدوان على حقوق الاغيار ، فلا هي اعتقلهم ، فكفت أقوامهم أذاهم ، ولا هي عزرتهم التعازير الرادعة بغيرهم من قرابين المؤاخذين وضحايا الكؤوس ، ولا هي قررت

عقوبة للشاربين على مجرد الشرب ؟ أكتب هذا وبين يدي إحصاء رسمي
وضعتة الحكومة الألمانية ، أرى فيه كيف بلغ استخفاف المحاكم ورجال
التشريع بما يفعله أصحاب الكحول ، ومدى جنائية هذا الاستخفاف على
الشعب برمته ، ولا بأس من اقتباسه فيما يلي :

عام	مسوقون للمحاكمة من الكحوليين	مبرأون منهم
من ١٨٩٧		
إلى ١٩٠١	٢٨٦٣٢٥٩	٦٢٥٠٢٣
١٩٠٢	٦٠٩٧٠٠	١٣٦٥٨٦
١٩٠٣	٦٠١٥٣٤	١٣٦٨١٤
١٩٠٤	٦١١٠٢٣	١٣١٨٤٣
١٩٠٥	٦١٤٩٤٠	١٣٩٧١٥

فاذا بحثنا عن النسبة منذ ١٩٠٢ نجدها هكذا :

سنة ١٩٠٢	١٨,٣ %	أى الخمس تقريباً
» ١٩٠٣	١٨,٤ %	»
» ١٩٠٤	١٨,٨ %	»
» ١٩٠٥	١٨,٩ %	»

ما ذكرناه هنا يتبين مقدار ما يصيب الشعوب من النتائج السيئة،
والاضرار الكبيرة، الناجمة عن تبرئة المحاكم لأولئك المجرمين، وإطلاق
أيديهم كلما سيقوا إليها للعبث بالمصلحة والسلام العام . ولقد كان ينبغي
للمشرعين أن يعطوا الذرائع أحكام الغايات ، فلا يبيحوا بحال ما تناول

المخدرات وسائر ضروب الأشربة الكحولية، وهم يعلمون مبلغ الأضرار التي تحدثها مباشرة أو بوسائط عاجلة كانت أو بطيئة آجلة، ولقد نجد من أمهات الأصول في مذهب الإمام مالك بن أنس وغيره سد الذرائع وإعطاء الوسائل أحكام الغايات والمقاصد. فما أجدر رجال القوانين المدنية في أوربا ومقلديها من الشعوب أن يحذوا ذلك الحذو، وأن يحرموا كل أنواع الأشربة الكحولية قليلها وكثيرها، وأزيد على ذلك تحريم استعمالها حتى للتداوى، مخالفاً في ذلك ما ذكره بعض الفقهاء، فإنه ما من مرض إلا وله من الأدوية الحديثة، بل والقديمة، ما يغني عن سائر الأشربة الروحية: كما تقف عليه في الفتاوى التالية.

سمية الكحول

يعتبر الطب الكحول وما يمازجه من الأشربة الروحية من أقسام السموم، ويراه أشد خطراً من الأفيون والكوكايين والمورفين، لما أسلفنا من أنه يحدث التسمم البطيء والعاجل جميعاً بخلاف السموم الأخرى، فإن منها ما يؤثر على الفور من تناوله ومنها ما لا يؤثر إلا بعد سريانه في المجازى الدموية، لأنه لا قدرة له على بلوغ أجزاء الجسم إلا بواسطة دورة الدم. يشرب الشارب الكحوليات، فسرعان ما تنبت في أعماق الجسم وغصونه غير محتاجة في بلوغ دقائق فلذاته وإصابة ما خفي أو نأى من ذراته إلى الاستعانة بتلك الدورة الدموية، لأنها كما قدمنا تتغلغل وتشمش غير معتمدة إلا على قوتها الفطرية وروحها الكحولية.

تتسرب الأشرية الكحولية على أثر تناولها كما هي ، فتصيب حجيرات الجسم قبل أن تتحلل ، وهناك توقع بها العطب أو تضعفها وتوهنها ، لأنها تحولها من الحالة الزلالية إلى الحالة الجبنية ، فتفقد الماء الذى هو شرط حياة الحجيرات الحيوانية ، بل حياة حجيرات سائر الكائنات الحية .

يزج الكحول بنفسه فى أعماق الجسم مباشرة محدثاً وما وصفنا من الضرر ، وقد يفارق الجسم منه بالتنفس قبل التحول والتحلل من ٥٪ إلى ١٠٪ .
وأما الباقي فإنه بعد أن ينصب فى البدن نائلاً منه ما شاء يحرق ويتحلل فى أنسجة الجسم متحولاً إلى عنصرين هما الماء والحامض الفحمى .

وقد أثبتت المباحث الدقيقة أن ليس فى حجيرات الجسم وقلذاته ما يقوى على شىء من مدافعة الكحول ومقاومته سوى حجيرات الصدرية وحجيرات الأروم المنوية ، بيد أن كنه التفاعل الكيماوى الذى يقع بين الكحول وبين عناصر البدن وحجيراته لا يزال سرّاً غامضاً على المنقبين .

يصيب الكحول جميع ما نسج منه البدن من غزل العضلات وغزل القنوات الدموية ، وغزل الأعصاب ، وغزل الدماغ والمنخ السارى فى العظام .
يصيب الكحول جميع ذلك ، فلا يسلم من بطشه شىء منها ، بيد أن أعجل آثاره وأظهرها ما يبدو من الضعف فى مراكز القوى العقلية والحس والحركة ، فإذا أخذت منه مقادير ذات بال عوقت الدماغ وما فى العنق والصلب من المنخ عن أداء وظائفها . وأول صرعى الكحول من القوى العقلية قوة الحكم وقوة التدبير والتأمل . وإذا كانت الأشرية الروحية تزيد على أثر تناولها فى نشاط أطراف الجسم للحركة ، وتستخفها إلى العيب واللعب ، فإنها لا تلبث

أن تتغشى العضلات فتثقلها بالحدروالفتور، وكذا الدماغ فتعطله وتخل بنظام مداركه، فلا يرى الشارب إذذاك إلا ما يرى المنام أو المحموم، ثم لا يلبث أن تزياله هذه الحركة، تاركة ذلك الجاني على نفسه رهين العوامل الهادمة لكيانه يتوهم بعض الشاربين أن تخفيف الكحول بالاشربة وقتله بالماء، يكسر من سورتة، ويفتر من سطوته على المجموعة العصبية، ولكن الأستاذ شيميديج قام فأثبت بطلان ما زعموا، وأبان أنه مهما بلغت درجة تخفيفه فلا منجى للأعصاب ولا لعناصر البدن من سيء تأثيره .

ولقد يفقه مبلغ ما يصيب الجسم من الأذى إذا ما فسدت المجموعة العصبية، كل من عرف وظائف الأعصاب في البدن، وأدرك أنها رسول العمل والحركة، ووسائل الإحساس، وعقد الإتصال بين القوى المعنوية والبيئات الخارجية، بل إن لها فوق ذلك من الوظائف في تدبير ما بطن من الأحشاء والغدد والحجيرات ما لا يعلم مداه سوى خالقها ومسخرها لمادبر وأراد .
وإذا كان تأثير الكحول في الجسم عامة والأعصاب خاصة ما وصفنا، كان من الهين أن نفقه مبلغ ما ينال الكحول من الحياة الاجتماعية ومدى شروره فيها .

اقتبسنا فيما مضى رأى العارفين في مدى غواية الأشربة الكحولية لشاربيها، واستدراجها إياهم في سبيل الجرائم والجنايات، ورأينا عجز دوائر القضاء والادارة عن وقاية الجموع المدنية بالغ أذاها، فلنجتزى الآن الكلام في علاقة الكحوليات بالأبواب الآتية :

١ - الصحة اجمالا

٢ - الحياة المنزلية عامة ، والزوجية خاصة

٣ - البغاء والعاهرة

٤ - التجارة والصناعة والوصلات (طرق المواصلات)

٥ - مافي خزائن بيوت مال الحكومات من الأموال

الكحول والصحة: اجمالاً :

ينحصر اضرار الكحوليات بالصحة فيما يلي :

(١) إضعاف أنسجة الجسم عن النماء وإفسادها إياها رويداً رويداً حتى تنتهي بالوفيات المبكرة .

(ب) إضعاف الجسم عن مقاومة الأمراض ومدافعتها، لاسيما ما كان منها معدياً .

(ج) الابطاء بالشفاء من الامراض التي تصيب الجسم، لاسيما الامراض الخبيثة كالزهرى وأشباهه .

(د) افساد أنسجة الأعصاب والنخاع والدماغ، فينتج اذ ذلك ما يسمى بالأمراض العصبية والأمراض العقلية على اختلاف انواعها .

(هـ) ايراث ذراري الشاربين من أنواع الأمراض المادية والعصبية ما سبق لنا شرحه آنفاً .

ولقد أحصت ألمانيا من يموتون بسبب الخمر سببية قريبة أو بعيدة فكانوا من أربعين ألفاً الى خمسة وأربعين ألفاً في العام، وفي الوقت نفسه

بلغ من كان الكحول حائلا دون شفائهم ، أو معوقاً لهم عن البرء في العام ، مليوناً ونصف مليون نسمة . وقد أثبتت احصاءات شركات التأمين الانجليزية أن الكحوليات لا تقصر بطشها على المدمنين وحدهم بل إن المقتصدین في شربها أسرع موتاً من المتحرجين مطلقاً . وكذا أثبتت الاحصاءات الألمانية أن عدد المصابين بأمراض عقلية وعصبية بسبب الكحول ، في المانيا يكاد يكون ثلث المصابين بتلك الامراض مطلقاً ، أى أن الكحول وحده يبطش بالأعصاب والعقول البشرية بمقدار ما يبطش نصف مجموع سائر العلل الأخرى .

إن سعادة الجماعات الانسانية ، واسعة الرفعة كانت أو ضيقها معقودة بمبلغ حماية ما لديها من الانظمة والقوانين للافراد الذين تتألف منهم حماية تمكن كل فرد من أداء وظائفه الاجتماعية على أكمل وجه وأصلحه ، وليس معنى ذلك مجرد الدساتير والنظم التي توضع لصد الناس وزجرهم حتى لا يعدو بعضهم على بعض في المعاملات العادية ، ولكن المراد أوسع من ذلك وأعظم .

تتألف الحياة الاجتماعية من حركات الجوارح وسكناتها ، كما أن هذه الحركات والسكنات ليست منبعثة غالباً الا عن الفكر والارادة اللذين مركزهما ومصدرهما وآلتهما معا هي المجموعة العصبية ، فمتى لم تستقم مادة وكيفاً اختل ولا شك ما يصدر عنها من الأفكار والارادة ، ثم يختل على اثر ذلك ما ينبجم عن اختلال الفكر والارادة من الحركات والسكنات وهناك لا تستمتع الأفراد ، ولا الأسر التي تتألف منهم ، بشيء من الحياة

القوية السليمة . وإذا كانت الجماعات والشعوب ليست سوى مجموع
الأسر المتألفة من الأفراد ، فكيف يستقيم أمر تلك الجماعات وتسلم حياتها
الاجتماعية من العطب أو الوهن إذا لم يكن هناك من الدساتير والنظم
الاجتماعية ما يحول بين الافراد وبين ينابيع العلل والأمراض المضرة
بصحتهم أو المخلة بنظام أمرتهم وميزان أعصابهم ، وكيف تصح وتستقيم
الحياة الاجتماعية إذا ثقل كاهلها بالأعباء الثقيلة والتكاليف الشاقة التي
تستتبعها تلك العلل والأمراض ، والتي تنفق في سبيلها ذخائر بيوت المال
وما يتفصد عن جبين الفلاح والعامل من الضرائب والمغارم ؟

تعرف الشعوب مبلغ ما يحدثه الكحول وأشباهه من المضار، ويشعرون
بما يصيب أبدانهم وقواهم من آثارها، ثم لانكاد نجد مع ذلك أمة أو حكومة
عنيت بأكثر من تبديد الأموال الغزيرة في معالجة ضحايا الكحوليات
واسعافهم واقامة الملاجىء والمستشفيات لمرضاهم ومعاتيهم . ما أصدق
الأستاذ ليرنيلين إذ يقول : « لا يكاد العامل يقتطف شهي ثمرات يده التي
تنبت قواه العاملة، حتى يجد أركان هذه القوى قد زلزلت بالأشربة الروحية
وانقلب عاليها سافلها »

إن أظهر ما تكون آثار معاول الأشربة الروحية في الجنود وطوائف
الصناع الذين تحتاج صناعتهم جهوداً ومشاق كبيرة، فان الكحوليات تنقص
من قواهم نقصاً بالغاً، وتوهنها عن النهوض بما تحمل كواهلهم من الأعمال
الشاقة . ولقد ترى المعديين في الجبال يتحرجون عنها فلا يقربونها، قلت
أو كثرت .

حدث في برلين عام ١٨٩٠ حر، لم يكذب يعرف لشدته مثل في تاريخها،
فلقد أجهد عمال المصانع والمزارع، وكشف عن مبلغ طاقة كل عامل، كما فصح
مزارع أصحاب الكحول ووهن حجبتهم، إذ قالوا إن الأشربة الكحولية
تذهب النصب وتجدد القوى وتريح الأعصاب المجهودة. وليس لدينا في هذا
الباب أبلغ من تقرير لمهندس أعظم مطاحن برلين نشره إذ ذاك، حيث يقول:
اشتد الحر في اليوم الثاني من أغسطس حتى بلغ ٣١ درجة، استمر
عمالي يحملون ويجرون ويخبزون، وهم بين النيران المتسعة في الأفران
والنيران المندلعة الألسن من السماء. اشتد الحر، حتى خيل إلينا أن برلين
انقلبت جزءاً من قلب أفريقيا، ولكن رجالى لم ينفكوا يشتغلون. لقد
يتوهم أن هذا كذب أو مبالغة، ولكنها الحقيقة الصريحة التي لا يصعب إدراكها
ذلك أنني لم أتمكن هؤلاء الرجال من شيء من الأشربة سوى ماء أحلى
بالسكر وشيب بقليل من الخل. ولقد رأيت عملة الأقسام الأخرى، الذين
استباحوا الجعة (البيرة) وأشبابها من الأشربة، قد تركوا أعمالهم عجزاً
ووهناً، فلم يستطيعون معالجتها إلا غراراً.

ونشرت جماعة المباحث العقلية والنفسية في مونيخ حديثاً تقريراً جاء
فيه: (إن الأمراض التي كانت زالت، أو كادت تزول في خلال سنوات
الحرب، بسبب تحريم الخمر، أخذت تزداد أعراضها ظهوراً بعد الهدنة رويداً
رويداً. كان بمستشفى الأمراض العقلية بمونيخ سنة ١٩١٠ من المرضى ٣٠٠
وفي سنة ١٩١٤ منهم ٥٧٧، فلما حرمت الخمر على أثر إعلان الحرب أخذ
عددهم يتراجع ويتناقص حتى لم يتجاوز ٤٣ في سنة ١٩١٩، ولم يتعد متوسط

المسوقين إلى ذلك المستشفى في الشهر الواحد أربعة نفر، فلها وضعت أوزار الحرب عاد الناس سيرتهم الأولى، وأقبلوا على الخمر ثانية، ففي سنة ١٩٢٠ بلغ العدد ٧٢، وفي ١٩٢١ بلغ ١٢٨، ولقد كان المجلوبون إلى الملجأ في شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ ثلاثة أفراد فقط، فبلغ المتوسط الشهري ١٢ في سنة ١٩٢٠ و ٢٨ في سنة ١٩٢١، وكذلك ترى عدد المجلوبين إليه في الأشهر الخمسة المتعاقبة التي مبدؤها شهر أكتوبر سنة ١٩٢٠، يتصاعد هكذا ١٦ + ٢٧ + ١٨ + ٢٤ + ٣٩، وأكثر هؤلاء من شراب الجمعة البفارية، ويخشى أن تطرد هذه النسبة التصاعدية في الأمراض العصبية والعقلية، حتى يعود ما كان قبل الحرب من الاختلال والعربدة والجنايات التي هي ثمرة المشروبات الكحولية.

ونشر طبيب المسابقات الرياضية الدكتور « هر كيه بمر » في مجلة مونيهخ الطبية الأسبوعية ما يلي: « دلت المشهودات التجريبية وأثبتت أن تأثير الأشرطة الروحية أبلغ وأشد مما دلت عليه الأبحاث العلمية الكيماية، ولقد طبقت تجارب على أشخاص متعددين انتخبوا لقطع شوط مائة متر جرياً وسبحاً، بعد الفحص عن أحوالهم البدنية واختيارهم من بلاد تشابهت أجواؤها وطبائعها، فكانت النتيجة أن الأشرطة الروحية، مهما قل مقدار المتناول منها إذا احتسيت قبل المسابقة أضرت بالقوة الجسمية ضرراً بليغاً، وبذلك ثبت بطلان ما كان يتوهم من أن شرب القليل من الكحوليات قبل المباراة يزيد الجسم نشاطاً ويعينه على الغلب. وبالطبع لاتهم هذه النتيجة المشتغلين بالمسابقات الرياضية فقط، بل إنها تفيد جد الفائدة طلاب قسم الفسيولوجيا

المختص بالعضلات والأعصاب، كما أنها ضرورة المراعاة والتطبيق في المدارس
التجريبية والعالية جميعا، لا سيما مدارس الصناعة والهندسة .
تصدى في الأزمنة الغابرة أناس للتنفير من صنوف الخمر، مستندين
في تبشيرهم وتحذيرهم إما إلى ظاهر أضرارها، وإما إلى أنها من العبث الذي
لا حاجة إليه والذي تصان عنه أفعال العقلاء . ولم يكن يبلغ العلم بهم إذ ذاك
مبلغه بأهل هذا العصر، فما كانوا ليقدروا على معرفة ما يصيب البشر من شربها،
ولهذا نجد العصر الواحد كان يجمع بين سقراط أو أفلاطون أو أشباههما
من أساطين الحكماء الذين أبغضوها وبغضوا فيها، وبين ما لا يحصى من الخاصة
والعلماء الذين عشقوا جامها واستعذبوا مذاقها واستطابوا أحلامها، ثم لم
يجدوا في عظات الحكماء وحججهم ما يزع ميول نفوسهم، ويكبح جمحات
شهواتهم فيقيمهم شر غوائلها ومنصوب جبايلها، ويدرأ عن الحياة الاجتماعية
بلاها وأذاها، اللهم إلا ذلك القانون الذي وضعه كيكورج، فخرم به المباشرة
بين الزوجين في حالة السكر، فاعتبره التاريخ من أحسن قوانين الصحة القومية
والاجتماعية، ولو لا النذر القليل الذي جاء به الشاعر هو ميروس في وصف ما قد
تزين الخمر لشاربيها من الانتحار أو غيره من ضروب الأذى، لما عرف عالم
الشعر العتيق سوى آيات تمجيدها، وفاتن مانحيتها من الخصائص والصفات .
وبالاختصار لم يقص علينا التاريخ القديم، ولا تاريخ القرون الوسطى، غير
اسم رجل واحد أدرك خفايا شرورها: وقرر رجحان اثمها على ما يعزى من
النفع اليها، ثم بين للناس باسم « الله والدين » أنها رجس من عمل الشيطان
لا فلاح للإنسان إلا باجتنابه . ذلك محمد « رسول الله صلى الله عليه وسلم »

فلقد صدق الحملة عليها حتى عدّها أصحابه في كبار المنكرات وسموها أم الخبائث ،
ولكن مئات الملايين من غيرهم ما انفكوا يمجّدون ذكرها، وتطير أحلامهم
لذكرها غافلين عما تفعل أيديها في أبدانهم وآجالهم وسلاياتهم .

يقولون إن الكحوليات مؤلفة من الفحم والاكسجين والماء ، وما هذه
العناصر سوى مواد ضرورية لتوليد الحرارة اللازمة للجسم ، وقد ضربوا
الأمثال بغيرها من الأجسام المشاركة لها في التآلف من المواد الاحتراقية
كالسكر والأدهان والمواد النشوية .

ضربوا تلك الأمثال، ونسوا الفرق الواسع الذي بين الكحوليات وبين
هذه الأجسام .

فهموا أن العناصر التي تتآلف منها الخمر تكسب الجسم حرارة متى احترقت
ولكنهم نسوا أن أذى الخمر وآثارها التسميمية تحصل على أثر شربها، أي
قبل أن تتحلل إلى تلك العناصر المفيدة للجسم، بخلاف السكر والدهن
والأشياء النشوية .

يعتمد الغافلون، في تأييد أوهامهم هذه، على ما يحسه الشارب عقب
التناول من الحرارة، ولكنهم تنكبوا عن الصواب، وأخطأوا في الحساب،
فلقد ثبت أن جسم الشارب لا تزداد حرارته أصلاً، كما يدل على ذلك
امتحانه بالترمومتر، ولكن الكحول يوسع العروق والأوردة الشعرية
المنبثة في سطح الجسم، فيسارع الدم من داخل الجسم إلى سطحه، ليملاً
ما حدث فيها من الفضاء، حاملاً معه حظاً كبيراً من الحرارة، وأكثر القنوات
الدموية تأثراً ما كان منها منبثاً في وجه الانسان، ولذلك يكون وجهه

الشارب أشد الأجزاء احمراراً وحرارة . ولما كانت الحرارة التي يجلبها الدم الى سطح الجلد أشد من حرارة الهواء المحيط به، يحس الشارب بانخفاض درجة حرارة الهواء عن حرارة سطح جلده، فيحسب أن الحرارة عامة في جسمه، وأن مبعث شدتها ما تناوله من الخمر، ولا يكاد الشارب يتنبه مرة واحدة الى سبب ما يحسه في أكثر الاحوال من مسارعة البرودة الى جسمه، وشعوره بقشعريرة سارية في أعماق بدنه على أثر انصراف مقدار كبير من الحرارة الى سطح الجلد .

ولكون الكحوليات كما أسلفنا لا تحترق في الجسم الا بعد أن تؤتية ما طبعت عليه من الأذى، ألحقها الأطباء بفصيلة السموم، ولم يفرقوا في اطراد آثارها بين قليلها وكثيرها .

قد يستخف أنصار الشراب بما تفعل معاول الخمر في الصلات الزوجية، ثم يتغافلون عما يعقبها من تهير صروح العيلة، وهم أنفسهم المبتلون بالمر من فواجع نتائجها . انتهى

يتناول الرشيد الكأس، فلا تكاد تلمس شفثيه حتى تنفخ فيه من روحها نفخة تفك عقال عقله، وتنكث مبرم عزمه، ثم لا تعتم أن تنشبط به الى منازع الشهوات ومصارع الأهواء، فلا عجب أن يستهين إذا بما استودع من حقوق زوجته الغافلة، وهي في خدرها تحفر ذمامه وتفي بعهده، وقلما عرف من الشاربين من عف عن غير زوجته، أو أدى تكاليف بيته على النحو الواجب، وذلك لأن مجالس الشراب تلعب بالرؤوس وتعبث بالأحلام، وتثير الميول الشهوية، وتحول بين الأنفس وبين ما قد تكون

التربية أو الدين أكسبها من الوزعة والروادع، ثم أنها مع ذلك تنسى
الشارب في نشوته كل شيء إلا ما هم به واستطابه لوقته، فلا تمكنه من
التفكر في زوجة أو ولد، ولا تذكره بميثاق ولا عهد. تجمع مجالس الشراب
إلى مؤنثها خفاف الأحلام من الرجال والنساء، لاسيما مجالس الضيافات
والأعياد والأندية، حتى إذا فك الكحول معاهد الألسن، وزحرح عن
الوجوه أغشية الحياء، وملا الرؤوس بلذات الأحلام، ضاقت صدور ضحاياها
عن نذر الحكمة والرشاد، وصمت أسماعهم عن داعي الكياسة والسداد،
فسلس اقتيادهم إلى مصارع الأهواء والشهوات. تعرف الزوجات من
أمر أزواجهن السكيرين جميع ما وصفنا، ولكن لا يزلن يدافعن عوامل
الغيرة عليهم، تارة بالفرق من الطلاق، وأخرى بالفرع من شرهم عن
مناقشة الحساب، ثم لا يفتأن يتسلين طورا بمغالطة الأتفس، وآخر بما
يشعرن به من العجز عن معالجة ما فسد من أزواجهن، وبالجملة لا يزلن
كذلك حتى تهن عزائمهن، فلا تلبث هوجاء الغيرة أن تدفع بهن في أوعر
المسالك وأخطرها، تدفع الغيرة النساء إذا ما عيل صبرهن (وما
أشدها فيهن) تدفعهن إلى الانتقام من أزواج صرفهم الكحول عن
الوفاء لأهليهم، ثم قبض أيديهم عن الانفاق في سبيل مرافق زوجاتهم
وأولادهم، فلا يدعن ذريعة يرين فيها إطفاء لبغض غليل صدورهن
إلا فعلنها. وإذا بلغ الكحول بالزوج والغيرة بالزوجة ما وصفنا، فإذا
عسى أن يكون حظ من ينبت بينهما من الأولاد، وماذا عسى أن تكون
مصائرهم؟

لاجرم أن في كدارة العيش المنزلى ، وفقدان الزوجين للهودة والرحمة
والسلام، ما شئت من العلل والأسباب المفضية لاحالة إلى تعس الأولاد
وشقائهم ، ونكد عيش الأمة التي تبتلى بهم .

ترمى الأشربة الروحية البيوت بصنوف المحن، وتبتليها بالمنافرات والفتن،
فلا تفضى فيها خصام إلى سلام، ولا تقف مجادلاتها عند حدود الكلام، ثم
قلما سلمت أطفال البيت من الشر المتطايروالشرر والصدام الذي لا يبقى ولا يندر.
امتحن الدكتور منكمولر أحداثا انتزعتهم الحكومة الألمانية من
أيدي أهليهم الكحوليين ، فوجد في رؤوس أكثر من ثلثهم آثار جروح
أصابها بهم أهلوهم وهم سكارى .

وبدهى أنه متى توهنت عقدة الزواج المقدسة، كان من الخطأ أن يرجى
دوام وجودها ، كما أن من الحق الظن بسلامة الذرارى الذين تنسلهم تلك
العشرة المتوهنة من أقسى الأمراض والعلل البدنية والنفسية جميعاً .

إن أسرع ما يطبع عليه طفل ذلك الزواج الحشن من الأخلاق عدم
توقير أبويه اللذين نسلاه ، فيشب بالطبع على الاستخفاف بغيرهما من سائر
الناس ، لأنه إذا لم يكبر أبويه ، وهو يعلم أنهما مصدر وجوده وعماد حياته،
فأخلق به أن لا يجمل ولا يوقر من لارحم بينهم وبينه من سائر الناس .

ذلك ، ومن أمهات المسائل المنزلية التي يجنى عليها الكحول تدير المنزل
وسياسته . أتى (جروبر) و(كربين) في جداول لها في هذا الباب بحقائق دامغة
وإن كانا لم يتعرضا فيها إلى البيوت المدمنة إدمانا .

ترى في تلك الجداول أن ١٧ بيتا من بيوت الطبقة الدنيا القروية يبتلع

الكحول من دخل العائلين لها كل سنة ١٢,٣٪ وهذا المقدار لا يقل عن ثلث ما ينفق على تغذية البيت الواحد إلا بشيء زهيد، بيد أنه يزيد على مجموع ما يدفع في أجر السكنى زيادة فاحشة .

نعم أن الصناع البرلينيين أحسن حالا في الجملة من أولئك القرويين من أهل (بادن) ، فلقد أنتج البحث في ٢٢٧ بيتا امتحنت بدقة أن متوسط ما ينفقه البيت الواحد على الكحول من دخل العائل ٦,٩٪ ، ولكن ليس معنى هذا أن إضاعته ذلك المقدار لم تفلج به السياسة المنزلية ، فانه على زهادته النسبية أكثر في الجملة مما ينفقه ذلك البيت في الاضاعة والتدفئة، ثم هو أفحش جداً من مجموع ما ينفق في سبيل الملابس عامة . وإذا كانت تلك النتائج السيئة ناجمة عن تصرف المقتصدين من الشاربيين ، فماذا يكون مصير تدبير منازل المدمنين الذين لا يرضون على الخمر بما تشاء من أجورهم على ضآلتها غالباً، أولئك الذين يستوفون أجورهم الاسبوعية في مساء السبت، ثم ينطلقون قبل رؤية منازلهم إلى ما اعتادوا من المواخير ، فيضحكون حول دنانها مما لا يستخف به من أشطار تلك الأجور ، وربما استخفهم الشراب إلى مخادع البغايا والصواحبات أو مكان الميسر والقمار (وهناك الطامة الكبرى) فلا يعودون إلى زوجاتهم إلا بالنزول اليسير مما قبضوه قبل ساعات من دخولها، تأخذ الزوجات ما احتجب عن أعين الكحول من بقايا أجور أزواجهن، فيبدأن بأداء نفقات الاضاعة والغاز والماء والسكنى، ثم يثنين بابتیاع الأوقات اللازمة لأفراد البيت ، وكثيراً ما تضيق رقعة تلك البقايا عن جميع تلك الحاجب الحيوية ، فلا يسع الأمهات سوى النقص من مقادير الأوقات

الضرورية، وهنالك تبدأ أيدي الوهن والضعف تعمل في أجسام الأطفال
والأمهات جميعاً .

ومن النساء من يشعرن بضرورة العمل في المصانع والحوانيت، ليسدن
بعملهن ما ينتج في بيوتهن من أبواب العوز وخروق الحاجة، ولكن هل
يغني ذلك شيئاً ؟

لقد شوهد أن أصحاب الكحول من الآباء، متى رأوا أزواجهم يستعجن
بشيء من العمل، لا يلبثون أن يقتطعوا من جراية البيت (ما أجره عليه
من الرزق) مقدار ما تناله أيديهن، فلا يرتد إزاء ذلك على المنازل من عمل
الزوجات خارجها سوى التضحية بشمين الزمن اللازم لتدبير الأطفال وتدبير
أنفسهن وأزواجهن .

وإذا كان من النساء من يعهدن بأطفالهن خلال غيبوبتهن عن المنازل
إلى الجارات والصدىقات، فإن السواد الأكثر يتركن أفلاك أكيادهن في أيدي
الشقاء واشتراك العطب والفساد، ولذلك تضطر الحكومات اليقظة إلى انتزاع
هؤلاء الأحداث من بيوتهن فتدخلهم فيما أعدت لأمثالهم الأشقياء من
الملاجئ ومكاتب إصلاح الأحداث . ولقد توهم يوماً ما أن الزيادة في أجور
العمال قد تصلح من أمر منازلهم، وتمكن الأمهات من توفير ما يلزم المنازل
من أسباب الراحة، ولكن التجارب أثبتت أنه كلما زادت الأجور ازدادت
البيوت شقاء وعنتاً، لأن نماء الأجور يضاعف ميول العمال إلى الاستزادة
من الشراب، وكذلك الشأن كلما لجأت الأمهات إلى استدرار الرزق بما في
هو سوعاتهن من الوسائل الأخرى، فلقد تعمد الأم إلى ما في منزلها من الغرفة

أو اكسار البيت فتؤجرها من كل مستفتح، تقصد بذلك استتجام ما قديدفع
عن أولادها سورة الحاجة، ويقيهم عضة العوز، وهنالك تضطر أن تحشر
نفسها وزوجها وسائر أولادها في غرفة واحدة، أو كسر غرفة، تاركة ما بقى من
المنزل أو الفراش لأولئك الغرباء الذين كلهم أو جلهم من العاطلين وذوى
الأخلاق المتفسخة، فهل يجهل إنسان نتائج ما يكون إذ ذاك من ضيق المخادع
واكتظاظ المراقد، وفرط التماس بين أهل البيت وبين المختلفين اليه من أولئك
الأجانب المجهولى الحال .

أما حرمان أهل ذلك البيت من أكثر أسباب الراحة، وديب عقارب
الغيرة والريبة بين رئيسيه بحق أو بغير حق، فانهما أسرع ثمرات تلك الضرورة
ظهوراً، وأشدّها مرارة وغصة . وخليق بنا أن لانغفل هنا وصف ماتجنى
الكحوليات على المعارف والمعلومات العامة فى تلك البيوتات الساكرة،
فلقد شوهد فيها أن ماتنفقه فى سبيلها لا يكاد يبلغ خمس ماتجود به على الأشربة،
ولا يكتفى الكحول بازدراد حظ كبير مما يجب أن ينفق على الترية والمعارف
(المدرسة والكتب والجراند)، ولكنه كما اقتبسنا آنفأ يوهن القوى البدنية
والعقلية فى الشاربين من أبناء ذلك البيت، حتى يعوقهم عن النماء والتكامل .
جاءت بذلك احصاءات المدارس الابتدائية والثانوية جميعا . وأما فى المدارس
العالية فان الأمر غنى عن الدليل، فىكم أفضت قوازين جماعات الطلبة هنا
(فى المانيا) إلى نتائج مؤلمة فاجعة قاضية على مستقبل كثير منهم بالادبار
والخيبة . تضطر تلك القوازين، حتى من لم يذق الأشربة الروحية، أن يندمج
فى سلك ضحاياها، وأن يشرب من كؤوسها وأقداحها ما قرره قانون الجماعة

التي يعتزى اليها . هنالك تتغشاهم الأمراض ، وتضعف قواهم عن مقاومة العدوى، ثم يتفشى فيهم التخلف عن الدروس والخيبة في الامتحانات . يعرف جميع ذلك من خالط تلك الطبقات في المانيا، وراقب مايفعل الشباب الأخرق بنفسه وبأمتة في بلاد العلم والمدنية، وعصر الأدب والنور .

الكحول والحياة التناسلية

قال الاستاذ كيخ الطبيب الألماني الشهير : ليس لمن يرون البحث في الخمر أن يتساءلوا عما فيها من الفوائد للجنس البشري ؟ أو مقدار ما ينبغي تناوله منها للتداوى ؟ أو على أي نسبة يجب أن تكون مقادير الكحول فيها ؟ ولكن يجب ان يستفتى العلم والاحصاءات عن أنواع جنباياتها على الانسان، فرداً كان أو جماعة . أن المشروبات الروحية ليست الا جيشاً من الأمراض، المعضلة وينبوعا يفيض به مختلف الجرائم . ثم هي طاعون يتلف الذر قبل التخلق ، أو يقتل الجنين خلال الحمل أو الوضع ، ومن ولد من هؤلاء حياً عاجله في أذاه بمهده، وإذا قدر له أن يفلت من فتسكه وهو في المهدي فانه سيعيش معرضاً للأمراض المعضلة أو العاهات الملازمة .

أما تأثيرها في أبدان شاربيها ونفوسهم، فانها تنهك قواهم، وتضعف علمهم، وتقلل عملهم، وتميت ارادتهم، وتضعف فيهم الشعور بالتبعات العامة والخاصة، ثم هي تظاهر الأمراض الخبيثة كالزهري والسيل على المصابين بها، فإما أن تعجل بآجالهم، أو تعوق عنهم شفاءهم . وبما أن استقصاء الكلام في هذه الجزئيات يقتضى ضخام الجلود، فإنني أجتزئ هنا بالبحث في آثار

تلك الآفة في الحياة التناسلية، لما فيها من عظيم الخطر على عدم تنبه
الناس اليه .

للاستاذ «نكلو» تجاريب قيمة، عرف بها تأثير الأجسام الغريبة فيما في
الأبدان من الألياف والخلايا والغدد والسوائل التي تفرزها تلك الغدد .
ومن نتائج أبحاثه هو والاستاذ « برطهوليت » وغيرهما أن للكحول
تأثيراً واضحاً في أجزاء الانسان المفترزة لمياه التناسل ، فانه يفسدها ، فلا
يجعلها صالحة للتخلق ، وكثيراً ما امتحنوا مياه التناسل الحيوانية، بعد اعطاء
أصحابها الكحول، فوجدوها إما خلوا من العدسات الذنبية التي يتخلق منها
الحيوان، أو تحتوي منها على ما لا يصلح لتكوين الثمرات الصحيحة القوية .
ولقد أجمل الأستاذ « برطهوليت » فيما يلي ما شاهدته في كثير من
الجماعات الانسانية (١) يموت شرابو الكحول أصغر سناً من غيرهم . (٢)
إصابة الضعف والعطب لأعضاء الشراب أسرع منها إلى أعضاء غيرهم .
(٣) ٨٦ ٪ من المياه التناسلية توجد خالية من كثير من الأروم الانسانية
(العدسات الذنبية) . (٤) إن تجرد المياه التناسلية من الأروم الانسانية
يصيب شراب الكحول قبل غيرهم بزمان طويل . (٥) مما يفعل الكحول
بمياه التناسل أنه إذا شربته المرأة فإنه يفسد البويضات التي هي شرط
لتخلق الجنين .

* * *

مما تقدم يفهم الناس سر شقاء كثير من المتزوجين ، ونكد عيشهم ،
بسبب حرمانهم الأطفال، ويتجلى كيف يظلم الأزواج بعضهم بعضاً ، ويتهمم

أحدهم الآخر بالعقم ، وما هو في الحقيقة عقم ، ولكنه سفه الأحلام ، وتناول
 السموم القاتلة للأروم ، ولقد أثبتت المشهودات الميكروسكوبية أن
 بين مقادير الأروم في مياه أصحاب الكحول وغيرهم بونا واسعاً وفرقاً
 عظيماً، فإن ما يفقد من أروم القسم الأول يبلغ ٥٥ ٪ مع أن نسبة ما يفقد
 من القسم الثاني لا يكاد يتجاوز ١٥ ٪.

يغفل الناس عن ذلك الداء الدفين ، ويزيدهم إغراء وإقداماً على
 تلك الآفة ما يتوهمونه من انتعاش أجزاء الجسم عقب تناول الخمر، ونشاط
 الوسائل الشهوية وآلاتها، ولو أنهم درسوا العرفوا مبلغ ما تجنى عليهم
 أنفسهم تلك الكؤوس، بل وعلى من قد يرزقون من الثمرات والذرية .
 راقب الأستاذ «سوليفان» آثار المشروبات الروحية في ذراري أصحاب
 الكحول، فسجل بعض مشهوداته في الجدول الآتي، مقايساً بينهم وبين ذراري
 المسولين وذراري أصحاب غير شاربين .

النسبة إلى مائة طفل	الأصحاب الكحول	للمسولين	للعاديين
مات في حالة الوضع	٥,٢	٣,١٠	٢,٧٩
في الشهر الأول	٦,٣	٤,٢	٤
من شهر إلى ٥ أشهر	٧,٧	٦	٤,٨
من ٥ أشهر إلى ١٢ شهراً	١١,٢	٥,١	٦,٣
من سنة إلى ٥ سنوات	١٤,٦	٩,٣	٥,٧
المجموع النسبي	٤٥ ٪	٢٧,٦١ ٪	٢٥,٣٩ ٪

ولقد شاهدت أنا (الدكتور كينج) إنه بينما ٩ ٪ من الازدواجات الصحية العادية محرومة من الأولاد، نجد ١٤ ٪ من ازدواج أصحاب الكحول لا تثمر. ويحمل بي أن أقص مثلاً أورده الدكتور «شواقهوفر» على امرأة صحيحة البنية لا تشرب المسكرات، تزوجت ثلاث مرات على التعاقب، فأما الزوج الأول، وقد كان صحيح البنية لا يشرب أيضاً، فقد أولدها ثلاثة أولاد أصحاء لا عوج في أخلاقهم ولا عاعة في أيديهم، فلما قدمت عنها تزوجت برجل من أصحاب الكحول، فولدت له ثلاثة أيضاً مات أولهم شاباً بالسل (ولم يكن لهذا المرض أثر من قبل في ذلك البيت) بعد أن سرف في الشرب كأبيه، فاما الولد الثاني فانه ألحق بأصحاب الكحول وشرار الناس كما فقد الهمة والمروءة، وأما الثالث فقد ضيلاً مضطرب الأعصاب، وارثاً عن أبيه بعض الأمراض، ولكنه لم يذهب مذهب أبيه وأخويه في الشرب، ولعل سبب ذلك أن ضعفه ومرضه اللذين ولد بهما اضطرا أبويه إلى العناية به وتجنبيه للشرب وغيره من كل ما من شأنه مضاعفة علله وزيادة ضعفه. فلما مات الزوج الثاني، تزوجت بثالث، وكان صحيح البنية غير سكير، فأولدها أيضاً ثلاثة أصحاء.

في هذا المثل، وما لا يحصى من أشباهه، يرى المتدبر كيف يفعل الكحول بالذراى، وكيف يجنى الآباء والأمهات على أفلاذ أبادهم بتناول ذلك السم الزعاف. ولقد يكون أصحاب الكحول آونة أكثر ولداً من غيرهم، ولكنهم مع ذلك يقدمون بأيديهم الأثيمة جلمهم قرايين لهوت، وهم أجنة في البطون، أو صغار في المهود، أو يجعلون

من أبدانهم مراتع للجراثيم الفتاكة، ومعارض للأمراض المتنوعة، إذا ما طالت حياتهم.

وأحصى الأستاذ مه (في برن : عاصمة سويسرا) أولادا نبتوا في بيوت مدمنة وبيوت متأمة (أى ممتنعة عن ذلك الإثم)، ووازن بينهم عددا وعافية فوجد ٨٢٪ من أولاد المتأتمين عاديين في أبدانهم وأطوارهم، وأما أولاد أصحاب الكحول فقد كانوا ١٨٪ عاديين، و١٢٪ ماتوا من ضعف صغار، و٨٪ بلها، و١٣ مصابين بالصرع، و٥ حدثا، و٥ ذوى عاهات مختلفة، و٥ مسرفين فى الشرب مع ضعف فى أعصابهم أو إرادتهم. وقد امتحن المسيو ليجران فى باريس ٢١٥ أسرة من ذوات الكحول بها ٨١٤ ولدا فوجد بالنسبة إلى المائة ٢١,٧ ماتوا خلال الولادة، و٨٧,٦ عاشوا ولكن بأمراض وعلل مختلفة، ومن العائشين مطلقاً أو ضعاف العقول ٥٠,٣ بلها و٣٠,٨ سكيرين و٢٧٪ مصابين بالنقرس والآلام العضلية، و٢٢,٠٧٪ ذوى أمراض نفسية عامة، و٢٠,٤٪ بالصرع أو الاضطرابات العصبية، و١٤٪ بالسلس أو أمراض أخرى عضوية، و٩,٧٪ جناة و٦,٦٪ مصابين فى الطفولة بالتهاب مخية.

* * *

على أن من آثار الكحول أيضا إضعاف الغدد المفرزة للبن فى أثناء البنات اللاتى يولدن لآباء يشربون الكحوليات، فان بنت صاحب الكحول كثيرا ما تفقد اللبن رأساً إذا هى كبرت وولدت، أو يقل فيها اللبن إذ ذاك الى درجة لا تكفى الطفل؛ ولقد دلت التجارب والاحصاءات على ارتباط لبن البنت بكون الأب من أصحاب الكحول أو غيرهم ارتباطاً مطرداً، فقد

فحصت أسرفيهن الأمهات لا يشربن الكحول وافراز أثدائهن للبن عادى،
ولكن الآباء فيهن أربعة أقسام (١) متحرجين (أى لا يشربون أصلاً)،
و (٢) مقتصدين (أى يشربون بلا إسراف) ولكن فى أوقات معينة،
و (٣) مقتصدين لا يتقيدون بوقت، و (٤) مدمنين .

فكانت النسبة المئوية فى مقادير لبن بناتهم هكذا :

عاديات الافراز اللبنى :

٥٦,٧	من بنات المتحرجين (١)
٣٤,٧	من بنات المقتصدين (٢)
٦,٨	» » المقتصدين (٣)
١,٨	» » المدمنين (٤)

أما تأثير ذلك فى الأطفال الرضع فإن الطفل إذا خف لبن أمه أو قل،
فانه إما أن يلجأ به الى المرضعات اللاتى تكاد تخفى آفاتهن، وإما أن يغذى
ذلك المسكين بألبان الحيوان أو بالألبان الصناعية الكميوية وهنا الطامة
الكبرى؛ فقد دلت الاحصائيات التى وضعت حديثاً فى المقايسة بين من
ترضعهم أمهاتهم وبين غيرهم من الأطفال على أن كثيراً من هؤلاء يموتون
قبل الفطام، ومن يفلت منهم من يد الموت فانه يشب ضعيفاً، كما أثبتت ذلك
أيضاً الأبحاث الطبية التى تجرى خلال التجنيد العسكرى .

ذلك اجمالاً ما تجنى الخمر على الذرارى والحياة التناسلية عامة، أما آثارها
السيئة فى أبدان شاربيها وفى الحياة الاجتماعية، فانها أكثر من أن تحصى، وقد
سبق سرد كثير منها .

الكحوليات والبغاء

من أشوه أمراض الحياة المدنية التي انشرتها القوانين الانقلابية في القرن التاسع عشر، ثم اعتبرتها بعض الأمم الغربية من أظهر آيات الحضارة الراقية، ذلك المرض المرذول، وهو البغاء والعهارة .

انشرت المدنية الغربية تلك الآفة الاجتماعية، مستندة في ذلك إلى ما ابتدعه شارعوها من أصول القوانين المحدثه، ولم يكمد يسلم من عدواها إلا قليل من أمم أوروبا كإنجلترا . ولقد كان المرجو من أمم الشرق الاسلامية ألا تحذو حذو الغرب في بدعه المعوجة ومستحدثاته المرذولة، وأن تجد من دينها، الذي جاء لتتميم مكارم الأخلاق، ما يزعها عن التشبه بالغربيين في رذائلهم، ولكن إفتتان الشرق بلوامع المدنية المادية، وصنوف الفلسفة اللاحادية التي انبعثت من الغرب منذ القرن التاسع عشر، هونا على تلك الأمم كثيرا من الآفات الاجتماعية والأمراض النفسية والعلل الدينية . وجاء في مقدمتها جمعاء آفة البغاء لما لها من التأثير الكبير في مرضاة الميول الشهوية النفسية . ولهذا المرض من النتائج والآثار ما لا يستوعبه أمثال هذه العجالة، فلنجتزىء هنا بالكلام في مبلغ علاقته بالكحوليات التي نحن بصدددها.

إن من أهم أسباب انتشار البغاء في الجموع المدنية إهمال الآباء أمر العناية بأولادهم، أو غل اليد عن تعهدهم بما يلزم لهم من المرافق والحاجات الحيوية . وقد أسلفنا أن البيوت الشاربة تنفق في الكحوليات من دخل عائليها

شظراً كبيراً، فلا يكاد يبق ما يبقى من صبابة اجورهم بما لا بد منه في تربية ابناءهم وبناتهم . وهنا تجتذب أيدي الضرورة والحاجة فتيات تلك البيوت، لاسيما حسان السحنة منهن ، إلى التماس أسباب الرزق من بعض الوجوه ، فلا يجد أكثرهن من الشفعاء والوسطاء ما يضمن لهن حياة خفضة مطمئنة ، والنفس بالطبع مفضولة على الرغبة في العيش الناعم والنفور من حياة التعب والنصب ، فتمت وجد الانسان من الأسباب الخفيفة ما يوفر عليه رغائبه تقاعد عن التطويح بنفسه في مشاق الأعمال وصعابها .

والنساء من هذا الباب أشد إفراطاً من الرجال، فان فيما حجب اليهن من الحياة الزوجية، وفيما تصبو اليه نفوسهن من الأمومة ما يبغض اليهن كل ما من شأنه ابعادهن عن تلك الرغائب من المهن والحرف وسائر الاعمال المتعبة . كما أن في ذينك السبيين ما يجعل أدوات الزينة والتطرية وآلاتهما في ضروريات حياتهن وأركان وجودهن الاجتماعي . لا فرق في ذلك بين نساء المدائن ونساء القرى والبوادي .

ولا يخفى ما يتولد عن ذلك من زيادة حاجة المرأة إلى المال وورودها غالباً كل ما يتلوح لها من ينابيعه، وهنا تتقدم الأشربة الكحولية فتستوفي حظها من الغواية وتزيين السوء وترويح الفساد .

يستدرج الفتيان أولئك المعوزات بما بين أيديهم من صنوف الغواية والتزيين، ثم يستجيبون على مستعصهن أولاً بمخفف الشراب وبما تسخو به أيديهم من الهدايا ويسير المال ، فلا يلبث أن يهوى بهن الكحول في تلك

الأيدى الآثمة، التي لا هم لها سوى مرضاة الشهوات البهيمية ، ولو باستيقاق
الشريفات العفيفات إلى معاهد البغاء وأوكر الضعة والشقاء .
هنالك يتداولن تداول الأمتعة ، ويفقدن ما جمل الله به الإنسان من
الكرامة والعزة .

ذلك، ومن الآباء والأمهات من يجعلون شقاء فتياتهم فيبيعونهن من
بيوت الفجور على النحو المعروف الآن « بالرقيق الأبيض » ، فلا يجد
الكحول إذاً كبير عناء في مناجدة الفجرة من الرجال وانجاز ما تصبو
نفوسهم إليه من المآرب والحاجات .

ولقد أثبتت الإحصاءات أن أكثر ضحايا البغاء والعاهرة من الفتيات
والناباتات في البيوت الكحولية، فمن ذلك احصاء نيويورك لسنة ١٨٦٨م
إذ كان لها من البغايا إذ ذاك ٢٠٠٠ بغى، وبسؤالهن عن شؤون أهلهن الحيوية
والاجتماعية حصلت الحكومة هنالك على النتيجة التي في الجدول التالي :

من ٢٠٠٠ بغى

٨, ٢٩٪ = ٥٦٩ لآباء مدمنين

١٧, ٣٥٪ = ٣٤٧ لأمهات مدمنات

٨, ٣١٪ = ٦٣٦ لآباء معتدلين في الشرب

٧, ٢٨٪ = ٥٧٤ لأمهات معتدلات في الشرب

وقد قررت السيدة تارنوفسكى فيما امتحنت من البغايا الناباتات في بيوت
يشرب أبأؤها أو أمهاتها أن عددن لا يكاد ينقص عن ٦٩٪ من مجموع
ما امتحنت من العاهرات عامة .

لا ينتهي تأثير الأشرطة الروحية هنا عند حدود تيسير أمر البغاء، وإحالة
قسم كبير من الصنف الرقيق النفيس بضائع معروضة، تتداولها أيدي
المستفتحين، وتستبيحها الدراهم المعدودة، بل إن من آثاره السيئة في حياة
تلك الطائفة التعمسة ما يزعج المتدبر ويذيب القلوب القاسية حسرة عليهم.
تندج الفتاة في تلك الزمرة، فبعد إذ كانت تستدرج بالمغريات، ويلان شماسها
بخفيف الأشرطة الروحية، تنعكس القضية فيما بعد، فلا تشرب في حضرة
طلابها للذة تبغيها من الشراب، ولكن لتستدرجهم إلى الكؤوس المتلاحقة
كي تحل بها عقدة جيوبهم، وتبسط بالعطاء مقبوض أيديهم، فترج في غمرات
نشوتهم أضعاف ما تبلغ في صحواتهم.

ومن أولئك الفتيات من يستخدمن أرباب المواخير والمراقص
ليستمن الأعرار وأهل الدعارة، ثم ليشرنهم ويشربن في حضورهم ما يرتد
على مستخدمين بالمال الوفير والرجح الكثير، ذلك حرصاً على مرضاة
سادهن، وخشية أن يخرجن من تلك المواخير، لاسيما ما كان منها مشهورا
يكثر اختلاف أهل الدعارة اليه ويقبل السفهاء بأموالهم عليه.

تختار تلك الأماكن وسام الفتيات لتتصيد بهن الرجال، حتى إذا ما دخلوها
أسقينهم من كؤوسها وأقداحها وزجاجاتها ما يبتلع جل موسوعات جيوبهم،
وأكثر ما تجمع من كسبهم، ثم تعمد تلك الفتيات مرضاة مستخدمين إلى
ما بين أيديهن من الصيد المقنوص، فلا يزلن يثقلنه بالتكاليف، ويجعلن فتح
زجاجات الشمبانيا والوسكى وعتيق النبيذ من شرائط وصاهن ووسائل
مرضاتهن، ثم لا يزلن يكن بالصغير والكبير والماخوري، ومن خلفهن يجمع

ما تحلب من الدراهم والدنانير حتى تحيط خزائنه الحديدية بما كان متفرقا في جيوب أولئك الفدام وضحايا المدم .

ولفتيات تلك المواخير في فتنة الأغرار وإبتزاز أموالهم من الطرق ما يفضى دائما إلى الأحداث المنكرة والجرائم الكبيرة، كما أن اغراقهن في الشرب، لما ذكرنا آنفاً من الأسباب، ينقلب مصدرا لشقاءهن وعلّة مطردة لتعس عيشهن ونكد حياتهن، فكم حوت السجون ومستشفيات المجاذيب من أولئك الفتيات ، ثم كم شتمت الحياة الاجتماعية بما يأتين في المدائن من ضروب السيئات وصنوف المنكرات . تعرف هذا دولتر الشرطة ودوائر القضاء في كل أرض، كما يعرف مبلغ تعس تلك الطائفة وشقاء عيشها واعتلال أبدانها وعقولها أطباء الشرطة والسجون والبيمارستانات .

مبلغ علاقة الكحوليات بالتجارة والصناعة والوصلات (طرق المواصلات)

لا تنفك الأمم تخترع وتبتدع ، باذلة ما لا يقدر من عنايتها بأمر هذه الشعب الثالث، وذلك منذ فتح الله على الإنسان باستعمال البخار والكهرباء واستخدامهما في الشؤون الحيوية طوع إرادته وعقله اللذين بهما استخلفه الله في الأرض .

يسرت وسائل النقل ، وكثرت صنوفها وأنواعها بين قريب البلدان وبعيدها مدنها وجاهليها، حتى أصبح كل قوم ، بل كل فرد من كل قوم، يحس بما بينه وبين سائر الناس المبعثرين في أدانى البلاد وأقاصيها من تنوع المحرم والصلوات .

ولقد جاءت الحرب العامة الأخيرة، فأدركها، حتى الجاهلون والأحداث،
أن ما بين القطبين من عامر الأرض وغامرهما، وسائلها ويابسها، متشبه
متلاحم تجرى فيه التقطرات البخارية والسفائن والطائرات والأسلاك
والتيارات الكهربائية انبثات العروق والأعصاب في جسم الكائنات الحية .
ما كان أجدرنا أن نتف بتلك الوسائل القيمة لدى حدودها النافعة، وأن
نحتفظ بها فلا تسفه أحلامنا في استعمالها، ولكن الانسان، الذي يجنى على
ما بين جنبيه من عناصر كيانه وشرائط حياته وأداة حسه وإرادته وإدراكه
أبى إلا أن يسير بها سيرته في ذرات بدنه ودقيق أعصابه، فسلط عليها
ما سلط على بدنه من الأشربة الكحولية، وأضر بها كثيرا من الأرواح
البشرية، ونفائس الذخائر، وقيمات المنقولات التجارية .

اتخذت الوصلات وسيلة لبث الكحوليات في الأرض، ففعلت في
كثير من الجموع الانسانية ما تفعل الأوبئة . وما أفضح ما فعلت وتفعل
دول أوروبا في ذلك، فلقد أبلغ مالىوها تلك الأشربة بين الأمم الشرقية
ما بلغت سفائنهم وسككهم الحديدية، فلم يلبث الكحول أن أمكن دولهم من
مآربهن الاستعمارية ولبناتهن الاستغلالية، حتى استخلفهن في كثير مما لأولئك
الأغرار الجاهلين من البلدان والممالك . ثم تفشى الكحول في القامئين بتدبير
آلات النقل التجارية، كما تفشى في طبقات عمال المصانع (الفبريقات) صغراها
وكبراهها، حتى أصبحت الأخطار الملمة بأولئك العملة وبالمصالح العامة من
الشؤون التي لا يجمل السكوت عليها .

يسكر سائقو القطارات، وربابين السفن التجارية، وأشباههم من الشاغلين

لأمثال تلك الوظائف، التي من أهم شرائط السلامة فيها حضور الدهن وفرط اليقظة وشديد التحوط، فلا يكاد يسلم من العطب أو مادونه من النتائج المؤلمة ما يكون بها من الأنفس البشرية والأموال القيمة .

يسكر العامل في المصانع التي تحتاج إلى دقة النظر وفرط الحذر ونشاط البدن، فلا يلبث الكحول أن يضعف منه الأعصاب فيسلبه بذلك الدقة الضرورية والحيلة الكافية ويعرضه لخطر ما هنالك من الآلات الحديدية الثقيلة، ومن قدرت له السلامة من تلك الأخطار، فإن الفتور والخدر يتغلب على عضلاته فيحرمها النشاط الذي هو شرط في نجاح العمل والعامل معا .

لا يكاد القلم يستقصى ما ترمى به الكحوليات العمال ومدبري تلك الآلات التجارية والبنزينية والكهربائية على اختلاف أنواعها من النوازل والأحداث المريعة، ولكن للاستئناس بجمل أن نضرب فيما يلي بعض الأمثال أدركت شركات السكك الحديدية في أمريكا خطر إباحة الكحوليات لعمالها منذ أمد بعيد، فحرمت عليهم قليلها وكثيرها، ماداموا موظفين لديها ولو كانوا خارج أعمالهم، أو كانوا بين جدران بيوتهم. وأما في ألمانيا فقد حرمت إدارة السكك الحديدية ذلك على عمالها، ماداموا مباشرين لوظائفهم أو متهيئين لنوبتهم، مع فرض عقوبات قاسية على من يخالف ذلك منهم بلا رحمة ولا هوادة .

ما فعلت أمريكا ذلك ولا ألمانيا بالطبع إلا بعد أن رأيا من الأخطار المريعة الناجمة عن استعمال عمال سككها الحديدية للأشربة الروحية ما قبح معه السكوت والجمود، فان في نوازل المصادمات وخروج القطران عن القضبان

وانفجارات المراجل وخطأ عمال (الاشارات) ما اضطرهما إلى اتخاذ تلك
التدابير الصارمة ووضع الأنظمة الشديدة، وإن يكن فيها - كما يزعم رجال
القانون - عدوان على ما يسمونه «حرية الفرد»، فلقد روى عن مدير لأحدى
شركات السكك الحديدية الكبرى بأمريكا قوله في تقرير له: «إن «حرية
الفرد» لا يجوز أن يقال بها في شيء من الوظائف التي تقتضى يقظة العامل
وحضور عقله .

وكائن من حادث قضى بالعطب على المسافرين في البحار، لا لعة سوى
حميا الكؤوس والأقداح تصرف ربايين السفائن عن تديرها والاحتفاظ
بما استودعوا فيها من الأرواح والأموال . أضرب مثلا سفينة نياجر
الفرنسية (١) فلقد كان بها ثلاثة ربايين، ومع ذلك لم يغنها ذلك في بعض
سفارها شيئا ليلة عقد الكحول عيون مسيرها فتركوها للرياح المتصادمة
في الأمواج المتلاطمة والركب يربو على تسعائة نسمة، حتى استاقتها ريح
عاتية إلى شط ضحل من شطوط آسيا الصغرى، فما لبثت أن ارتطمت في
رماله، بعد صدمة خلعت القلوب، وميلة أشرف فيها الركب على الغرق، ولولا
عناية ربانية تداركت أولئك المساكين، وهم في ظلمات الليل البهيم لا حول لهم
ولا حيلة سوى ضراعات المتوكلين منهم يظرقون بها أبواب السماء وصيحات
خفاف الأحلام من بينهم يملءون بها واسع الفضاء، ولولا تلك العناية
لذهب الجميع ضحايا الكؤوس التي تناولها أولئك الربايين .

(١) حدثت هذه النازلة في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٢م وكان كاتب هذه السطور
وأهل بيته وأولاده في جملة ركابها .

ليس الخطر الناجم عن الخمر في المصانع والمعامل بأقل مما يحدث بسببها في السفائن والسكك الحديدية . تكثر أحداث الخطر في الأيام والأوقات التي يشرب فيها العمال في أيام الاثنين من كل اسبوع، وكذلك بعد الافطار وفي الأصال (أى من العصر إلى المغرب) من كل يوم ، كما تكثر جداً في معامل الجمعة (البيرة) التي قضى عرفها ألا يمنع العامل فيها عن تناول مايشاء من المقادير بلا عوض ولا تقييد . وضع الأستاذ وايرواح إحصاء لمدينة مونيخ فيما بين عامى ١٨٦١ - ١٩٠٤ أثبت به أن الوفيات بين عمال الجمعة تبلغ ٦,٤ بنسبة المائة من سائر الأسباب المفضية إلى الموت مطلقاً، ونعنى بذلك الوفيات الناتجة من تلك المصانع عن الاخطار والاصابات التي تنزل بعاملها بسبب إفراطهم فى شرب الجمعة ، لما أسلفنا من أنه مباح بها .

وجاء فى إحصاء وضعه كوخلين فى بيان تأثير الكحوليات لما بين عامى ١٨٨٧ - ١٩٠١ أن متوسط الإصابات فى مصانع الجمعة وحدها يبلغ ١٠٩ لكل ١٠٠٠ عامل، بينما متوسط الإصابات فى سائر المصانع الأخرى مجتمعة ٤٣ إصابة لكل الف عامل، فاستنتج من ذلك كوخلين مبلغ ما بين تناول الكحوليات وبين الأخطار والاصابات التي تلم بشاربيها . ولقد تزودنا شركات التأمين وشركات مصانع الكحوليات فى ذلك بكثير من الحقائق ذات البال .

قررت لوائح « الزيدر هوته » من باب التجربة التصديق على عمالها، وحرمت عليهم استعمال تداول زجاجات الجمعة بينهم خلال عملهم، فهبطت لديها الاصابات خلال خمسة أعوام إلى ثلث ما كانت عليه قبل هذا الحجر والتصديق

وقد أدركت بعض شركات التأمين في إنجلترا سر كثرة الاصابات بين
العمال الشاربين، فقررت اعفاء المتخرجين عن الأشربة الكحولية عن مقدار
من الأقساط الشهرية يتراوح بين ١٥,٥ بنسبة المائة . وبالجملة فإن سائر
الشركات الصناعية قد أخذت منذ فقهن سر تكرر الاصابات بين العمال،
أخذن يحرمن أو يضيقتن على عمالهن في استعمال الأشربة الروحية؛ كما أن
شركات التأمين على الحياة لايزن يختصصن المتخرجين ويفضلنهم على أصحاب
الكحول بما يفرضن من الامتيازات، وليس ذلك بالطبع عبثاً منهن وتضحية
بكثير من منافعهن المادية دون فائدة يرتجيناها ولا غاية يرمين إليها .

ولا مرأ أن تأثير الكحوليات في المصانع لا يقف عند حدود تعريض
العمال لأخطار الآلات البخارية، فلقد سبق لنا القول فيما ينجم عنها من
توهين القوة العاملة ونقص ما تخرجه من الثمرات العملية، ولا بأس أن
نزيد هنا أن أدق مقياس للقوة البدنية هو الامتحان العسكري، أي الامتحان
الذي تفرضه الحكومات المدنية للتجنيد، فيجمل أن نستأنس هنا ببعض
ما ورد في ذلك الباب من النتائج .

لقد كان التجنيد في ألمانيا فرضياً قبل الحرب العامة بنسبة الأمم الأخرى،
بيد أن ذلك لم يصد المفكرين عن تدبير الأسباب التي أثبتت عدم صلاحية
نحو ٥٠٪ من المتطوعين بخدمة سنة في الجندية بها . قارن الدكتور روزا
في الصلاحية للجندية بين الجزائريين والختارين وبين أبنائهم، فوجد أنه بينما
يصلح للخدمة العسكرية من الآباء ٧٦٪ إلى ٩٠٪ لا يصلح لها من أبنائهم
سوى ٣٨٪ إلى ٤٣٪، وذلك لأن الضعف في الآباء نتيجة تناولهم أنفسهم

الكحوليات، وأما في الأبناء فله سيبان: (١) ماورثوه عن آبائهم من الضعف
(٢) ما نتج عن تناولهم أنفسهم لها من الآثار .

ولقد أثبتت الأبحاث الطبية العسكرية تصاعد نسبة غير الصالحين
للجنودية بين طبقات الخنارين تصاعدا مطردا، كما أثبتت الاحصاءات الفروق
الواسعة بين أصحاب الكحول (الذين هم غالبا من أهالي المـدـن)
وبين القرويين في الصحة البدنية وطول الأعمال والقوة العاملة والأمراض
التناسلية . والمتدبر لما بين أنهر تلك الاحصاءات يرى أن جل الآفات
والعلل المتفشية بين سكان المدائن متسببة عن الأشربة الكحولية، سببية
قريبة أو بعيدة، وإذا كان لابد للشعوب من الدفاع عن أوطانها، ومنافسة
غيرها في ميادين الصناعة والتجارة وسائر شعب الحياة، كان عليها أن توفر
بين حمايتها وعملها أسباب الصحة وشرائط السلامة، وتحفظها من الوهن
والضعف، إذ لابد أن تدور الدوائر على أضالهن أجساما، وأضعفهن أصلا
وأكثرهن آفات وآلاما، وانما أحزم الأمم وأعقلهن أسبقهن إلى التخرج
والتأثم، وأشدهن تمسكا بقاعدة « سد الذرائع »، ومجافاة ينبوع الآثام
والمحارم .

الخلاصة:

عما تقدم يتضح جليا مبلغ خطر الأشربة الكحولية، وأنه لم ينبج من
آثارها الضارة وأذاها البالغ شعبة من شعب الحياة، ولقد يحسن أن نضيف
إلى ما سبق تفصيله كلمة لبعض الأمر يقين، نشرها على أثر معاهدة فرساي

يوم اشتدت الحاجة في أوروبا الوسطى الى القوت ، وشخصت بأبصارها إلى
أمر يقة تلتمس عونها وترجو غوثها ، إذ يقول :

« تمد أوروبا إلينا يدها طالبة أن نقدم لها من القوت ما يقيم أصلابها
ويحفظ حياتها ، ولديها من الشعير وحده ما كان يكفيها أمر الاستجداء ،
لو أنها ضلت على مصانع الجعة (البيرة) المتفشية في سائر أقطارها . ولو
أنها فقهت قليلا لاتعظت بما فعلته الممالك المتحدة الأمريكية ، فان ما أمدت به
هذه أوروبا من الشعير لم يتجاوز ما صانه قانون تحريم المسكرات ، وأوصد
دونه أبواب مصانع الجعة .

« تطلب أوروبا منا الفحم ، وتبتهل إلى عواطفنا بما يفعل الشتاء
القاسى بضعفاء شعوبها وخفاف الحال من أفرادها ، ثم تشكو فرط حاجتها
إلى الفحم في شعب الوصلات ومصانع المرافق والضروريات الحيوية ، مع أنه
كان يكفيها أمر تلك الضائقة أن تقبض أيديها - بما لديها من ملايين قناطر
الفحم - عن مئات الآلاف من مصانع الخمر كبارها وصغارها . ولقد كان
عليها أن تعتبر بما فعلت أمريقة عام ١٩١٨ ، فانها وزعت دالم يستهلك
في مصانع الخمر المغلقة من الفحم مجانا على فقراء الشعب الأمريقي ، فكان له
جنة من برد ذلك الشتاء المهلك

« تشكو أوروبا الوسطى فرط حاجتها الى السكر ، وترى ما يصيب
الفقراء وخفاف الحال من شعوبها بسبب قلة هذه المادة وغلاء أسعار الموجود
منها هنالك ، مع أن لديها من الثمار السكرية ، بل ومن ملايين قناطر السكر ،
ما كان يغنيها عن الاستجداء ، لو أنها عقلت ففعلت ما تفعل الأمم الرشيدة .

« نقرأ بالأمس في الجرائد الألمانية » أن ناظر الزراعة والصناعة
في حكومة بادن باون خطب جماعة من قادة الشعب، فقال - بعد كلام طويل
ساقه لشرح أسباب الضائقة التي فيها ألمانيا - : إن قسم بادن باون في حاجة
شديدة إلى السكر برغم ما امتاز به عن غيره من أقسام الإمبراطورية
الألمانية لما فيه من وافر الثمار السكرية كالتفاح والكمثرى والعنب والبرقوق
وأشباهاها . ذلك لأن مصانع الأشرطة الروحية بها على استهلاكها المقادير
الهائلة من تلك الثمار لاستخراج صنوف الأشرطة المسكرة لا تزال تستهلك
القناطر المقنطرة من السكر أيضا . ولقد دل الإحصاء على أنها استهلكت
من السكر في العام الفارط عشرين مليون قنطار . ذلك شأن بادن باون
وغناها في عالم الثمار السكرية ما وصفنا ، فما بالك بما تفعله المصانع الكبرى
والصغرى المنبثقة في أجزاء الإمبراطورية الألمانية التي تقل أو تندر فيها
الثمار السكرية ؟ لا جرم أنها تفنى بين جذرانها من السكر أضعاف أضعاف
ما تفنيها المصانع هنا »

ذلك قول وزير خبير من أساطين أوروبا الوسطى يصف به منشأ
علة من عللها الكبرى ، ولكنه لم يتخط حد الوصف والإحصاء ، فلعله
خشى أن يصارح قومه الغافل بضرورة تعجيل القضاء على أفضع ينبوع من
ينابيع شرورها ، حيث تتخلق عوامل الشقاء وتتوفر أسباب البلاء
ولقد نجد من الناس من يسعون لترويج القول ببقاء حل الأشرطة الكحولية ،
غير معتمدين على أسباب صحية أو آراء معقولة ، ولكنهم يقولون إن
الحكومات بتبويلها قانون تحريم الأشرطة الكحولية تفقد خزائنها كل عام

مالا يستهان به من الملايين الذهبية. وليس لهؤلاء من الأسباب التي يتذرعون بها إلى استباحة المسكرات سوى هذه الفكرة الواهية أو المتهاففة من نفسها. يفكر ذلك النفر في اغناء خزائن الحكومات بما تدره هذه الآفة الخبيثة غير مبالين بما تحنثه في الجماعات الانسانية من صنوف الأذى، كأنما الحكومات ما أنشئت إلا للتجارة واستجمام الأموال بالحرام والحلال.

لا أراني في حاجة إلى مناقشة أولئك السخفاء من أهل الأهواء بعد إذ أعلنوا قصور عقولهم وجهلهم بالوظائف الاجتماعية التي تنشأ لأجلها الحكومات، والغاية التي ترمى إليها سياسة الأمم والشعوب، ولكن هنالك نقطة لا يدركها الا الواقفون من المنقبين والباحثين في الوجوه التي تصرف فيها الحكومات أموالها فان فيها من الحتمات ما يدحض لك المزاعم، ويبين فحش خطأ أصحابها أو سوء طويتهم، وبما أنه لا يحضرني الآن من المراجع ما اعتمد عليه في بيان المقادير التي تنفقها الحكومات والجماعات والطوائف المختلفة في معالجة نتائج الخمر ومدافعة شرورها (١)، فاني أكتفي هنا بذكر مجمل تلك الوجوه التي تذهب فيها الملايين الذهبية كل عام فيما يلي :

(١) مستشفيات المجازيب والأمراض العصبية مطلقاً .

(٢) مدارس إصلاح الاحداث الذين كلهم أو جلهم من نتاج البيوتات

الساكرة .

(١) لقد كان لدى منها وأنا بالمانيا الشيء الكثير، ولكن ليس في استطاعتي الآن وأنا في أنقرة الحصول على شيء منها (المؤلف)

(٣) ملاجىء الأطفال النابتين غالبا بسبب الغوايات الكحولية، وأكثرهم لقطاء وأرباب أمراض متنوعة .

(٤) السجون التى تحشر اليها الحكومات أرباب الجرائم والجنايات المتنوعة من أصحاب الكحول ، سواء فى ذلك من يكونون خلال أدوار التحقيق ومن حكمت المحاكم عليهم بأحكام مختلفة بسبب الخمر مباشرة أو بالواسطة .

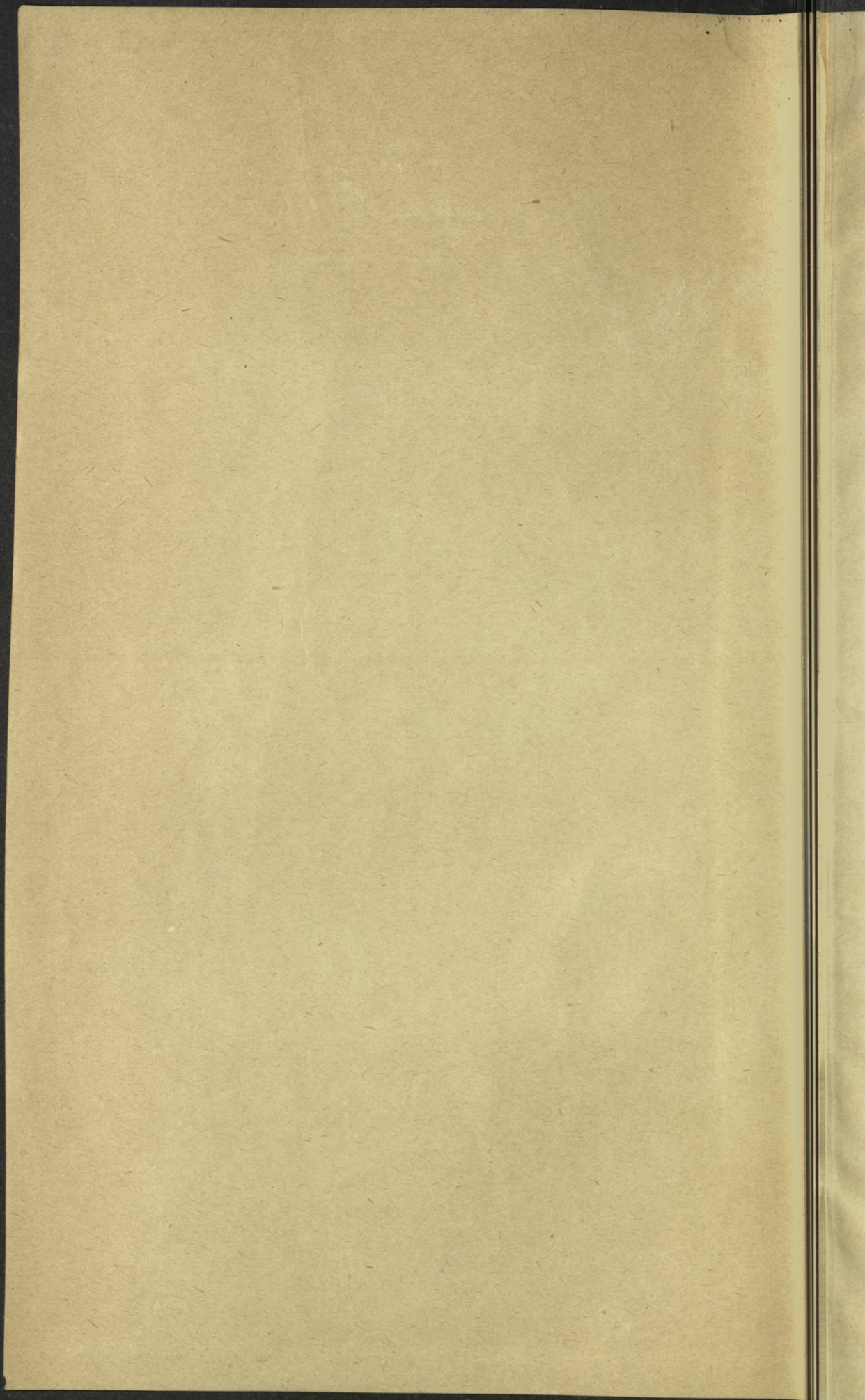
فما أسلفنا هنا من الوجوه ينفق مالا يكاد يحصى من الأموال التى تكاد تعدل ما يدخل خزائن الحكومات من الضرائب الخمرية على اختلاف أنواعها . فاذا أضفنا ذلك الى ما تستتبعه الأشربة الكحولية من المضار التى سبق بسطها فى الأبواب السالفة ، تبين أن الذين يروجون القول بدوام إباحة الأشربة الكحولية إنهم إلا ضالون أو مضلون ، فليتب المسلمون إلى ربهم، وليفقهوا أسرار دينهم، ولا يكونوا كالذين قال فيهم الحق تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالانعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون، تلك آيات نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون »

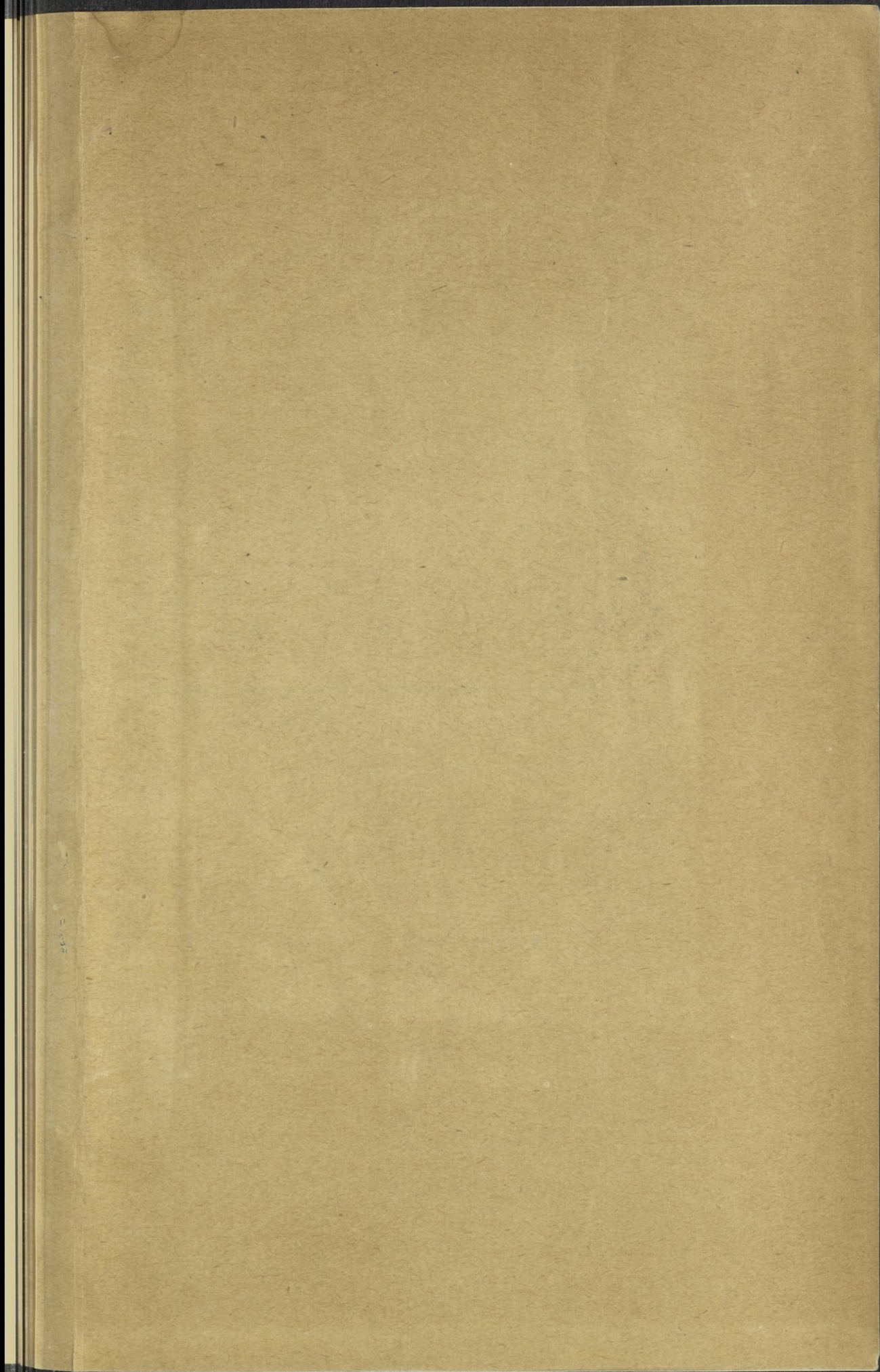
فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة
الاهداء	(١)
كلمة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية	(ب)
الاسلام دين الفطرة	
تمهيد	٣
الحديث	٤
الفطرة والتوحيد	٥
النبوة وتقريرها والغرض الفطرى منها	١٠
هل أسس الإسلام على السيف؟	٢١
وجه كون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لجميع المكلفين	٣٢
إباحة التجميل بأنواع الزينة	٤١
الرق فى الإسلام ومطابقته لمقتضى الفطرة	٥٤
المرأة فى نظر الإسلام	٦٣
فصل فى تعدد الزوجات فى الاسلام	٦٧
الطلاق	٧٩
خاتمة	٨٤
رأى السيد جمال الدين الأفغانى	٨٧
رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده	٩٠
أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى	
فذلكة تاريخية فى أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى	٩٣

(تابع) فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة
موقف القرآن الكريم ازاء الميجزات	١٣٣
مقام القرآن الحكيم ازاء العلوم والمعارف الك	١٤٩
الآيات والأحاديث التي وردت حول موضوعا كتاب	١٧٨
آثار الخمر في نظر أرقى الأمم	
مقدمة	١٨٦
تمهيد	١٩٤
الكحول والحياة الاجتماعية	١٩٥
سمية الكحول	٢٠٢
الكحول والصحة إجمالا	٢٠٥
الكحول والحياة التناسلية	٢١٨
الكحوليات والبيغاء	٢٢٤
الخلاصة	٢٣٤





297:Sh531A:c.1

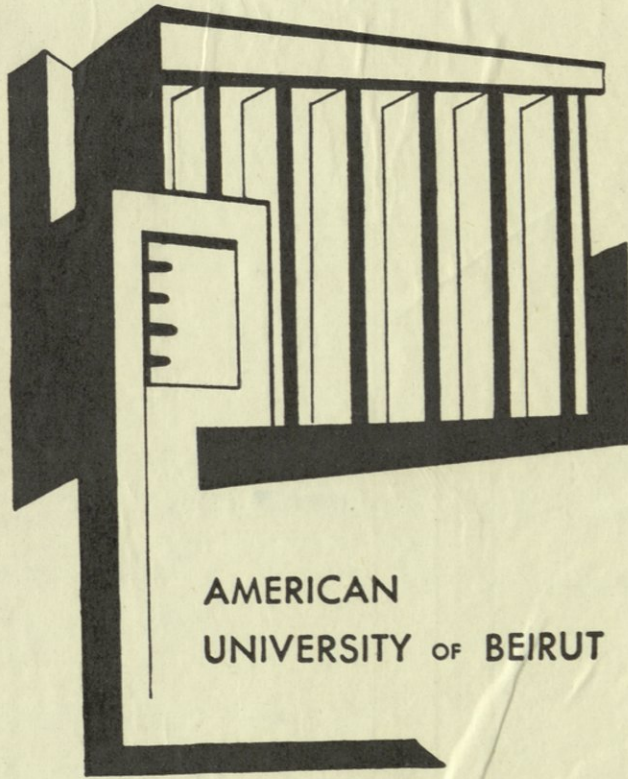
شاويش، عبد العزيز

الاسلام دين الفطرة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01005294



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

